AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00976 1036

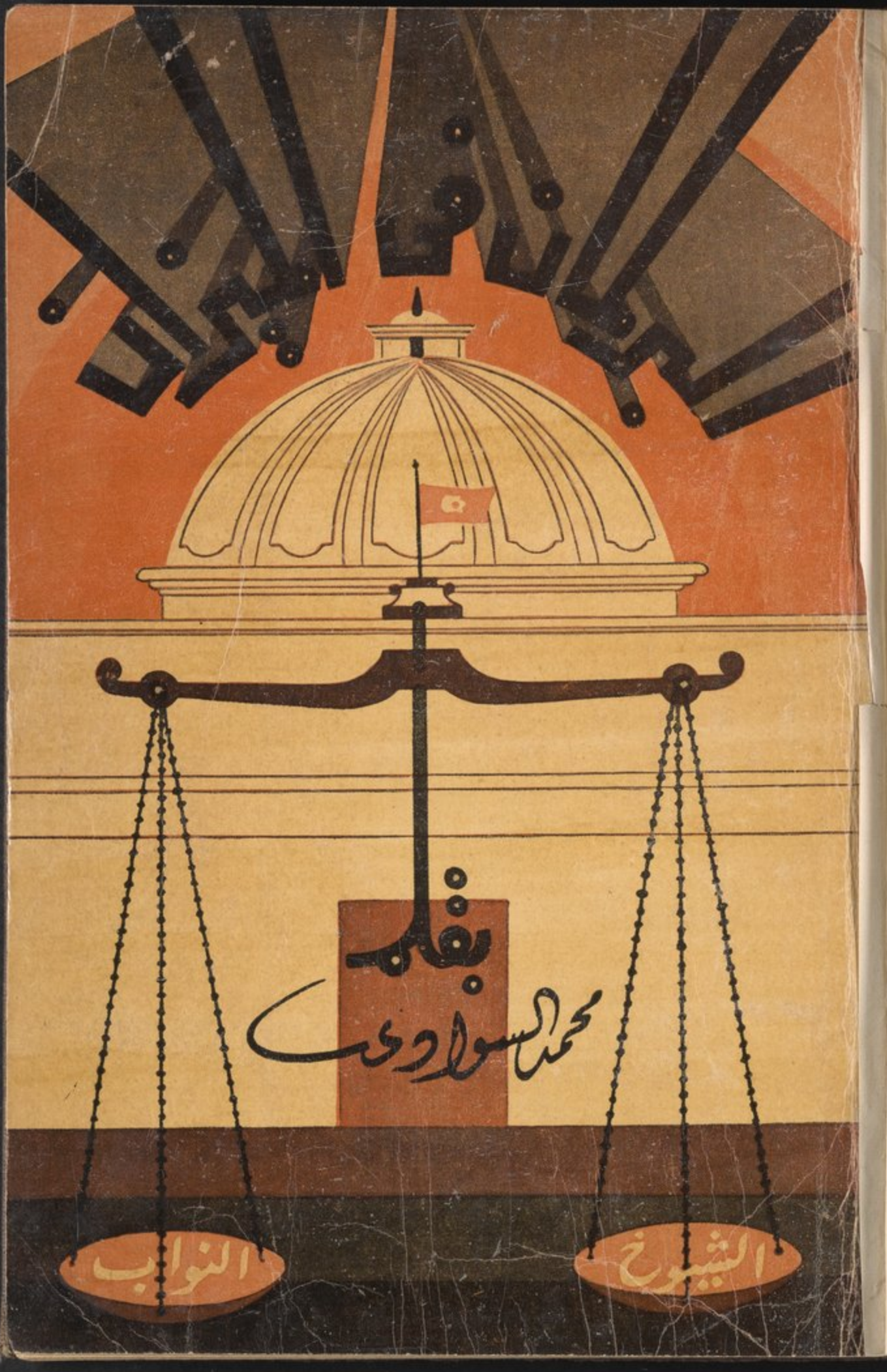
بقلم
محمد السوادي
الشيوخ
النواب

البرلمان في الميزان

بقلم

محمد السّـــوادي

المحرّر بجريدة البلاغ وناقدها البرلماني

JF
515
S3X
1942
V.1

الجزء الأول

مطبعة الاعتماد بشارع حسنة لأكبر بمصر لصاحبها محمود الخضري

923.5
P239

٣٦٩٦ ,٣٥٨
س م ب

الثمن ٣٥ قرشا

22387

الطبعة الثانية
سبتمبر سنة ١٩٤٢

الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى فى ٣٠ يونيو الفائت ، ونفدت فى أوائل سبتمبر الحالى ، وهاهى ذى الطبعة الثانية أقدمها إليك ، ولم يكن فى نيتى أن أقول لك شيئاً .. إيمانا منى بأن فى نفاد الطبعة الأولى بعد شهرين من صدورها ، أبلغ تقدمة .

ولكني عدت فذكرت أن لك بعد إقبالك على كتابى ، دينا فى عنقى ، لايوفيه أن أسكت عليه ، بل أقل مايجزيه أن أشكره لك .

وعدت فذكرت أولئك الوزراء والعظماء ، والكتاب والأدباء ، الذين سارعوا إلى الكتابة إلىَّ — أو عنى — معربين عن الاعجاب ، مبدين بعض الآراء فى الكتاب ، فرأيت من حقهم علىَّ ، أن أذيع بين الناس مقتطفات من آراءهم فىَّ ، ورأيت من حقى أيضا أن أباهى بهذه الآراء ، فأن تكن حمداً فالحمدلله على ماهدانى ، وأن تكن نقداً فما أشد حاجتى إلى تبين أخطائى .

وعلى هذا الهدى أضفت هذه «الملزمة» إلي الطبعة الثانية ، وانتهزت فرصة هذه الإضافة ، فصوبت بعض الأغلاط المطبعية والأخطاء التاريخية التى وقعت فى الطبعة الأولى ، معتزما أن أعيد نشر هذه الآراء — مع مايصلنى من نظائرها فى مقبل الأيام — فى صدر الجزء الثانى إن شاء الله .

والله أسأل — وقد ثبَّت فؤادى على حب مصر وعرشها الغالى — إن يمكن لى من مواصلة نقدى ، فى جو أكثر صفوا ، وبروح أشد إشراقا ، وأن يسدد خَطْوِى فى طريق إلى المثل الأعلى ، محتفظا بالحب للحق ، وبالوفاء للوطن ، وبالولاء للملك ؟

السوارى

فهرس المواد

صفحة

شكر ملكى كريم ١

من أعضاء البيت المالك ٢

من دار النيابة والكتاب والصحفيين والصحف ... ... ٣ — ١٥

إهداء ١٧

مقدمة .. .. ١٩ — ٢٣

بيان لاتعوزه الصراحة ... ... ٢٤ — ٣٥

الباب الأول — مصر النيابية ومصر السياسية .. .. ٣٦ — ٥٢

الباب الثانى — المجلسان فى الميزان ... ... ٥٣ — ١٠٣

من هنا ١٠٤

من هناك ١٠٥

الملك ١٠٦

الباب الثالث — فى مجلس الشيوخ — هيئة المكتب ١٠٧

الشيوخ الذين ولوا رياسة المجلس ... ... ١٠٨ — ١٢٨

الشيوخ الذين ولوا رياسة الوزارة ... ... ١٢٩ — ١٥٧

الشيوخ من الوزراء الحاليين . ... ١٥٨ — ١٦٩

الشيوخ من الوزراء السابقين . ... ١٧٠ — ٢٦٨

الجزء الثانى ٢٦٩

الشيوخ من رجال الصحافة ... ... ٢٧٠ — ٢٧٤

الشيوخ ممن يمتون بوشائج القربى أو النسب للبيت المالك ... ٢٧٥ — ٢٨٣

الشيوخ من كبار الموظفين السابقين .. .. ٢٨٤ — ٢٨٩

الشيوخ من الضباط العظام ... ... ٢٩٠ — ٢٩١

الشيوخ من الأعيان والأطباء والصيادلة ... ... ٢٩٢ — ٣٠٤

الشيوخ من المحامين الأهليين والشرعيين ... ... ٣٠٥ — ٣١٨

الشيوخ من مشايخ البدو ٣١٩

المغفور له يوسف الجندى ... ... ٣٢٠ — ٣٢١

الباب الرابع — فى مجلس النواب — هيئة المكتب ٣٢٢

أعضاء النواب ٣٢٣

رئيس مجلس النواب . ... ٣٢٤ — ٣٣٥

شكر ملكى كريم

وبواله كبير الأمناء

حضرة المحترم الأستاذ محمد السوادى

أتشرف بابلاغ حضرتكم الشكر السامى على النسخة التى رفعتموها إلى حضرة صاحب الجلالة الملك من كتابكم «البرلمان فى الميزان»

وتفضلوا بقبول وافر الاحترام؟

الأصبن الأول

إسماعيل تيمور

تحريرا فى ٢٣ يوليه ١٩٤٢

من أعضاء البيت المالك

ومن خطاب لصاحب السعادة محمود فهمى باشا :

باسمه واسم قرينته حضرة صاحبة السمو السلطانى الأميرة قدرية حسين

«تصفحت هذا المؤلف النفيس، فاذا هو تحفة قيمة ، وسجل حافل، يمتاز بخفة الروح ، ورشاقة الأسلوب ، ورائع الخيال ، وقوة البيان، وضع فى قالب من الفكاهة يغالبها الجد ، وعقد من الإيجاز يسوده الوضوح، وروح من المرح تزينه الحكمة والرزانة والسداد ، مما يدل على طول باعكم ، وقوة يراعكم ، فاقبلوا تهنئة سمو الأميرة وتهنئتى لكم ، لنجاحكم فى هذا المجهود الفنى العظيم »

من دار النيابة

١ — من رئيس مجلس النواب

ومن خطاب لصاحب السعادة عبد السلام فهمى جمعه باشا رئيس مجلس النواب :

« . . وسرني كثيراً أن تكون لحياتنا البرلمانيـة هذه العناية من أقلام أدبائنا وكتابنا ، وأن يكون لها مثل مؤلفك الجديد فى نوعه ، الرشيق فى عبارته ، الممتع فى أسلوبه . ولقد أسلفتَ البرهان بما أنشأتَه وتنشئه من فصول شائقة فى جريدة البلاغ الغراء ، على احتفالك بالنقد البرلمانى ، واحتشادك لمثل هذه المهمة الجليلة ، وكان لطلاقتك وترسلك ، وما تصدر عنه من رأى حر جرىء ، وفكر لامع مرتب ، أكبر الأثر فيما صادفته هذه الفصول من اهتمام وإعجاب ، وإن اختلفت معك فى بعض الموازين وفى الحكم على بعض الأشخاص ، إلا أننى أقدر هذا الصدق فى التصوير ، والأصالة فى التعبير ، وأهنئك من صميم قلبى بهذا المؤلف البديع ، الجدير حقا بكل اعتبار وتقدير ، وأرجو أن أرى دائما آثار هذا القلم الفنان ، وأن أمتع نفسى بما وهبك الله من سلامة الذوق وحسن البيان »

٢ — من الوزراء النواب

« ١ »

ومن خطاب لصاحب المعالى أحمد نجيب الهلالى باشا وزير المعارف :

« أرجو أن تتقبل منى أصدق التهنئة بهذا التوفيق العظيم ، الذى أتيح لك فى تأليف كتابك الممتع « البرلمان فى الميزان » وفى إذاعته فى هذه الطبعة الأنيقة الرائعة ، فقد أهْدَيْتَ إلى قرائك تحفة نفيسة حقا ، تمتع العقل والحس والذوق جميعا ، ففى أسلوبك اليسير الخلاب ، وفى نقدك النافذ الأخاذ ، وفى هذا العرض الجميل الرائع ، متاع ينعم به القارىء فى غير جهد ولا مشقة ، على كثرة ما بذلت أنت فى إنشاء كتابك من الجهد ، وما احتملت من المشقة .

وإنى حين أهدى إليك تهنئتى الخالصة بهذا الفوز الأدبى أتمنى لك منه المزيد »

(ب)

ومن خطاب لصاحب المعالى محمد صبرى أبو علم باشا وزير العدل :

« تسلمت نسخة من مؤلفكم القيم « البرلمان فى الميزان » تصفحته فألفيته الأول من نوعه فى وصف الرجال البرلمانيين .. إطراء خلو من التملق والتزويق .. ونقد برىء يصل إلى صميم الحقيقة — كل ذلك فى حسن أداء ، وجمال فن ، وسلاسة أسلوب .. فلا غرو فهو كتاب خالد بما احتواه من وصف ونقد وتحليل لدنيا النيابة فى مصر .. فاليكم منى أخلص التهنئة على هذا الفتح الجديد »

٣ — من نواب المعارضة

(ا)

ومن خطاب لصاحب السعادة عبد السلام الشاذلى باشا (من النواب المستقلين) :

« . . . أقرأ كل يوم فى كتابكم بلذة واشتياق ، أسلوب طيب سهل ، وتصوير صحيح ، وإنصاف فى حدود المستطاع فى أيام الرقابة والأحكام العسكرية ، ولا شك أنكم بذلتم جهدا مشكورا ، وقدمتم خدمة طيبة للحكم الدستورى فى هذه البلاد . . »

(ب)

ومن خطاب للأستاذ محمد محمود جلال بك (من نواب الحزب الوطنى) :

« . . . قرأت كتابك فى إحدى سفراتى بالديزل ، وأنا أبغض هذا النوع من القطارات ، ولكن كتابك جعله فى نظافة البولمان وفى سرعة الطائرة . . . »

من كبار الكتاب والأدباء

(أ)

من خطاب للدكتور طه حسين بك :

« ... لم أقرأ كتاب (البرلمان فى الميزان) بعد ، وإنما خلوت إليه ساعة من هذه الساعات القليلة ، التى يتاح لى فيها أن أخلو إلى الكتب ، فلست أستطيع أن أحكم لكتابك أو أن أحكم عليه جملة ، وإنما أحس أن من الحق علىّ ، أن أشكر لك هذه الساعة الحلوة التى قضيتها معك ، وان أحمد اعتدالك فى الرأى ، وحسن قدرك للأمور ، وظرفك فى التعبير عما تريد وعما نريد نحن أيضاً ، وأحمد لك — بنوع خاص — هذه السماحة فى الطبع التى عصمتك من التكلف البغيض ، وألغت الكلفة بينك وبين قارئك ، أو ألغتها بينك وبينى على أقل تقدير .

« وقد أردت بكتابك أشياء ، ويخيل إلى أن الله أراد به شيئا آخر ، فقد فكرت فى الناخبين ، وفكرت فى الشيوخ والنواب ، وما أشك فى أن كتابك سينفع فريقا من أولئك وهؤلاء بنوع خاص ، وسيغرى بعض الناس ببعض ، ويضحك بعض الناس من بعض ، وكل هذا خير ولا سيما فى هذه الأيام الثقال .

« أما أنا فأعتقد أن كتابك سينفع قوما يظهر أنك لم تفكر فيهم ، لأن كثرتهم ليست من الناخبين فضلا عن أن تكون من البرلمانيين — وهم هؤلاء الشباب الذين لم يبلغوا العشرين بعد ، والذين يتعلمون الآن فى المدارس ، ويتلقون دروسا فى الأخلاق وفى التربية الوطنية لا أدرى ماهى ولا أعرف قيمتها ، وسيصبح هؤلاء الشباب يوما ما ناخبين ، وسيصبح بعضهم برلمانيا ، وثق أن قراءتهم لهذا الكتاب ، ستنفعهم وتمتعهم أكثر ألف مرة ومرة مما تنفعهم وتمتعهم دروس التربية الوطنية .

« وأنا أرجو أن يتاح لهؤلاء الشباب أن يقرأوا كتابك ، لأنى واثق بانهم سيفيدون من قراءته خيراً كثيراً ... »

(ب)

ومن خطاب للأستاذ أحمد أمين بك :

« قرأت الكتاب واستطرفته ، ورأيت فيه فنا طريفا ، وتصويراً بارعا ، وعرضا جذابا ... »

(جـ)

ومن خطاب للأستاذ توفيق الحكيم :

« ... وأحب أن لا تفوتنى هذه المناسبة دون أن أبدى إعجابى بأسلوبه الأخاذ الذى يسلب انتباه القارىء سلبا ، وببراعة تصوير الشخصيات تصويراً خاطفا ، ولكنه نابض بالحياة . لم يبق شك فى أن كاتب هذا الكتاب قد أعطى هبة السماء ..»

(د)

ومن خطاب للأستاذ محمد كامل سليم بك السكرتير العام لمجلس النواب :

« أهديت إلىّ مؤلفك بكلمة رقيقة . وناطقة أنيقة ، فكنت جواداً بالهدية . عذبا فى الإهداء . لا يعادل ذلك الجود إلا عذوبة هذه النفس التى حباك الله بها ، فحباك فى الوقت عينه ، ذوقا وصفاء وعمقا ، يزينها كلها صدق النظر ، وجمال الاسلوب الذى اجتمعت فيه الفصاحة بالملاحة . وامتزج فيه الجد بالفكاهة . حتى خرج كتابك يختال فى جدة وخلابة تسر العقل والقلب معا . فاهنأ بما أدركت من توفيق »

(هـ)

ومن خطاب للأستاذ خليل بك مطران :

« ... ثم قرأت المقدمة الوافية والبحث العابر ، اللذين شرحت بهما البواعث الشخصية والعوامل القومية التى أفضت بك إلى توخى غرضك الأسمى من وضع هذا الكتاب ، فأحمدت مثابرتك وأكبرت ما أحاط به ذهنك ، من العلم بموضوعك جملة وتفصيلا إلى أن قال :

« وحسبى أن أقول لك إنها كانت أمنية للنفس قضيتها ، بين لطف القصة وصدق الصورة ونزاهة النقد ورشاقة الأداء لكل أولئك ، فى رصانة ودعابة تتدفق الحياة منهما وعن جوانبهما .

« فأرجو أن تتقبل منى بالقدر الذى سمحت به حالتى هذه الكلمة الموجزة فى الثناء عليك والدعاء لك بالصحة والتوفيق ، لتوالى عملك العظيم الفريد فى بابه بنجاح مطرد »

(و)

ومن كلمة للأستاذ على محمود طه المهندس ومدير مكتب رئيس مجلس النواب نشرتها له « الاهرام » الغراء بعددها الصادر يوم ٧ يوليه الفائت :

هذا كتاب جديد فى موضوعه ، جديد فى أسلوبه ، وفى الطريقة التى تناول بها مؤلفه فترة من حياتنا البرلمانية ، وليس القلم الذى جرى فى صحائفه سوى ريشة فنان قادر ومصور بارع »

ثم قال : «وقد عرض المؤلف لكثير من الشخصيات البرلمانية عرضا جميلا أخاذا ، وفق فيه كثيراً ، واقتحم ميدانا طالما تحاماه النقاد ، وآثروا التلميح فيه على التصريح ، على طريقة بعض كتاب الغرب الذين اجتهدوا فى نحت الأسماء كما صنع الوزير الفرنسى «لوى بارتو» وغيره من الأعلام ، ولكن الأستاذ السوادى استطاع أن يوفق بين أغراضه الواضحة وآرائه الجديدة ، بأناة وكياسة وطلاقة فنية مغرية بالرضا والإعجاب . .»

(ز)

من خطاب للاستاذ محمود بك تيمور :

«...وقد أقبلت على مطالعته والتنقل بين أفنانه المزدهرة ، واستمتعت حينا بما فيه ، مما دبجته يراعتكم من صور تحليلية لطيفة محكمة الخطوط ناصعة الألوان ، ومن وصف شائق جذاب ، يستهوى القارىء بما حوى من تشويق ولباقة فى العرض . .»

(ح)

ومن خطاب للاستاذ محمد الصباغى مدير رقابة النشر بوزارة الداخلية :

«..وقد قرأته فى إنعام وروية ، فأكبرت فيك تلك العزيمة التى ساقتك إلى ذلك الفتح الجديد فى عالم التأليف . . . كتبت عن الناخبين وعن الشيوخ وعن النواب ، فكنت المبدع المفرد فى اختيار الألفاظ ، وانتخاب أشرف التعابير ، وابتكار

أنبل الآراء ، وصورت وحللت ونقدت ، فكنت البارع فى التصوير ، والماهر فى التحليل ، والمعتدل فى النقد ، ثم حكمت فاذا بك العادل فى الحكم .

وليس البرلمانيون فحسب هم الذين سينهلون من نميرك الصافى الذى أجريته بين أيدينا ، بل شباب الغد الذين سيتألف منهم باذن الله الناخب وعضو الشيوخ وعضو النواب فى المستقبل القريب :

ولو أن كتابا أقيم له تمثال احتفاء بظهوره ، وتخليدا لمجده ، وتنويها باسم واضعه ، لشيد (للبرلمان فى الميزان) تمثال . وجماع القول أنى مهما وصفت وأطريت ، أرانى عاجزاً عن تبيان قيمة سفر جليل إقيم ، لا أدرى من أى فصوله أعجب وأطرب ، ولا من أى ينابيعه أنهل وأرتوى ، لأنى أجده كقطعة الماس كلما قلبتها انبعثت منها الوان بديعة ، تختلف جد الاختلاف عن تلك التى رأيتها من قبل فحسبتها أجمل الألوان »

(ط)

ومن خطاب للاستاذ كريم ثابت :

« لقد كنت أنتظر نشره منذ ما أعلنتم عنه ، لإعجابى الدائم بالاسلوب الذى تعالجون به موضوعه ، ففتحتم به فتحا جديداً فى عالم الصحافة العربية ، يجب أن يذكر لكم مع التقدير والثناء العظيمين »

(ى)

ومن خطاب للاستاذ احمد فؤاد الاهوانى : أستاذ المنطق وعلم النفس بالمدرسة التوفيقية الثانوية :

« ... قرأت كتابك معتقداً أنه جماع هذه النفثات التى سطرها يراعك فى البلاغ ، فاذا بى أجد شيئاً آخر .

لقد وجدت كتابا يحتوى بين دفتيه أبحاثا عميقة ، ودراسة واسعة ، وفصولا محكمة ، وأبوابا مفصلة ، تدل على صدق النظر ، ونفاذ البصر ، وإحكام الفكر .

فهو كتاب يرمى إلى غاية ، ويقصد إلى هدف .

وقد ألفت هذه الغاية البعيدة ، أو المثل الأعلى ، بين شتات الآراء ، فخرجت منه وحدة متماسكة .

هذه الغاية التى أفصحت عنها فى صدر الكتاب ، هى التقدم الاجتماعى للبيئة المصرية ، ممثلة فى كيان الأمة أى الشعب .

وقد كنت جريئا فى إعلان رأيك وتجييد التيار الحديث الذى يسود العالم وهو تيار الاشتراكية ، التى ترمى إلى رفع مستوى الشعب فى صحته وعقله وخلقه وماله »

(ك)

ومن خطاب للاستاذ محمد الشريف : مدير مكتب البحوث الفنيـــة بوزارة الشئون وصاحب كتاب « الدستور »

«... والكتاب يعد بحق أصدق صورة لحياتنا النيابية ، ولرجالنا البرلمانيين ، وقد جاء بلون جديد فى النقد العف السليم البعيد عن الحزبية والأغراض ...»

(ل)

ومن خطاب للاستاذ محمد فريد أبو حديد :

سكرتير عام جامعة فاروق الأول :

«... ولقد كنت أتابع مانشر من الكتاب فى البلاغ الغراء ، وأجد فيه آيات لنفوذ الحكم واتزانه ، وروح العدل مع الفكاهة ، ولا شك أنى واجد فى مطالعة المجموعة كلها متعة فكرية وبيانية ، تجعلنى أكرر الشكر فى كل صفحة منه » .

(م)

ومن خطاب للسيدة زينب عبد الحميد حرم زميلنا الأستاذ راغب خيرى :

«... أعرف أن من التقاليد الصعيدية الصراحة والإقدام والشجاعة ، وقد طالعت كتابك متجهة بفكرى إلى معرفة : هل تمسكت بهذه التقاليد فى تصويرك رجال البرلمان أم هل وقفت تمسكك بها دون هذا الحد : فلم أطو بعض صفحاته حتى أيقنت إنك متمسك بهذه التقاليد فيه ، تمسكك بها فى حياتك الخاصة والعامة » .

(ن)

ومن خطاب للاستاذ محمد عبد الغنى الطحاوى المدرس بالكلية القبطية بالخرطوم :

« .. لاأريد أن أصف لك قوة كتابك وسيطرته علىّ ليلة كاملة — وإنما اريد أن أقول إنى رأيت فيه روح المنيا ورقتها ، ورأيت هذا الحظ الذى استأثر به أهلوها من الذوق ومن الرجولة ومن الاعتداد أيضا . . وقد عرضت مجلس الشيوخ بفصه ونصه ، وأنا لم أره البتة ، ولكنى رأيته وأنا مضطجع فى الخرطوم . . »

(س)

ومن خطاب للاستاذ محمود رمزى نظيم

ضمنه تحية الزجل :

وصفت أمه بحالها ممثله ف برلمانها
ورحت تشرح رجالها وكتبت توزن بيانها
واللى خسر واكتسب
قلم بليغ فى اقتداره سما على الأقلام
فى البرلمان لاح مناره يهدى بنوره الأنام
قلم يسطر عجب
امتاز بصدق الروايه وبحجته فى البيان
ياما سرد من حكايه كانت حديث الزمان
لما « السوادى » كتب

من آراء الصحفيين

(ا)

من مقال نشرته « البـــلاغ » بتوقيع مديرها ورئيس تحريرها الأستاذ محمد عبد القادر حمزه قوله :

« ويسرنى كذلك أن أعجل بالحكم فاعترف بأن الأستاذ السوادى نجح فى عمله ، وكان فيه مثال الناقد والفنان الذى لاتكاد تبدو له صورة من الصور ، ولايكاد يقتنع بها ، ويعتقد بفائدتها ، حتى يجلوها للناس فتستوى أمامهم رسماً جمع كل عوامل الابتكار والتجديد والتحرر » .

واعترف الكاتب بأنه تربص للكتاب واعتزم أن ينقد الناقد فلما قرأه خشى ألا يوفق ثم لخص العوامل التى حملته على الاعتراف بنجاح الكتاب فذكر أن من بينها صراحة المؤلف التى لم يخش معها أن يبين أخطاء النواب والوزراء ورؤساء المجلسين والأحزاب « ولايتحرج من أن يقول لرئيس أحد المجلسين إنك تسير على حرفية نص اللائحة ، ولكنك تخرج على روحها ، وتتخطاها إلى كرامة النائب فتعتدى عليها » .

وسجل الكاتب ملحوظتين له على الكتاب « الأولى منهما بعض الهنات الصغرى وهى السرعة فى إخراج الكتاب ، وقد اعترف زميلى الأستاذ السوادى بهذه السرعة » أما الثانية « فلست مصمماً عليها . . . وهذه الملاحظة هى أننى كنت أحب أن يضمن الزميل مؤلفه نبذة عن تاريخ النقد البرلمانى فى مصر ، ونبذة أخرى عن التطورات التى أصابت الحياة النيابية فى عهدها الحديث » .

واختتم الأستاذ محمد عبد القادر حمزه مقاله بقوله : « هذا جوهر مالاحظته لعلى أكون قد أشبعت به فضول من يريدون أن يروا الأستاذ السوادى منقوداً وقد كان ناقداً طول حياته الأدبية ، ولكننى لن أشبع فضولهم إلى نهايته ، الواقع أن (البرلمان فى الميزان) نجح نجاحا نسأل عنه الطبعة الثانية التى تصدر بعد أيام وهى فيما أعلم أقصر مدة ظهرت فيها طبعة ثانية لمؤلف فى الآونة الأخيرة » .

(ب)

ومن مقال نشرته مجلة « المصور » فى عدد ١٧ يوليه بتوقيع رئيس تحريرها الأستاذ محمد فكرى أباظه قوله بعد مقدمة :

« فاجأنا زميلنا الموهوب الأستاذ السوادى بتعليقاته البرلمانية فنجح نجاحا كاملا .. وهذا كتابه قد ظهر ، فاقرأ فيه لغة رصينة متينة ، خفيفة الظل طلية الأسلوب ، واقرأ فيه تحليلا دقيقا رشيقا ، قاسيا ولكنه عادل ، رحيما ولكنه (غزاز) جارحا ولكنه لايسيل الدم ، ثم المحح فيه شجاعة ممتازة لاتجامل ، لأن هدفها هو (الحق) وهو (التقويم) ولابد أن

الشيوخ والنواب قد استفادوا من نقده ، فهو يبرز النقص فى أساليبهم وأبحاثهم وأصواتهم » .

إلى أن قال :

« هذه الكفاية البسيكولوچية فى التحليل هبة ، بل تكاد تكون إلهاما ، والكتاب لايوصف ولكنه يقرأ ويلتهم ، فننصح قراءه بأن يقرأوه ويلتهموه . . . وتهانينا الخالصة ، لاعن مجاملة وإنما عن تقدير صحيح » .

(ج)

ومن مقال افتتاحى نشرته « السياسة الأسبوعية » فى عدد ٢٥ يوليه بتوقيع رئيس تحريرها الأستاذ حافظ محمود قوله :

« فالسوادى صحفى بالمهنة ، ولكنه أديب بالطبع ، وهو أديب ذو مزاج عربى قديم ، وأنت تعرف أن النقد فى الأدب العربى القديم إنما يقوم على مايسميه علماء النقد (روح الذاتية) لاروح الموضوع ، وإذا كان النقد الموضوعى هو النقد العلمى الصحيح ، فان النقد الذاتى هو النقد الفنى المحبب » .

وبعد أن دلل الكاتب على حيدة المؤلف قال :

« فالعاطفة — عاطفة الأديب — هى التى تتحكم فى أسلوب الكاتب ، على أن هذا البحث الذاتى ، قد استطاع أن يتحاشى سهام الناقد الموضوعى .. فلم تطغه عاطفته على إنصاف أحد .. ومع هذا فقد كان خير من جود فى تصوير شخصياتهم من الشيوخ ، أولئك الذين لهم فى سيرتهم لون من ألوان العبقرية ، ولعل خير فصول (البرلمان فى الميزان) تصويراً وتحليلا ، هى الفصول التى كتبها السوادى عن الباشوات الستة : على ماهر ، حسين سرى ، عبد العزيز فهمى ، لطفى السيد ، هيكل ، حافظ رمضان ..

(د)

ومن مقال نشرته « الأهرام » فى عدد ١٧ أغسطس بتوقيع الأستاذ محمد أحمد الحناوى المحرر بها قوله :

« وقرأت أنه سيجمع فصوله التى نشرها فى كتاب . فقلت : ليته يتريث قليلا ، فقد كتب والدنيا دنيا أخرى ، ومضيت أنتظر ، ومضى السوادى فى إخراج كتابه ، فلما استوى وتلقيته هدية غالية من صديق عزيز ، جعلت أحملق فيه غير مصدق » .

« لقد فعلها الصديق الزميل ، وما كنت أحسب أنه مستطيع » .

إلى أن قال :

« وإذن فقد جاء (البرلمان فى الميزان) كاملا ، فلم يقف عند الصور التى رسمت فى ظروف لم تتح للرسام فيها حرية الرسم المطلق .. وإنما قدم لنا فى بحثه البرلمانى الصريح ، زاداً دسما من تاريخ حياتنا النيابية ما كان أحوجنا إليه ، وقدم معه صوراً لرجالنا البرلمانيين .. إن كانت لنا نحن المصريين بها معرفة ، فما أحوج متابعى خطواتنا البرلمانية من ضيوفنا الأجانب وجيراننا فى بلاد الشرق إلى تعرفها » .

(هـ)

ومن كلمة نشرتها « المقطم » فى عدد ١٧ يوليه بتوقيع الأستاذ محيي الدين رضا المحرر بها قوله :

« ... لم تؤثر فى نفس الأستاذ السوادى محسوبية أو سطوة أو شىء آخر فى كتابة مؤلفه ، ولذلك جاء سفراً نفيسا ممتازاً ، ولقد عرف الأدباء للأستاذ السوادى مقدرته فى تقديم أشخاص وهميين فى رواياته ، خلع عليهم حلة الحياة والروعة ، ولذلك كان من السهل عليه أن يصور الرجال الحقيقيين تصويراً متقنا استهوى الأفئدة ... » .

(و)

ومن مقال نشرته « البلاغ » بعدد ١٢ يوليه بتوقيع الأستاذ حامد المليجى المحرر بها قوله :

« . . وقد أحسن والله صديقنا السوادى إلى الحياة البرلمانية فى مصر وفى تحليل عناصرها وأدواتها ، فقد كان الظن قبل ذلك أن هذه الحياة مقدسة بكل نواحيها ، ولو كانت من التقاليد الموضوعة ، وأنها تنعم بدرجة التقديس الذى أضفاه بعض علماء الفقه الدستورى على الدستور . . أجل ! كان هذا هو الظن قبل صدور كتاب البرلمان فى الميزان » .

إلى أن قال :

« إن كتاب (البرلمان فى الميزان) ليس صوراً عابرة للشيوخ والنواب ، ولا هو تمجيد لأعمال بعضهم فى قالب تصويرى نحته قلم كاتب كفء فقط ، ولكنه درس ، واستقراء فى الدرس يرتقى إلى مقام الوثائق التاريخية ، التى سيكون منها التاريخ المصرى الحديث ... » .

(ز)

ومن مقال نشرته « البلاغ » بعدد ١٩ يوليه بتوقيع الأستاذ محمد بيومى الجنيد سكرتير تحريرها قوله :

« . . وإنما أنا أتحدث عن السوادى كناقد مصور ، وأتحدث عنه كباحث مفكر » .

إلى أن حلا للاستاذ أن يقول :

« فهو يفرض على القارىء أن يتابع مايكتب بما يرسم له من صور متتابعات ، تزركشها ريشة رسام عبقرى ، ويبرقشها قلم سيال فى حسن أداء وجمال فن وسلاسة أسلوب ، وهذا هو السوادى كناقد مصور ، بل أنه لفوق ذلك . ولا أحسبنى أذيع سراً صحفياً إذا قلت إنك قد تقرأ له جلسة الشيوخ أو النواب فتعجب بالوصف ، وتعجب بالدقة فى تكييف الاتجاهات ، وتعجب بالتسلسل فى رواية الحوادث ، وتعجب بالكلمة يلقيها النائب أو الشيخ فتصيب الهدف إصابة محكمة ، والسوادى يرويها لك باللغة الدارجة ، فتخرج مما قرأت ، مؤمنا كل الإيمان بأن السوادى لم يترك شاردة ولا واردة مما حصل فى الجلسة إلا رواها لك رواية ثبت متمكن ، حاد الذهن قوى الذاكرة . . فاذا أنت عرفت الحقيقة بعد ذلك دهشت ! وكيف لا تدهش والسوادى قد عاقه عائق عن حضور الجلسة ، فاكتفى بما قرأه فى صحف الصباح وصورها لك على نحو ما رأيت !! صحيح أن هذا لم يحدث سوى مرة ولكنها قدرة السوادى فى النقد والتصوير » .

(ع)

ومن مقال نشرته « البلاغ » بعدد ٢٦ يوليه للأستاذ چورچ عزيز المحرر بها قوله :

« . . . أول ما استوقف نظرى فى البيان الذى لا تعوزه الصراحة ، إن السوادى قلب كبير وعقل يفكر، فهو إذن يعيش بكل ما تنطوى عليه هذه الكلمة من المعانى، ويخلص للفكر أكثر مما يخلص لأى شىء آخر ، ويقدر القيم الروحية ، ويفهم الاشتراكية والعالمية والكونية فهما صحيحا ... و « للسوادى رسالة خاصة واضحة المعالم فى بحثه هذا» .

إلى أن قال :

إنه يعارض رأى الأستاذ المازنى فى مقدمته ويرى « أن فكاهة السوادى ليست تصويرية دائما بل تنطوى فى كثير من الأحايين على معان نفسية عميقة بعيدة الغور، فيها تحليل سيكولوچى يصل إلى مكنونات النفس وخفايا العقل الباطن » .

وبعد أن دلل على رأيه هذا قال :

« وعندى أن التفاصيل والجزئيات الدقيقة التى عنى السوادى باثباتها فى الدراسات التى كتبها عن الشيوخ المحترمين هى العناصر الرئيسية التى يجب أن يستند إليها كتاب التراجم والسير فى كل ما يكتبون ، وأحسب أن قراء الأدب الغربى من المصريين يعرفون أن نجاح ليتورسيولسكى وأندريه موروا راجع إلى أسلوبهما القصصى فى كتابة التراجم وعنايتهما بالعقد النفسية والانفعالات وفلتات الألسنة والإمارات السيكولوچية المختلفة التى تنعكس على الوجوه وتعرب عنها القسمات » .

ومن مقال نشرته « مجلة روزاليوسف » بتوقيع الآنسة « ألطاف شحاته » ليسانس كلية الآداب القسم الانجليزى :

« كتاب موضوعه فى عنوانه . ولو وفق رسامه توفيق مؤلفه — فوضع القبة فى الكفة — لجاء الرسم والاسم « كالحسناء وخيالها فى المرآة» مؤلف يأبى إلا أن يشعرنا بثورته النفسية ، وروح نقده المتأجج ، فلم ير من بين الأحياء رجلا يجمع الكل على زعامته ليهديه كتابه فيسمو بثمرة قلمه إلى الهدف الأسمى « فيقدم كتابه إلى الحرم المقدس ويهديه إلى حرية الرأى» . إلى أن قالت: «وألمس فى المؤلف ناحية جعلته يتقن الرسم والتصوير وجعلت أسلوبه يوصف بحق «بالسهل الممتنع » تلك الميزة هى قوة التحليل والتشريح النفسى ، وهى مادته كناقد بل هى التى تضفى على أبحاثه هذا الجمال الذى يظهرها فى ثوب بهيج .

« وللمؤلف — أسلوب — أجمع الناقدون على انه ممتاز وخلاب ورشيق .

« ينطلق مرة فتراه كالسهم النافذ ولكنه لا يجرح منقوداً ، ويلين مرة أخرى فاذا هو كالنسيم يهب رخاء ولكنه ليس مديحا ، يعجبنى منه ربط الماضى بالحاضر ، فهو ممن يؤمنون بالوراثة الاجتماعية ، وكان فى تتبعه آثار الروح «البيروقراطى » فى مختلف شئوننا الاجتماعية المستقرىء الجامع لكل الأنواع والمستقصى الذى لم يترك ظاهرة من الظواهر ، إلا كان أثر هذا الروح بارزاً فيها » .

آراء الصحف والمجلات

وقد طالع قراء الصحف والمجلات آراءها التى نشرتها أقلام التحرير فيها ، وكان بودنا أن ننشر هذه الفصول كاملة ولكننا نحتاج إلى أكثر من « ملزمة » إذا نحن حاولنا أن نقتطف بعض هذه الورود التى نثرتها الزميلات فى طريق الكتاب ، كرماً منها وتقديراً ، فنجتزىء عن ذلك بأنموذج واحد مما نشرته الصحف العربية ، وآخر مما نشرته الصحف الأجنبية المحلية :

(ا)

من مقال لجريدة «الأهرام» الغراء بعددها الصادر فى ٢١ يوليه الماضى قولها :

« .. وإذا كان المجال يضيق عن تحليل هذه الدراسات التحليلية الجديدة فى أدبنا العربى ، فاننا نذكر لمؤلفها ميزتين تجعلان لكتابه منزلة ملحوظة فى هذا النوع من التأليف :

أما الميزة الأولى فهى حرية الرأى — وهى شرط لاغنى عنه فى النقد — فتراه يقول ما يعتقده فى الشيوخ والنواب الذين يتناولهم قلمه بالوصف والتصوير ، لايبالى فى ذلك أكان الموصوف مؤيدا أو معارضا ، ولايهتم أرضت الصورة صاحبها أو أغضبته . ولعل هذا ماحداه إلى إهداء كتابه اليوم — على كثرة الرجالات الذين كان يمكن إهداؤه إليهم — إلى « حرية الرأى » تلك الحرية التى « ترتقب رجعة السلام ليواصل ركب الحضارة سيره تحت رايتها »

وأما الميزة التى طبع بها هذا المؤلف ، فهى القصد فى الحكم وحسن الذوق فى إبداء الرأى ، إن مدحا وإن نقداً ، فالمدح إذا تخطى حدا معينا انقلب تملقا وزلفى ، والنقد كذلك إذا تجاوز حداً مرسوما تحول قدحا وقذفا . وهذا الحد دقيق كحد السيف ، من السهل تخطيه ومن الصعب الوقوف عنده . وقد وفق الأستاذ السوادى فى الوقوف عند هذا الحد ، وهذا سر الكاتب اللبق الصائب النظر »

(ب)

ومن كلمة لجريدة «چورنال ديچيپت» الغراء فى عددها الصادر فى ٢١ يوليه قولها :

« .. وقد رسم زميلنا بريشة ماهرة ولغة سهلة وبلفظ لا يخلو من اللذع ، ويشف عن تعمق فى علم النفس ، صور البرلمانيين فاعطى القارىء الذى لا يحضر جلسات المجلسين ، صورة مسلية بقدر ما هى مليئة بالمعلومات لما يحدث تحت قبة البرلمان . وفى اعتقادنا أن هذا أول مؤلف من نوعه صدر باللغة العربية . ولا يسعنا إلا ان نهنىء واضعه على عمله الباهر . ومع ذلك إن هو إلا بداية . لأن الأستاذ السوادى وعدنا بمؤلف ثان سيتبع مؤلفه الأول بعد وقت وجيز . ونحن نأمل ألا يتأخر صدوره فيكون لدى الجمهور نوع من إلانسيكلوبيديا البرلمانية فى مصر ذلك لأن مؤلف الاستاذ السوادى يحتوى بجانب الصور البارزة التى أشرنا إليها طائفة من المعلومات عن المجلسين ، وكل هذا يجعل من « البرلمان فى الميزان » كتاباجديرا بمكانته فى كل مكتبة تحوى المؤلفات الانشائية المدعمة بالوثائق » .

الإهداء

هذا الكتاب أثير عندى . . . فألى من أهديه . . ؟

من الرجل الذى أذكر مصر وأتطلع إليه فهلا يختلف الساسة عليه ولا يختلف المواطنون ؟

أنا لا أعرف بين الاحياء رجلا ينعقد عليه مثل هذا الاجماع .

ولكنى أعرف معنى . . . أكثر فى الجلال من الرجال . . .

معنى ينعقد عليه إجماع الأحرار ويفتدونه بكل مرتخص وغال . . .

معنى هو عنوان الحضارة ، وهو روح الديموقراطية ، وهو جوهر النظام البرلمانى ، وهو أغبرأ مادة الحياة لى كناقد .

عنيت حرية الرأى التى ترتقب رجعة السلام ليواصل ركب الحضارة سيره تحت رايتها .

فالى هذه الحرية . . . أهدى كتابى

المؤلف

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
CAIRO

مقدمة

بقلم الأديب الكبير

الاستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

عرفت الأستاذ السوادى منذ أحدعشر عاماً أو نحو ذلك . وهو الآن صديق وزميلى ، وكنا يومئذ زميلين ، ولكنا لم نكن — فيما يحس هو على ما يخيل إلى — صديقين ، ولهذا قصة ما فى روايتها من بأس ، وكنت فى ذلك الوقت أتولى تحرير جريدة السياسة ، وأواجه حكومة بطاشة لاتغضى ، وجمهوراً لايقبل بتشجيع ، وحزباً يتمشى على الشط ، واحتجنا إلى « محررين » فتلقيت كتاباً من الأستاذ السوادى يقول فيه إنه مستعد أن يخوض معنا هذا العباب المضطرب ، قرأت الكتاب فأسفت وأشفقت على صاحبه ، فما كان ما نحن فيه مما يمكن أن يخطر له على بال ، ولا كان فى وسعى — أو من حقى — أن أطلعه على ما نعانى . ومن أجل هذا طويت الكتاب وأهملت حتى الرد عليه ، ويظهر أنه استبطأ الرد فزارنى ، فكان ما خفت أن يكون من هذه المواجهة ، وبدا لى أن خير ما أصنع هو أن أخرج من الأمر كله بمزحة والله الموفق . فلما قال لى إنه بعث إلى بكتاب تشددت وسألت عن اسم الكاتب وإن كنت أعرفه — فقال «السوادى» فقلت ببساطة لم يكن هو يدرى أنها متكلفة « والله يا أخى أنا لا أعرف لا سوادى ولا بياضى » ولم يكن يخفى على أنها مزحة جارحة ونكتة ممضة ولكنى قلت لنفسى لأن ينصرف مغيظاً محنقاً خير من أن أنكبه .

وقد كان ، خرج مغضباً يحرق على الأرّم ، وبعث إلىّ بكتاب طويل عريض

يعرفنى فيه بنفسه — وبنفسى — ولكنى كنت راضيا عما فعلت فلم يسؤنى لومه ، ولم يثقل على عتبه ، وأعجبنى منه الاعتزاز بالنفس وصلابة العود وطول النفس والبلاغة فى الأداء ، وعنيت بعد ذلك بتتبع آثار قلمه فيما يكتب فى الصحف أو يمثل له على المسرح وما ينشر له فى المجلات من أقاصيص قصار وهى — أى أقاصيصه — أفضل عندى وأجود فى رأيى من مسرحياته على نجاحه فيها .

وعرفت بعد ذلك أيضا أنه من أبناء الصعيد ، فلم أستغرب ما تبينت من صلابته وثقته بنفسه وإقدامه واقتداره وسعة حيلته ، فان أبنـاء الصعيد هذه خصائصهم التى امتازوا بها من أقدم العصور . وما ينفردون بهذه الخصائص دون خلق الله جميعا ، ولكنه يجتمع فيهم من عناصر القوة ما لا يجتمع فى سواهم ، وما احتكروا النبوغ أو التفوق ولكن النوابغ أو المتفوقين منهم يكونون فى الأغلب والأعم « أقوى » من أندادهم من أبناء الأقاليم الاخرى ، ولست أقول هذا تعصبا لهم فلست منهم ولكنها حقيقة يشهد بصحتها تاريخ مصر القديم والحديث

وأدع الأدب والقصة فليس هذا محل الكلام فيهما ، وأقول إن زميلنا الأستاذ السوادى انفرد فى العهد الأخير بأسلوبه فى رواية المناقشات التى تدور فى مجلسى البرلمان ، وكل امرىء يستطيع أن ينقل ما يسمع أو بعضه على الأقل ، ولكن السوادى يؤثر فيما يكتب أن يرسم لك صورة وأن ينفث فيها الحياة ، فكأنك تشهد الجلسة وأنت تقرأ ما دار فيها من الحوار ، وأحسب أن هذا إنما كان كذلك لأنه هو مفطور على القصة . ويتفق فى كثير من الجلسات أن تكون فاترة مملة ، أو أن يكون الموضوع ليس مما يحرك الخاطر ، فتقرأ وصف السوادى لها ، فتعرف أنها كانت كذلك — مملة أو فاترة — ولكنه فى وصفه لها يفيض عليها من روحه فلا يزورها أو يموهها أو يوهمك أنها كانت شيئا آخر ، وإنما يصورها لك تصويراً ممتعا يغريك بالقراءة لأنه يطوف بك فى جنبات المجلس ويمثل لك ما دار فيه من خاص وعام كأنك تشاهده على مسرح .

وقد صنع ما هوخيرمن ذلك ، تناول الشيوخ واحداً واحداً — أومعظمهم — بالوصف والتصوير ، لا ليترجم لهم فليس هذا همه ولا إليه قصد ، بل ليريكهم كما يبدون فى المجلس وكما كنت خليقاً أن تراهم لو كنت حاضر اجتماعهم ، ولايفوته من ذلك إلا التفصيل الذى لا غناء له ولا خير فيه .

ومزية هـذه الصور الوصفية واضحة . ذلك أن الحيـاة النيابية قوامها أن ممثلين للأمة ، اختارتهم بارادتها الحرة ، يتولون باسمها و بالنيابة عنها ، الإشراف على الحـكومة التى يرتضونها لها ، ويعملون على أن تـكون سيرة هذه الحـكومة مطابقة للارادة القومية . والبرلمان فى هذا هوالأداة التى تراقب بها الأمة حكومتها ، ولـكن الأمة تحتاج إلى الاطمئنان إلى وفاء هذه الاداة بالحاجة ، وأنها تؤدى ما وكل اليها على الوجه المنشود ، لأن الأمة بعد الانتخاب تفقد الوسيلة المباشرة للسيطرة على البرلمان ، ولا يكون لها أثر فى توجيهه ، إلا بمقدار ما يبدو من اتجاه الرأى العام ، ومبلغ إدراك ممثلى الأمة لهذا الاتجاه ، و إحساسهم بقوته ، وحرصهم على مسايرته . وسبيل الامة إذا لم ترض عن ممثليها أن تؤثر غيرهم فى الانتخاب التالى . ومن أجل هذا روعى أن تـكون أعمال البرلمان علنية ، إلا إذا دعت مصلحة عليا إلى الحرص على السرية ، ، والغرض من العلنية أن تطلع الأمة على أعمال ممثليها وتعرف سيرتهم فى النيابة عنها ، وعلى أى وجه أدوا الأمانة التى حملتهم إياها ليجىء تقديرها لهم صحيحاً وحكمها عليهم عادلا .

وخير ما تفيده الأمة من النظام النيابى هو الاطمئنان والثقة — الاطمئنان إلى أنها بعثت بممثليها إلى البرلمان ليكفلوا لها أن يكون نهج الحـكومة وفق مشيئتها — والثقة بأنها تستطيع إذا جرى الأمر على خلاف ذلك أن تنيب عنها آخرين هم فى رأيها أو ظنها أقدر على تحقيق إرادتها وتدبير الأمور على النحو الذى هو آثر عندها وأحب إليها .

ومن هنا كانت العلنية شرطاً أساسياً لصلاح الحـكم النيابى فى الأمة .

وهى — أى العلنية — تتوفر باباحة حضور الجلسات للراغبين فى ذلك وعددهم لا يمكن أن يكون إلا محدوداً على كل حال — و بنشر مضابط للجلسات يستطيع أن يطلع عليها من يشاء متى شاء ، و بما تذيعه الصحف من ذلك . وهذا كله كاف فى تعريف الأمة باعمال ممثليها لأنهم لا يتكلمون جميعاً فى كل جلسة ، ولو أرادوا ذلك وحرصوا عليه لما استطاعوا . ورب صامت لا يتكلم هو أكثر من المتكلمين عملا وأبلغ أثراً ، فليست الجلسات العامة هى كل ما يجرى فيه عمل ، فهناك اللجان الصامتة وهى التى تقوم بالبحث والدرس وتشير بالرأى ولا يعرض من عملها إلا جملته ونتيجته دون تفصيله أو مقدماته ، والأمة لا تعرف من هذا إلا قليلا . فاذا هى أخذت بالظاهر فان معظم ممثليها يبدون لها وكأنهم لا يصنعون شيئاً ولا يؤدون لها عملا ، سوى تناول المكافأة والتمتع بالحصانة وغيرها من المزايا ، وليس هناك من عامل سوى هؤلاء القليلين الذين لا يفتأون يخطبون و يطيلون و يبدئون و يعيدون ولا يكادون يسكتون . وهذا تقدير — إذا شاع — فيه ظلم بيّن للعاملين الصامتين وغمط لحقهم وغبن لفضلهم . ومن العسير فى الأغلب والأعم إصلاح هذا الخطأ وتصحيح هذا الوهم .

ولكن السوادى يخطر له أن يرسم للجمهور صوراً وصفية للاعضاء واحداً واحداً . وهو فى هذه الصور لا ينقل لنا كلاماً ، ولا يثبت خطباً ، ولا يروى حديثاً ، و إنما يصور العضو كما يبدو له ، ومما يعرف أو يسمع عنه ، و يرفع هذه الصورة قبَلَ العيون فترى فيها إنساناً حياً ، وتتمثله وهو جالس فى قاعة الاجتماع أو قائم يخطب ، أو مائل على جاره وزميله يهمس ، أو عامل فى لجنة عاكفة على موضوعها فى غير صخب أو جلبة ، فنعرف ما هو صانع وكيف يصنعه ، وندرك أن لكل « شيخ طريقة » ونفطن إلى أن الكلام والخطب ليس كل ما هناك ، ونتبين ما يخفى علينا فى العادة ، ونشعر بالصلة الانسانية بيننا و بين هذه الجماعة التى تنوب عنا ، ونخشى أن نكون مخدوعين فى أمرها أو

مغالطين أنفسنا فى حقيقة جدواها وما يعزى إليها من مزايا .

وأنا مقتنع بأن هذا الأسلوب فى تصوير الجانب الإنسانى من الحياة البرلمانية بعيد الأثر جداً فى توطيد دعائم النظام النيابى والقضاء على الشكوك التى قد تساور الناس فى أمره . وليس أحد بمعصوم . وقد يخطىء الكاتب فى تصويره أو يجور ويظلم . ولكنها صور حية على كل حال وهى أصدق من الصورة التى تحصل فى الأذهان من الاقتصار على قراءة الخلاصات التى تذاع عن الجلسات والتى يمكن أن يخرج منها المرء بأن البرلمان ليس إلا قلة ثرثارة هى كل شىء ، وكثرة صامتة أو بكماء ليست بشىء إلا عند حساب الأصوات .

وأمثال هذه الصور لا تطيب وتخف على النفس بغير الفكاهة . والفكاهة فى صديقنا الأستاذ السوادى طباع . وفكاهته فى الأغلب تصويرية ، وهو يتعلق بالمناظر والأشكال والحركات ، أكثر مما يتعلق بالمعانى . وكثيراً ما يستعير من اللغة العامية ألفاظاً أو عبارات لا يمكن أن يغنى غناءها ما يقابلها من العربية الفصحى أو يؤدى ما تؤديه تلك من المعانى التى اقترنت فى أذهاننا بتلك الألفاظ العامية الشائعة . ولا أرى بأساً من ذلك . بل أحسب أنه لو كان آثر الفصحى فى كل حال وكل موطن لباخت الصور أو بعضها على الأقل . على أن هذه الألفاظ العامية التى يلجأ إليها ، أحياناً ، ليتخذ منها حلية أو يستعين بها على إبراز الصورة أو تأكيد المعنى عربية الأصول والأعراق وإن كانت محرفة فى النطق .

وهذا أول كتاب من نوعه فيما أعرف ، وإذا كان صديقنا السوادى قد أجرى الحديث فيه مجرى الفكاهة ، فان موضوعه يجرى مجرى الجد الصارم ولذلك أثره فيما أعتقد .

إبراهيم عبد القادر المازنى

بياض الاستعراض

باسم الله الذى انفرد وحده بالكمال أرسى هذا الحجر المتواضع فى أساس « النقد البرلمانى » فى مصر .

وباسم النبى العربى الذى أقام على أساس من الشورى ملكا لا يبلى ، أواجه بريشة التشريح بعض خفايا النفوس راجياً أن أسد بهذا الصنيع فراغاً فى لغة الضاد ، وأن أكمل بهذا الكتاب نقصاً فى المكتبة العربية .

أما بعد :

فحسبك أن تعرف أن « أصول » هذا الكتاب إنما قدمت إلى المطبعة فى غضون هذا الربيع .

ربيع ... وربيع ...

نعم . . أقدم « أصول » هذا الكتاب فى غضون هذا الربيع . .

ربيع تزاوجت فيه قسوة الأرض ورحمة السماء ، والتقت فيه الأسماء بالأضداد . . فاهتزت الأرض وازينت بما نسجته يد الطبيعة من وشى الربيع . .

ولكن شيئاً مما كان يحدث فى كل عام لم يحدث فى هذا العام . . فلا الناس فرحوا بمقدم هذا الربيع . . ولا سمر بين الرياض أفراد أو جموع . . ولا ازدهرت النفوس مع ازدهار الأشجار . . ولا تغنى الشعراء مع تغنى الأطيار . ولا نشرت البهجة جناحيها الحبيبين على الكون المعتم الذى خرج من قلب الشتاء ضيق الصدر لاهث الأنفاس .

لم يحدث شىء من هذا كله . . .

بل حدث — على النقيض — أن حملت كلمة « الربيع » إلى نفوس العالمين شعوراً عميقاً بخوف رهيب . . .

استقبل النـاس ربيع الطبيعة بنفس الشعور الذى يستقبلون به فى هذه الأيام قمر السماء كلما استدار بدراً ، وأنذر بالغارات العمياء يشنها الأعداء على العزل الآمنين بعد أن كان هذا القمر حبيباً إلى النفوس ، يرتقب مقدمه بذاهب الصبر عشاق مغرمون ، وشعراء مغردون ، ومحبو الجمال الوسنان فى كل مكان .

هذا هو الربيع الذى اخترته بداية لـكتابى ، وقبل أن تختتم الحرب عامها الثالث . . . فلماذا وقع على هذا الربيع اختيارى ؟ . . . بل لماذا اخترت هذه الحرب الضروس ملاءمة أقدم لك فيهـا كتابا كان من حقه أن أختار له أيام السلام ، لينطلق القـلم شادياً والرأى حراً ، وليكون القول صريحاً والهـدف مرجواً ؟ .

عودة إلى الماضى

ولـكى يجىء جوابى على هذا السؤال صادقاً ، أرجع بك إلى الوراء ثمانيـة عشر عاما ، لنماشى قصة « النقد والناقد » من بدايتهـا — وأعنى نفسى بكلمة « الناقد » وأعنى بكلمة « النقد » ذلك الروح الذى لازمنى من صدر شبابى .

فى سنة ١٩٢٥ هجرت الدراسة إلى الصحافة ولم أكن أعرف من هذه الصحافة أكثر من أنها أداة تمـكن للكاتب من أن يقول كل مايجول بخاطره ، وكان يجول بخاطرى يومئذ شىء كثير لعل بعضه أو مثله أو أكثر منه دار بخاطرك وأنت فى مثل تلك السن وأعنى بها سن العشرين .

فى تلك السن لم أكن راضياً عن أشياء كثيرة . . وكان روح النقد لهذه الأشياء هو شغلى الشاغل فى الصباح وفى المساء حتى حملنى على أن أصدر فى تلك السنة أول مجلة لى كان شعارها « الهدم والبناء » وانطلقت أعربد على صفحاتها

بقدرة الطالب الثائر ، و بعجز الناشىء المغرور ، ومضيت أهاجم الأقداس فى غير رحمة ، والأشخاص فى غير حذر — ولم يقف الأمر عند حدود هذه الألوان الوطنية بل جاوزتها إلى الألوان الاشتراكية مأخوذاً بحبى بعض الاشتراكيين الذين عرفتهم فى ذلك الحين والذين ضممتهم إلى قلم تحرير مجلتى الثانية التى أصدرتها فى سنة ١٩٢٧ — و بدأنا نحدث الناس فيها حديث الثروة وسوء توزيعها وحديث الطبقات والتفاوت بينها .

فهل كنت اشتراكياً بالمعنى الذى حددته مبادىء « ماركس » أو تعاليم « لينين » ؟ .

كلا . . إنما كنت ناقداً . . .

كنت مهيئاً للنقد بميولى ، وكنت مسوقا بهذه الميول إلى هذا النقد . . أزاوله حيث وجدت السبيل إلى مزاولته ، وكانت إنسانية المبادئ الاشتراكية تستهوينى مؤمناً كوطنى بأن فى هذه المبادىء خدمة لهذا الوطن ، ولكنى فى الوقت نفسه كنت أحب الديمقراطية حباً جماً ، وأراها بين أنظمة الحكم مثلا أعلى إذا استطعنا أن نعالج بعض عيوبها ... وكنت أحب الحياة البرلمانية ، وأحلم باليوم الذى أرتقى فيه منبر البرلمان ، لأطالب من فوقه بحق العامل وخبز الفقير و بتعليم الجاهل و بتطبيب المريض ، و بالقضاء على الفوارق بين الطبقات .

كنت — إذن — ديموقراطياً فى الإيمان بالنظام الذى يصون حرية الفرد ، وكنت اشتراكياً من حيث الانسانية فى تفكيرى ، وكنت طموحاً إلى نظام جديد يحقق أمنيتى فى حرية الرأى التى تكفلها الديموقراطية ، وأمنيتى فى المساواة بين الناس التى تكفلها المبادىء الاشتراكية .

ظل روح النقد يعتلج بين جنبى فى غير استقرار ، حتى وقفت عن الصدور آخر مجلة لى فى سنة ١٩٢٨ وألقيت بالقلم ساخطاً على مامنيت به من خيبة إلى أن كانت سنة ١٩٢٩ والتحقت بجريدة « كوكب الشرق » محرراً .

النقد البرلمانى

وفى أول ديسمبر من نفس السنة وقع الاختيار علىّ لأمثل الكوكب فى رحلة انتخابية — وعدت من هذه الرحلة وفى ذهنى أشياء وأشياء عن العراك الانتخابى والوسائل التى تستخدم فيه ، والنتائج التى تؤدى إليها ، وتكونت لى آراء وآراء عن الحياة البرلمانية فى مصر وميزاتها ومساوئها ، وأصبح من أغلى الأمانى عندى ، أن أمثل الجريدة يوما فى مجلس النواب ، لأصف للناس حقائق هؤلاء الذين يمثلون الناخبين ، ولأقول للناس بعض ما يجول بخاطرى فى صورتى نقد وتعليق .

وتحققت أمنيتى ، ولكن نجما لم يزدهر لى تحت سماء ذلك المجلس ، لأن أحداً لم يأذن لى فى نقد أو تعليق ، فانطويت على نفسى شاكيا إلى الله بثى وحزنى ، مرتقبا سنوح الفرصة وإن كانت لم تسنح ، لأن أجل البرلمان لم يطل ، وامتد بالانقلاب الصدق الأجل .

كان ذلك أول تطلع منى إلى جلال النقد البرلمانى .

أمنية تتحقق

ومضت السنون ولاتسلنى كيف؟ وفى مارس سنة ١٩٣٨ كنت غيرمشتغل فأرسل إلىّ المغفور له عبد القادرحمزه باشا يعرض علىّ العمل فى جريدة السياسة ، وكان يشرف على تنظيمها توطئة لصدورها ، ووقعت بين نارين كما يقولون ، نار الحزبية ونار التبطل ، فكان من غير الهين على نفسى أن أحترف الكتابة لحزب لم تربطنى به صلة من قبل .

ولم أكتم عبد القادر باشا هذا الشعور فابتسم رحمه الله وقال إنه لا يريدنى لجريدة السياسة كاتبا سياسيا ، إنما يريدنى للعمل الفنى بوصفى صحفيا .

وارتضيت هذا الحل .

وفى اليوم التالى زرت عبد القادر باشا فى دار البلاغ فابتدرنى بقوله (ما رأيك فى أنى أريدك للبلاغ لا للسياسة) . . . وغمرنى الرضا . . . وأدرك الرجل أنى من طلاب الجو لا الأجر فهيأ لى جوى ، ولم يحدد لى غير الناحية الفنية من عملى وترك لى اختيار النواحى الأخر — واخترت أن أكون صاحب صفحة الأدب فهل كنت فيها منشئا ؟ كلا إنما كنت « ناقداً »

لاحظ عبد القادر باشا أن روح النقد هو أقوى الجوانب فى ، وأن فن النقد هو أحب الفنون إلى ، وكانت الحياة البرلمانية قد عادت إلى المجلسين بعد انتخابات سنة ١٩٣٨ فعهد إلىّ بتمثيل البلاغ فى مجلس الشيوخ ، وكان لصاحب البلاغ — على ما بدا لى — اتجاه غير الذى شاءه الله بعد ذلك للبلاغ ولى — فقد لاحظ أن الوفد لم يكن له فى مجلس النواب غير أقلية — أما فى مجلس الشيوخ فكانت للوفد كتلة قوية ؟ . فقدر رحمه الله أن يدور العراك فى هذا المجلس — وأن تتطلع البلاد إلى هذا العراك — وبهذا يكون فى هذا المجلس وحده متسع للنقد والتعليق

وكان فى نيتى أن أرضى البلاغ وصاحبه — ولكن الرغبة لم تتحقق ، وأفلت منى زمام القلم مسوقا بروح النقد الذى لا يعرف حزبية ولا ينتشى ويصفق ، إلا إذا انطلق فى الفضاء وحلق

وكنت إثر كل «انطلاقة» أرتقب صباح الغد ، متوقعا أن يعتب على صاحب البلاغ عنفى أو نقدى لشيخ دستورى أو سعدى ، أو إسرافى فى الثناء علىّ زعيم المعارضة الوفدى ، وتسميتى إياه « ذا الناب الأزرق » أو قولى عنه إنه « برلمانى من الطراز الاول »

وكان الغد يجىء ولا يجىء معه ما توقعته من عتب ، فارتقب الجلسة التالية لأزداد انطلاقا ، بهذا الروح الذى أسجله للصحفى الكبير الراحل — فى الوقت

الذى تحتفل البلاد فيه بذكرى مرور عام على وفاته — استطعت أن أجد مجال النقد متسعا ، وأن أشق طريقى فيه حراً .

وجوه غير عابسة

وأعلنت الحرب و بدأنا ننقد فى شىء من الحذر ، حتى كان شهر أغسطس سنة ١٩٤١ إذ خطر للاستاذ « محمد عبد القادر حمزه » خاطر من خواطر التجديد فاقترح علىّ أن أكتب للقراء فصلا أو فصلين ، ألم فيهما بالطرائف التى صادفتها فى الشيوخ فى أثناء السنوات التى أمضيتها بينهم ناقداً .

وفى يوم ١٧ من الشهر نفسه نشر البلاغ الفصل الأول بعد أن اخترت له العنوان الذى تعرفه « وجوه غير عابسة . . لمختلف ألوان النشاط بين الشيوخ المحترمين وفى مجلسهم الموقر . . » واستزادنى البلاغ من هذا اللون من النقد ، فعقدت فى ٢٤ أغسطس فصلا آخر ، ورغبت إلى الرسام ، فى أن يلف رسم أحد الشيوخ بعلامة استفهام ، ثم كتبت فوق صورته كلمتى «من هو ؟» وتحت الصورة . . . (السؤال موجه إلى الشيوخ لا إلى القراء) وقصدت بهذه العبارة أن أقول إن الشيوخ أنفسهم الذين زاملوه سنين فى مجلسهم لا يعرفون اسمه من فرط صمته .

ونسى البلاغ ونسيت معه أساس مطلبه ، ولم يعد الأمر أمر فصل أكتبه ، إنما أصبح الأمر أمر فصل فى « النقد البرلمانى » لزاماً علىّ أن أطالع قراءه فى مساء الأحد من كل أسبوع .

مراحل التفكير وتطور الأهداف

بدأت هذه الفصول تحدث ضجة لم أكن أتوقعها ، و بدأت رسائل القراء تحمل إلىّ عبارات التقدير التى شجعتنى ، فبدأت بدورى أفكر فى فائدة هذه الفصول ، وأسائل نفسى إن كان النقد البرلمانى فنا جميلا ، كل جلاله فى استهوائه

عشاق الجمال ، شأنه فى هذا الاستهواء شأن التمثال يبدعه المثّال ، أو هو جهد ينبغى أن يكون له خطره وأثره . وأن يتصل بصالح مصر حكومة وشعباً .

وأخذت هذه الفكرة حظها من التطور فى ذهنى ، حتى خيل إلىّ آخيراً أن فى وسعى أن أساهم بنقدى ، وعلى قدر جهدى ، فى النهضة المصرية الحديثة ، وعدت أقلب الرأى ، فرأيت أن الأمر لم يعد أمر مصر وحدها ، بعد أن ربطت الحرب بين كل أمة من الأمم و بين النضال القائم ، وخيل إلىّ أيضا ، أن قيم الأشياء كلها قد ألقت بها هذه الحرب فى أتون يستعر ، وأنها لا بد أن تعيدها إلينا جديدة أو كالجديدة ، لتقدم لنا دنيا غير دنيانا ، ولتحمل إلينا قيما غير تلك التى عرفناها ، وأن علينا جميعاً أن ندرك أنه مهما يكن — على حد تعبير « سيرستافورد كريبس » — تقديرنا لنظمنا الديموقراطية ، فاننا نحيا فى عالم تم فيه تغيير عظيم وليس فى وسعنا أن نبقى جامدين فى عالم يتحرك .

استهوانى التفكير فى هذا العالم الجديد الذى لا نستطيع أن نعرض له من الآن بأى تحديد . . وساءلت نفسى مرة أخرى : إن كانت مصر الديموقراطية الناشئة و بحكمها النيابى و بنظامها البرلمانى قد برئت من العيوب ، واستوت فتية على العود ، وتهيأت بهذه الفتوة لمسايرة الدنيا المقبلة القوية ، يوم تبدأ سيرها الحثيث إلى أهدافها المرجوة — أو أن مصر لا تزال تتعثر فى أذيال العقلية « البيروقراطية » القديمة ، تعثر الوليد الذى يتحفز للخطو فيحول لين العظام دونه ، و يرى أهله واجباً عليهم ، أن يستشيروا طبيبهم فى علة مريضهم .

شغلنى هذا التفكير أمداً غير قصير ، وخرجت منه — مصيباً فى استنتاجى أو غير مصيب — بأن حياتنا البرلمانية لم تستقر بعد فى مصر تبعاً لعدم استقرار الروح الديمقراطى فى نفوسنا نحن المصريين . . . وأن تقدمها أو تخلفها لا يزالان منوطين باخلاص الأشخاص الذين يسيطرون على توجيهها ، قبل أن يكونا منوطين

بالروح الذى تغلغل فى نفس الناخب ، أو بالتقاليد التى رسخت فى المجلسين على الزمن . . .

اقتنعت بصواب هذا التفكير فاقتنعت معه بأن فى وسعى أن أحسن إلى بلادى ، إذا أنا أظهرت الناخبين على خفايا من يمثلونهم و يعبرون عن إرادتهم .

مهمتى — إذن — أن أقدم لهذا الناخب صوراً أمينة للنائب ، ليتتبعه جلسة بعد جلسة ، فيعرف كيف يصنى معه حسابه ، فاما أعاده إلى دار النيابة مكرماً ، و إما أقصاه عنها مكرهاً .

ومهمتى أيضاً أن أقدم للنائب نفسه صورة أمينة لشخصه ، فان كان جديراً بأمانة أمة سارع إلى إصلاح عيوبه ، و إن أبى واستكبر ففى وسع الناخب أن يكون أكثر إباءاً واستكباراً .

ما كدت أقتنع بصواب هذا الرأى ، حتى بدأت أنحو نحواً جديداً فى نقدى ، وأحدث القارىء عن كل شيخ بماضيه وحاضره ، و بكرمه وشحه ، ووفائه لأصدقائه أو قلة وفائه — بل بدأت أسرد كثيراً من (الحواديت) التى تترامى الىَّ عن كل شيخ ، راجياً من عارفيه ، أن يصوبوا لى كل خطأ أقع فيه .

رميت بهذا إلى فسح المجال للناخب لكى يستخلص لنفسه الحقائق من هذه (الحواديت) فيعرف أن الذى لا وفاء عنده لأصدقائه مثلا ، لا يمكن أن يكون وفياً لمواطنيه ، لأن الأصدقاء أقرب إليه من ملايين المواطنين الذين يمثلهم ولا يعرفهم . . . وضربت مثلا ذات مرة شيخاً يملك بضعة آلاف من الفدادين — ظل صامتاً أكثر من ثلاث سنين — وفجأة وقف مغضباً يهاجم الحكومة ، لا لشىء إلا لأن ضرورات الحرب حملتها على أن تطالبه ببضعة قروش ، كضريبة دفاع عن الوطن الذى أغناه . . .

وضربت مثلا ثانياً شيخاً آخر غضب على حكومته لانها زادت قليلا فى ضريبة أطيانه ، لترفع مليوناً من الجنيهات عن كاهل الفلاح الصغير ، ولم يتردد

الشيخ فى أن يقول للوزير « وأنا مالى ومال الفلاح الصغير ؟ ! »
كان هذا هو هدفى لا أقل ولا أكثر .

فكرة طبع الكتاب

لم أفكر يوماً فى أن أجعل من هذه الفصول كتاباً ، حتى تلقيت ذات يوم من حضرة صاحب العزة محمد محمود خليل بك الرئيس السابق لمجلس الشيوخ خطابا بوصفه رئيساً لهذا المجلس يعرب فيه عن قدره الجهود التى أبذلها فى خدمة الحياة النيابية ، فرأيت أن أزوره فى مكتبه لأشكر له هذا « التقدير الرسمى » وتشعب بنا الحديث فقال الرئيس إنه يحسن بى أن أجمع هذه الفصول فى كتاب خدمة للتاريخ النيابى .

خلص لى أن النقد على أى حال ، وعلى هذا الوضع ، محل ارتياح النابهين .. و بعد أسابيع جاء دور الرئيس نفسه فعقدت عليه فصلا وذكرت عيوبه ومزاياه

وفى اليوم التالى استدعانى رئيس المجلس ليثنى علىّ كناقد ، وليعتب علىّ عدم شروعى فى طبع كتاب يجمع هذه الفصول ، فأكدت للرئيس — وقد أعرب عن هذه الرغبة مرتين — أننى شارع غداة الوعد فى تحقيق رغبته ، وغداة ذلك اليوم أعلنت فى الصحف عن الكتاب وفتحت باب الاشتراك فيه .

البحث البرلمانى

بقى أن أحدثك حديثاً قصيراً يربط بين صدر المقدمة وخاتمتها ، فقد صح منى العزم بعد التفكير الذى كنت قد انتهيت إليه ، على أن يكون الكتاب بحثاً مستفيضاً فى حياتنا البرلمانية ، وأن تكون الفصول الخاصة بأشخاص الشيوخ استشهاداً على صحة ما أذهب إليه فى بحثى ، فيكون البحث بسطاً وتكون الفصول تطبيقاً ، وتطالع فى بحثى عيوبنا ومزايانا — وترى هذه العيوب والمزايا ماثلة أمامك

على اللوحات التى نرسمها بريشة النقد لأشخاص الشيوخ ، وأن نجعل هذا الكتاب خاصا بالشيوخ ونتبعه بجزء آخر خاص بالنواب ، فنكون بهذا قد أمسكنا بالمنفضة وأزلنا الغبار العالق على مرايا دار النيابة ، كما فعل « السيد حامل المنفضة » الذى وضع للبرلمان الانجليزى كتاب (مرايا دوننج ستريت) والذى أشيع فى انجلترا عنه — كما قال لى صديقى الأستاذ « كامل بك سليم » — أنه اللورد ملنر نفسه .

صح منى هذا العزم ، وفجأة تنبهت .. تنبهت فرأيتنى مسوقا فى عزمى بحرية الباحث ، غير ذاكر أن الصالح العام فى هذه الأيام ، يجعل لاعتبارات الحرب أول مكان ، وأن ثمة أشياء تؤلف من سلسلة البحث تسعة أعشار حلقاتها ، لايجوز — عقلا وعرفا وقانونا — أن يشار إليها بخير أو بسوء ، فقنعت بأن أستبدل بالبحث المرجو بحثا عابرا ، أضمنه بعض ملاحظاتى على حياتنا البرلمانية ، مرجئا تحقيق أمنيتى إلى طبعة أخرى تصدر فى « الهواء الطلق » وتحت سماء السلام الحبيب ، بعد أن تضع هذه الحرب أوزارها ، ويومئذ يجىء البحث أكثر نفعا ، لأن الحقائق تكون قد تقررت ، ولأن الاتجاهات فى دنيانا الجديدة المقبلة يكون لها ، يومئذ ، حق توجيه تلك البحوث .

خاتمة للشيوخ والنواب

وأخيرا فقراء نقداتى يذكرون ذلك الروح — الفكاهى — الذى أفلت من بين براثن عبوسى ، فطبع تلك الفصول بطابع المرح وحبّبها إلى النفوس ... نفوس أبناء هذه البلاد التى عرفت « بالنكتة » تضعها — بغير ترجيح — فى كِفة لتضع الحياة قبالتها فى الكِفة الأخرى ، فاذا كنت قد اعتزمت أن أحدّ من هذا الروح فى كتابى ، فلأن الفصل يكتب للكتاب غير الفصل يكتب للجريدة .

أما موقفى إزاء الشيوخ فقد اعتزمت أن أتحدث عن الشيوخ الحاليين وعمن

أبطل تعيينهم بمرسوم ، وأن أشير إلى من أخرجه هذا المرسوم ، ولكن هذا لايعنى أنك ستطالع فصلا ضافيا عن كل شيخ ، أو أنك سترى « كاريكاتيرا » لكل منهم .. فرسامنا التقط الوجوه التى تسنى له التقاطها ، والوقت قد ضاق بنا ، وقد وعدنا القراء بصدور الكتاب فى موعد لانستطيع تجاوزه ، وفى هذا عذر كاف عن الرسوم التى استحال علينا التقاطها .

وبين الشيوخ ، رجال صامتون ، وآخرون ليس لهم من التأثير قدر كبير ، وقسم آخر قد نجد فى ماضيهم الشىء الكثير ، ولكن الوقت أضيق من أن يمكن لنا من إماطة اللثام عن ذلك الماضى ، هذه الطوائف الثلاث سنذكرهم فى كلمات قصار .

أما الترتيب الذى اعتزمناه حتى لايقال « لم آثرتم بالتقديم فلانا على سواه؟» فهو أن نقسم الشيوخ طوائف ، من الوزراء السابقين والأطباء والمحامين والمهندسين وكبار الموظفين الخ الخ — يجيئون معا — فى ترتيب أبجدى .

***

بقيت كلمة عن النواب . . . فهذا الكتاب خاص بالشيوخ — لابهم — أما هم فقد نذرت لهم — كما قلت لك — جزءا ثانيا — إن مد الله لنا فى الأجل ، ومكّن لنا من العمل ، لكن صاحب السعادة عبدالسلام فهمى جمعه باشا رئيس مجلس النواب الحالى ، يرى غير هذا الرأى ، ويخشى أن تصرفنى عن النواب ظروف طارئة ، ويعتقد أن من الخير أن أتحدث ولو حديثا عابراً عن النجوم التى تألقت فى سماء هذا المجلس الثانى . . لأحدد اتجاهات الحياة البرلمانية فى مجلسيها ، ريثما أعود بالتفصيل إلى النواب أجمعين ، إن قدر للمجلد الثانى الظهور .

ورأى رئيس مجلس النواب يحمل طابع الوجاهة والإقناع ، وإن كان الطلب جاء متأخراً . .

إزاء هذه الرغبة لا يسعنى إلا أن أحلها محل الاعتبار ، فان استطعت تحقيقها فى رفرف كتابى فيسرنى هذا التحقيق ، أما إن تعذر علىَّ ذلك ، فانى لا شك واجد فى الرئيس والنواب خير عذير ، فما عليك يا سيدى القارىء — حين تبلغ هذا المكان من هذا البيان — إلا أن تعبر صفحات الكتاب إلى الفصل الأخير فيه ، لترى إن كانت الأقدار قد حققت لى وللرئيس هذه الأمنية أو ضنت بها .

وبعد :

فما ادعيت أنى بلغت من الأمر ما كنت أرجوه ، ولكن حسبى أنى مهدت السبيل بنقدى ، لمن يجىء بعدى ، أو مهدت لنفسى ما عسى أن يقدر لى بذله من مقبل جهدى ، فاذا لم أكن قد أرضيت النائب عن الأمة ، فكل مرجوى أن أكون قد أضيت الناخب الذى أوفده ، وإذا لم أكن قد أرضيت الاثنين ، فأرجو أن أكون قد أرضيت ضميرى ، وساهمت فى خدمة التاج والوطن بهذا الجهد المتواضع .

وباسم الله أختتم ؟

محمد عبد الله احمد السوادى

الباب الأول

مصر النيابية ومصر السياسية

— ١ —

قلت فى البيان السابق إنى انتويت أخيراً أن أقنع ببحث برلمانى عابر ، أقدم به لنقدى أولئك الشيوخ والنواب الذين يمثلون هذا الشعب فى هذه الفترة الدقيقة التى صادفت أخطر انقلاب دولى فى تاريخ الشعوب ، وأعنف نضال حربى فى القديم والحديث .

وأحب أن يقرنى قرائى على أن الحياة البرلمانية ليست غاية يراد تحقيقها لذاتها ، إنما هى أداة لغاية ، أو على التحديد أداة لتمكن للشعب من العيش الهانىء الذى ينشده ، ومن أن يكون له فى حكم نفسه رأى نافذ ، أو هى بلغة التجديد أداة لتوطيد الحكم الديموقراطى .

لا قداسة — إذن — للحياة البرلمانية ، وإنما نحن الذين أضفينا عليها أردية براقة من هذه القداسة . . . رأينا فى إضفائها لونا من ألوان الجلال يساعد على توقيرها ، وتوفير الاحترام اللازم لها ، وتعوُّد الشعب على التمسك بها ، رجاء أن تحقق لنا الحياة الحرة التى نصبو إليها ، فاذا ثبت يوماً أن بهذا النظام البرلمانى عوجا يحول دون السعادة التى نرجوها ، فقد وجب علينا أن نقوم هذا العوج فيها .

والحياة البرلمانية سلطة للتشريع ورقابة على القائمين بالتنفيذ ، تنظمها مجموعة من التقاليد ، يرسى أساسها المجلسان على الزمان ، فتضاف إلى اللوائح المعمول بها

وتتخذ قوة النصوص أو تكاد ، ولا يشرط فى هذه أو هذه إلا أن تجىء مطابقة لروح الدستور ، ولاتخرج فى كثير أو قليل عن أحكامه .

ولعلك قائل إن هذا التعريف ينطوى على اعتراف صريح بقداسة الدستور الذى يعتبر فى شئون السياسة والحكم ، بمثابة القرآن الكريم عند المسلمين فى شئون الدين ، وتعتبر القوانين واللوائح والتقاليد بمثابة الحديث الشريف ، فكل حديث خالف أحكام القرآن غير صحيح ، وكل قانون خالف أحكام الدستور باطل .

وللدستور حق فى مثل هذا التشبيه ، وهو يحمل طابع القداسة من غير شك ، ولكن لا تنس أننا نحن وحدنا الذين خلعنا عليه هذا الطابع مختارين بوصفه « قانون القوانين » كما خلعنا على الفلسفة من قديم تسميتها « علم العلوم » .

أما الحق الذى لامرية فيه فهو أن الدستور ليس دينا يعتنق ، وليس كتاباً منزلا ، وليست المطالبة بتعديله كفراً بدين ، وإنما هو الأداة الكبرى التى رأى صانعوها أنها تحقق للشعب قيام حكومة مختارة تحت رقابة برلمان منتخب ، مهمتها العمل على إسعاد هذا الشعب ، فاذا أثبت الزمان أن إلغاءه أو إبداله أو تعديله هو الطريق إلى هذا الإسعاد ، فقد وجب هذا التعديل أو الإبدال أو الإلغاء .

ولعلك أن تكون ذاكراً — غير ناسٍ — أن اسماعيل صدقى باشا ، رأى ذات عام أن يلغى هذا الدستور فألغاه بجرة من القلم ، ولكن الرأى العام رأى فى دستوره القديم خيراً ، فجاهد حتى استرده ، وفشلت التجربة الصدقية الجريئة التى أقدم عليها فى « شجاعة » — تحسد ولاتحمد — فلو أن هذا الرأى العام كان قد اقتنع برأى صدقى باشا فى سنة ١٩٣٠ لعاش دستوره ولأصبح « مقدساً » ولمات دستور سنة ١٩٢٣ ولبات تاريخاً .

الدستور — إذن — هو الأداة الصامتة لتحقيق الحياة الديمقراطية ، والبرلمان هو الأداة الناطقة التى تتولى تطبيق الدستور ، وتحمل الوقود إلى آلة هذا

الدستور .. لتدور .. ولتعطينا كثيراً من النور . . فنمشى قدماً إلى أهدافنا المرجوة

— ٢ —

وهذه الحياة البرلمانية التى تسيطر على مقدراتنا وتحدد اتجاهاتنا ، إنما تقوم فى حقيقتها على إرادة الناخب ، لأنه هو وحده الذى يختار النائب ، ولأن هذا النائب هو الذى يشرع و يراقب ، ولا يرعاه فى التشريع والرقابة غير ضمير فيه . . . ووفاء يحدوه . . . فاذا فسد الناخب فسد النائب ، و إذا فسد النائب فسدت الحياة البرلمانية ، أما إذا نضج الناخب فأحسن اختيار النائب ، ففى وسع البرلمان أن ينهض بالدولة كجماعة ، وأن يكفل لأبنائها الحرية كأفراد ، وأن يحقق للامة الإصلاح كمجتمع ، وأن يعمل على توفير أسباب الهناءة والرخاء للجميع .

للناخب — إذن — شأن خطير ، وهو صاحب الدور الأول والأخير ، فى قصة « إسعاد الجمهور » وفى توفير القداسة للدستور .

ونحن إذ نولى الناخب شيئاً من الرعاية فى هذا البحث — فوق ما أوليناه من رعاية عابرة فى بابنا السابق — إنما نولى كيان مصر كلها هذه الرعاية .

— ٣ —

كنت أتحدث ذات ليلة إلى صحبى الذين ألفوا أن يمضوا معى زلفاً من الليل فى « القهوة » التى نختلف إليها فى أوقات الفراغ ، وفى حديث ندر أن نذكر فيه غثاً ، وكثر أن يجىء جداً ، وأن يحمل طابع البحث جدلا ، وأن يغدو الجدل حاداً ، و ينتقل بنا من السياسة إلى الاجتماع ومن الأدب إلى الفن ، بحيث لو قدر لمقيد أن يجلس على غفلة منا يقيد الشوارد والأوابد ، لتسنى له أن يقدم لهذه الجلسات التى لا ضابط لها ولارابط ، كثيراً من « المضابط » تفتح أمام الذهن آفاقا ، وتصطنع لأصحابها أنصاراً ورفاقا .

كنت أتحدث ذات ليلة إلى صحبى أولئك ، فقال لى أحدهم « إن

الضباط الانجليز يمثلون الخلق الانجليزى فى أبهى صـوره » ثم قص علينا واقعة تعزز رأيه .

وعقب أحدنا على الواقعة بقوله :

— ولـكنى أكره فيهم تعاليهم .

ورد عليه ثالث بقوله :

— لهم الحق يا أخى ... «صحة وعلم ومال» كيف لاتولد هذه الأقانيم الثلاثة فيهم شعوراً بالسيادة على سواهم ؟!

وقال رابع عرف بالمزاح المحبوب فى أحرج ساعات الجد :

— ونحن مثلهم تماما — ولا فخر — منطقيون فى المقدمات والنتائج ... « مرض وجهل وفقر » كيف لاتولد هذه الاقانيم الثلاثة فينا الشعور بالانحلال الذى يرتع بيننا ويلعب ؟!

وعزّ على أولنا أن ترتفع ضحكاتنا فتحجب عنه وعنا الهدف الذى كان يرمى إليه فصاح فينا مذكراً إيانا :

— هو ! هو ! ما هذا الشطط ؟ وما هذا الشرود ؟ أنا أحدثكم عن الخلق الانجليزى لا عن السياسة السياسية .

وعزّ على الثانى أن يرمى بالشطط أو الشرود فقال يدافع عن نفسه وعنا :

— السيادة ياصاحبى هى الخلق ، فأنا حين أشعر بالسيادة وأعتز بالقوة .. لا أشعر بالحاجة إلى الإسفاف إلى الصغائر أو إلى الضعة فى معاملة الغير .

وأراد الثالث أن يلجأ إلى التفريع فقال :

— أجيبونى قبل أن تختلفوا ... ما الذى جناه مواطنى المريض والجاهل والفقير حتى تلوموه ؟ أفهل خُيِّر فتخير ؟ وهل أتحتم له فرصة السيادة فأفلت منكم هابطا إلى مستوى العبيد ؟!

وأجاب الرابع الذى كان يمزح فى هلال الحديث فعاد فى خلاله يجد :

— بالتأكيد ... خيِّر فتخير ... أُعطى حق الانتخاب فلم يحسن انتقاء النواب .. فلو أنه عرف كيف يرسل عنه النائب النابه والشيخ المجرب ، لرد الاثنان جميله مضاعفا ، ولقضى المجلسان على «المرض والجهل والفاقة» فى سنوات ، وها نحن أولاء قد أبلينا من عمر هذه الحياة البرلمانية ثمانية عشر عاما ، وخرجنا منها وكلنا شاك وكلنا ناقد

وصاح الخامس غاضبا :

— رويدكم يا إخوانى .. ما هذه الأحلام العجيبة؟ الشعب الانجليزى نفسه .. لم يستطع أن يرسل إلى مجلس العموم ، الخلاصة التى تطالبون الناخب المصرى بارسالها إلى مجلسنا ، فما لكم تطالبون ناخبنا الجائع بأيثار الموت جوعا على تلقى بضعة من الجنيهات ترد إليه الحياة — من يد المرشح — ولاتلومون المرشح نفسه الذى امتدت يده بجنيهاته ؟ ! ومالكم تطالبون ناخبنا الجاهل بإحسان الاختيار وأنتم لم تعلموه حتى يُحسن ؟ ! ثم مالكم تطالبون مريضا برعى الصالح العام وهو يرى الأصحاء يؤثرون عليه الصالح الشخصى ؟!

***

وضقت أنا أخيراً بهذ الجدل فقلت لهم :

— أصارحكم يا إخوانى بأن هذا كله جدل له قيمته الفنية من حيث هو مباراة ظيبة فى سباق للمنطق .. أما فى سوق الحق .. فمعذرة إذا أنا أكدت لكم أن هذا كله بضاعة مزجاة لاتصادف من الباحثين إقبالا ..

ولم يقاطعنى الإخوان — لانهم ألفوا منى عنف المقدمات وألفت منهم أن يضفوا على عنفى حلماً ، وأن يضفوا على سقطاتي ثوبا فضفاضاً من الغفران — وأكملت حديثى قائلا :

— صدقونى أنى لا أكره من الآراء النابية أكثر من ذلك الرأى الذى يهوّن من شأن الناخب المصرى ، ويعزو عدم إحسانه الحكم على المرشحين إلى فقره أو جهله أو مرضه ، ولست أعنى أن ناخبنا ليس فقيراً أو جاهلا أو مريضاً ، وإنما أعنى أن منطقكم لوصح لماشكونا نقصاً فى أشخاص الشيوخ والنواب ، فما من الشيوخ إلا مثرٍ بحكم النصاب ، وما فى المجلسين إلا ملم بالقراءة والكتابة بحكم قانون الانتخاب ، وما فيهم إلا قادر على العلاج — إذا لم يكن سليم الجسم — فعلى هدى منطقكم . . ها هم أولاء شيوخكم ونوابكم ، يجمعون إلى صحة البدن المال والعلم ، وإذن لاحق لكم فى الشكوى منهم ، ما دامت مقاييس السلامة عندكم ، هى الصحة والمال والعلم . . .

وسكتّ . . . وسكت الإخوان بضع ثوان . . وأخيرا تكلم أحدهم فقال :

— ما هى — إذن — الأسباب التى جعلته يسىء الاختيار إذا لم تكن هى المرض والجهل والفقر ؟

وأجبت مؤمنا بما أقول :

— المواطن المريض لم يكن يجد بالأمس الدواء ولا الطبيب ، أما اليوم فانه يجد بفضل الحياة البرلمانية — وعلى الرغم من كل نقائصها — « بعض » المستشفيات بأدويتها وأطبائها ، وسيجد غدا — وقد يبعد بنا هذا الغد — المستشفيات الكافية ، والفقير قد لا يجد اليوم قوته ميسوراً ، ولكن الضجيج الذى أحدثه هواة الخطب من شيوخنا ونوابنا ، قد رفع من مستوى العامل ، وحدد لبعض فئات الأجراء حداً أدنى لأجورهم . . وملأ آذان الملاك حديثاً عن الطبقات ، فهذا التقدم البطىء قد يسرع غدا بفعل الأحداث و بفعل الزمن ، — وقد يبعد بنا هذا الغد ولكنه سيجىء حتما — أما الجهل فكان له إلى عهد قريب سيادة تكاد تكون شاملة ، أما اليوم و بفعل الحياة البرلمانية ، فقد قام التعليم الإلزامى فى القرى والكفور ، وأصبحت أسوار الجامعة تضم قرابة عشرة آلاف

طالب، فالحياة البرلمانية التى أخرجت أبناء الجيل من ليل الظلام إلى فجر النهار، قد تتنبه على عيوب هذا التعليم فى الغد القريب، فتشرق الشمس ساطعة، ويستمتع بحرارتها ونورها أبناء مصر جميعاً.

بلغت هذا الحد من حديثى ويبدو أنه كان مملا، لأن أحد الإخوان قال فى شيء من الحدة:

— نحن نسألك العلة فى سوء اختيار الناخب للنائب، وأنت تلقى علينا محاضرة فى مزايا الحكم النيابى، وقلت للصديق:

— قد يعطيك ظاهر الحديث بعض الحق فيما تلصق بى من تهمة الشرود، ولكنى أردت أن أقول إن السبب فى سوء الاختيار يرجع أولا وقبل كل شيء إلى ضعف النضج السياسى فى الناخب، لأن أحداً لم يتول إرشاده، فهو قد دُفع إلى مراولة حق، حيل دونه طويلا، حتى جاءت الثورة المصرية فبهرته بضوئها الساطع، فغشى بصره وهجها، فبدأ يدعك عينيه بيديه ليحسن الرؤية، فاذا هو أمام مرشحين من الأصحاء العلماء الأغنياء !!! وقد أمسك كل منهم مشكاة، هذه ترسل نورها أحمر قانياً، وهذه ترسله أصفر فاقعاً، وثالثة ترسله أخضر قاتماً. فتراقصت عين المسكين أمام هذه الأضواء وتخبط.

أريد أن أقول إن ناخبنا دفع إلى تربية نفسه سياسيا بنفسه، وإذا كان هذا الدفع قد أضرَّ به حتى الآن، فانا من المؤمنين بأنه سينتفع به فى الغداة، فدعوه يزاول حقه الانتخابى فى هذه الأعاصير وفى هذه الأجواء، ودعوه ينخدع بالوعود الخطابية ثم تحرق يديه عواقبها ويذوق بفمه مرارة كأسها، ودعوه يعرف أنه صاحب حق لم يحقق، وصاحب إصالة لها ان تحاسب النائب الخادع أو الخائب، ثم دعوه ينتفع بكفاح النائب المخلص أو النابه، ليرقى بفضله على الزمن، ويخف بعض جهـــله فيزداد بصراً بحقه، ويخف بعض فقره فيزداد قدرة على محاسبة

وكيله ، و يخف بعض مرضه فيزداد تفاؤلا فى تحقيق أمله ، وثقوا أن كل ما يحتاج إليه هو الإرشاد .

وسادنا الصمت لحظات حتى قال قائل من الإخوان :

— ومن ذا الذى يتولى إرشاده ؟

وأجبت فى بساطة :

— أنا .

وضج الإخوان بالضحك وضحكت معهم .

وفى هذا الجو المرح جددت قوى الإصغاء عندهم وواصلت حديثى قائلا لهم :

— عنيت بكلمة «أنا» شيئاً أسمى بكثير من شخصى . . . عنيت حرفة « النقد البرلمانى » .

— آه . . . هذا شىء آخر . . .

— نعم ! فلو أن الصحف عُنيت بهذه الناحية ، ووهبت نقادها البرلمانيين قدراً من حرية الرأى يمكن لهم من بسط جهود النائب أمام الناخب ، لعجلت بالنضج السياسى للناخب وللنائب معاً . ولازدهرت حياتنا النيابية فى أقصر وقت ممكن .

— ٤ —

أثبت هذا الحديث الذى جرى بينى و بين الأصدقاء ، لا لأدلل به على أني محدث يقنع سامعيه ، بل لأقاوم به أخطاء يسوءنى أن يروج لها خصوم الحياة النيابية فى مصر .

نعم أريد أن أقاوم أولا نظرية « الاختيار قبل الانتخاب » . . التى انتهز أنصارها فرصة تنبهنا على انتشار الأمراض والفاقة والجهالة . . ليقولوا إن ناخباً مريضاً وفقيراً وجاهلا ، لا يحسن أعطاؤه حق الانتخاب المباشر ، أريد أن أقاوم هؤلاء

الأنصار فى انتهازهم فرصة تفاقم الخلاف الحزبى بيننا ، وفرصة بعض الأغلاط التى تقع فيها بعض الأحزاب ليدعوا أن الحياة البرلمانية قد منيت بالخيبة ، وأن الرجعة بنا إلى ما فات من ماضينا خير وأبقى . . . ناسين أن هذه الحياة البرلمانية التى يحاربونها بهذا السلاح إنما هى وحدها التى أزالت الغشاوة عن أعيننا ، وفتحت هذه الأعين على عيوب كانت مستورة فظهرت ، وكنا غافلين عنها فتنبهنا عليها ، وكنا مستسلمين لها فاصبحنا ضائقين بها ، وكنا نجهلها فعرفناها .

— ٥ —

وهـذه اليقظة هى حلقة محتومة فى سلسلة التطور الذى بدأ من قديم ، ومن حقه علينا أن يبعثنا على الارتياح إليه لا على التبرم به والتشاؤم منه . .

ولست أريد ان أذكر القراء بوقائع التاريخ التى دلت على أن مصر تشبثت من قديم بحقها فى الحياة الحرة ، و برغم عوامل الانحلال التى ائتمرت بها وحاربتها قروناً فلم تقو على إفناء شخصيتها ؛ ولا أنا أريد أن أعود بالقراء إلى عصر نابليون ، ومقاومة المصريين لحكمه ، وتقربه إليهم بدعوته كبارهم الى انتخاب مجلس منهم ، ورئيس يكون كبيراً عليهم ، ولا أريد أن أعيد إلى الأذهان تشبث المصريين بأن يكون قيام « محمد على » حاكما عليهم ببيعة منهم

لا أريد أن أرجع بالقراء إلى ذلك البحث التاريخى الممل ، فى بحث برلماني عابر كهذا ، إنما اطلب إليهم أن يراجعوا تاريخنا النيابى القريب من يوم قام فينا « مجلس شورى النواب » فى عصر اسماعيل أو فى سنة ١٨٦٦ على التحديد إلى يومنا هذا .. ليلاحظوا معنا أن سنة النشوء والترقى آخذة طريقها ، متطورة بنا إلى أهدافها ، فلا محل لأن نساير خصوم الحياة النيابية فى حملاتهم

أطلب إلى المستنيرين من القراء أن يراجعوا كتب التاريخ ليلاحظوا على الأقل — ومن غير مجهود كبير يبذل — أن عمد البلاد ومشايخها هم الذين كان لهم

وحدهم حق الانتخاب فى المديريات ، وأن الأعيـان هم الذين كان لهم وحدهم حق الانتخاب فى القاهرة والاسكندرية ودمياط ، وأن بعض المجالس النيابية كان ينص فى لوائحها على أن يكون حضور أعضائها إلى المجلس «بملابس الحشمة اللائقة وجلوسهم فيه يكون بهيئة الأدب» وأن « مناقشات المجلس لا يحق لأى عضو نشرها بغير إذن الرئيس ، وجلساته تـكون سرية » .

كانت تلك المجالس لونا — إذن — من ألوان الأبهة يحيط بها الحاكم نفسه ، ولـكن سنة الترقى ظلت تتطور بنا — مع تطور الصحافة المرشدة — وتنبه الرأى العام ، حتى انتهت إلى عهدنا النيابي الحالى الذى يملك فيه البرلمان من سلطة التشريع وقوة الرقابة ، ما تملكه أحدث البرلمانات فى أرقى الأمم ، والذى يملك فيه المواطن العادى ، أكثر مما كان يملك العمدة أو العين فى الزمن الماضى .

نحن نتطور — إذن — . . .

ولا محل للمقارنة بيننا اليوم و بيننا بالأمس . . .

و إذا كنا لم نتطهر بعد من ميراثنا « البيروقراطى » فى التفكير ، فقد تطهرنا من أن نكون عبيداً لطائفة من الجراكسة والمماليك والأتراك ... بل من أن نكون أدوات فى يد رجال العسكرية كما كان الحال فى أول ثورة وطنية حمل رايتها فى القرن الفائت مواطن من صميم الفلاحين . . . بل قد تطهرنا من أولئك الباشوات الأتراك الذين تمصروا وكان الحكم يكاد يكون حكراً بينهم إلى ما قبل أن يقود « زغلول باشا » مواطنيه إلى الثورة الوطنية الثانية والنهضة المصرية الأخيرة

* * *

كل هذا كسب لاشك فيه ومن واجبنا أن نقدره ونحرص عليه ، ولا نتخذ من النقص الذى نحس به اليوم ، سبباً لإضاعة الـكسب الدى حصلنا عليه ...

يجب أن نذكر أن مصر اليوم أمة ناهضة تتزعم الشرق العربى ، وتقوده إلى حياة ديمقراطية سليمة اهتدينا إلى بداية الطريق إليها ، فأصبحنا أمة نيابية الحـكم

برلمانية النظام ، ذات مليك دستورى يملك ولا يحكم ، ويفاخر بأن يقول للفلاح الصغير : إن الحكم لك أنت ومنك و إليك . .

فهل يمكن أن نقارن عبارة هذا الملك الدستورى الذى يستمد من الشعب جلاله . . . ببعض العبارات التى سجلها التاريخ على بعض الولاة فى ذلك الماضى البغيض ؟ !

أو هل يمكن أن نقارن بين الوزارات المصرية التى لا تقوم اليوم إلا على ثقة البرلمان ، بتلك الوزارات التى كان يسيطر عليها المراقب المالى ويشترك فيها وزراء أجانب ؟ !

لا محل للمقارنة البتة ...

والحق الذى لا شك فيه أن أولئك اليائسين من إصلاح النظام البرلمانى فى مصر ، إنما هم قوم خدعتهم دعايات الخصوم لهذا النظام .

والحق الذى لا شك فيه أيضاً أن حياتنا البرلمانية تمشى إلى أهدافها ، برغم كثرة الخصوم الذين ائتمروا بها . . . وأنها تلتوى حينا ، وتستقيم حينا ، وتتعقد حينا ، ولكنها فى التوائها واستقامتها وتعقدها ، إنما تساير الظروف المحيطة بها أو تقاوم الخصوم المتآمرين عليها . . . أشبه بالنهر يضيق مجراه — فى ناحية — فيتحول إلى جدول . . وتعترضه الصخور فيتخذ له بين الصخور سرباً . . فاذا اتسع مجراه بعدئذ . . اتخذ من سعة المجرى منقلباً ، وعاد يتدفق — نهراً — شاقا طريقه إلى البحر فى زهو وقوة

— ٦ —

فرغنا من إثبات الحقائق التى لا شك فيها من ناحية تطورنا البرلمانى ورقينا فيه .

فهل يعنى هذا الإثبات أننا والحمد لله لم يعد لنا أن نأسف على شىء . ؟ أو أننا لانجد ماننقده ؟

كلا .. وتعالى بنو مصر عن هذه الخدعة يخدعون بها أنفسهم .

صحيح أن فى مصر من يقول إننا استكملنا سيادتنا ، وحطمنا أغلال الامتيازات الأجنبية ، وأخذنا مكاننا من سبع سنوات خلون بين الأمم فى عصبتها ، وخفقت بين الرايات يومئذ راية مصر الخضراء ذات الأهلة ...

هذا قول محام ... يتخذ من أناقة الإنشاء ستراً يحجب به حقائق الأشياء... والمسألة ليست هكذا .

المسألة أن مصر قطعت فى ترقيها أشواطاً ، مكنت لها من أن تتطلع إلى مكانها بين أمم الحضارة ، ومكنت لحياتهـــا النيابية من أن تساير هذه الأمم من حيث « الشكل » اللائق بها . . ولـكن هذه الحياة النيابية التى قامت على أحدث النظم البرلمانية ، إنما قصد بها توطيد دعائم الروح الديموقراطى الحقيقى فى النفوس ، وإشعار الشعب بالخير الذى عاد عليه من وراء هذا النظام الجديد ، فإذا لم يكن المواطن قد شعر بهذا الخير ، فقد وجب علينا أن نبدى ملاحظاتنا على القائمين على هذا النظام البرلمانى الذى قام لتحقيق الحياة الديموقراطية فى مصر ، فجانبه التوفيق بسبب النقص فى هؤلاء القوامين عليه ، سواء أكانوا أفرادا من الساسة أم كانوا حزباً من الأحزاب . .

— ٧ —

فما هى العلة الحقيقية فى تأخر حياتنا البرلمانية موضوعاً وروحاً . . برغم مسايرتها مثيلاتها فى أمم الحضارة من حيث الشكل ؟؟

أرجو — وأنا أهم بالجواب على هذا السؤال الخطير — أن يعنى النائب والناخب معاً بهـــذا الجواب ، عناية توائم ماللوطن عليهما من حق ، وما

للوطن عندهما من حرمة .. حتى إذا أقرا هذا الرأى .. عاودا التفكير فيه والعمل على تحقيقه ..

والجواب — أن هذا التطور الذى مشى بالحياة النيابية فى أطوار طبيعية من بداية نشوئها إلى الحد الذى انتهت إليه داخل نطاق ترقيها ، كان خليقاً بإسعاد الشعب، كما سعدت شعوب أمم الحضارة ، لو أن العالم ظل على أوضاعه القديمة ، وظلت مصر كما كانت لاتعنى غير أهلها ... ففى مثل ذلك الجو المحدود ، كان فى وسع نظام التطور البطىء ، أن يسير بنا فى اتزان وعلى مهل إلى الهدف المنشود، ولكن العالم كله أنذر من زمن بانقلاب قادم ، ولم يتنبه ساستنا على تلك النذر ، حتى أخذتنا الصيحة فرأينا أنفسنا متخلفين فى الحقيقة واللباب ، وليس بين أيدينا غير دستور يقوم على أحدث المبادىء العصرية ، وغير حياة نيابية تقوم على عقلية « بيروقراطية » تستغلها الأحزاب لتثب على حسابها إلى دست الحكم وسلطان التحكم .

نعم أخذتنا الصيحة — بل الرجة — التى ولدتها حروب صامتة شبت فى أيام السلام بين النظم الاقتصادية ، وتعاركت بغير سلاح ، أعنف عراك فى التاريخ ، من غير أن نلقى بالنا عليها إلا حين انتهت إلى المجزرة الدموية التى نشهد الآن بعض آثارها ونطالع بعض أخبارها .

هذه الرَّجة قد طفرت بالعالم المتمدين فى السنوات العشرين الأخيرة إلى مانشهده اليوم فى البر والبحر والجو ، مما جعل الدنيا مسرحاً مر بيد المحو على كتب الجغرافيا ، ووصل مابين المشرق والمغرب متجاهلا قوانين الأبعاد والزمن ..

هذه الرجة كلها ولّدها الاقتصاد ، فشبت بسببه هذه الحرب الضروس ، وتوارت السياسة بالحجاب ، وانحلت قوانين الاجتماع ، وحلت محلها عبارات «المجال الحيوى » و « عدالة التوزيع فى المواد الخامة » وأصبح القول الفصل فى مصير هذه الأرض وقفاً على النصر الذى يحرزه نظام اقتصادى بعينه على نظام اقتصادى

آخر ، والنظام الذى يقدر له النصر ، هو وحده الذى يملى فى الغد على المجتمع ، الروح الذى يوائم طبيعته .

لم يعد النهوض بالوطن — إذن — وقفاً على إرادة الوطنيين ، أو على نتائج الكفاح بين السيد والمسود ، ولم يعد القول الفصل وقفا على الساسة الذين يؤدون أدوارهم فوق الخشبة ، بل أصبح كل شيء رهينا بالنظام الاقتصادى المرتقب .

هذه هى حقيقة الانقلاب الذى تناول العالم ولم يعد فى أرض من أراضى الحضارة شبر خال من مفكر يخترع وآلة تدور ونتاج يتوالى ، حتى أن الأمم المتحاربة نفسها تشتغل فى أوقات الحروب بوضع أسس اقتصادية لما بعد الحرب .

فالقارة المحتلة تنضم الآن قسراً إلى « نظام الريخ » الاقتصادى ، و « روزفلت » و « تشرشل » يضعان أسس الدنيا الجديدة فى اجتماعهما التاريخى فى المحيط .

ونحن — وحدنا — ودون سائر العالم كله . . لانعرف شيئاً من هذا كله .

وساستنا — وحدهم — ودون سائر الساسة فى العالم كله . . لايزالون آخذين بتعاليم المدرسة القديمة . . يحترفون السياسة على النحو الذى قام بيننا من مئات السنين ، ونتقاتل تقاتلا حزبياً كما كانت تفعل الأحزاب منذ نشأتها من ستين عاماً . . ولا يزال منا رجال أكفاء يحصرون كفاياتهم فى النطاق الذى حصر كفاياته فيه « سامى البارودى » ليقصى عن الحكم « محمد شريف » متناسياً أن أسطول البحر الأبيض المتوسط كان يومئذ يتبختر على مقربة منه .

كانت الأساليب السياسية التى يجرى عليها ساستنا اليوم صالحة للبقاء . . قبل أن يقوم نظام « لينين على يد ستالين » على قواعد صارمة من الحقائق والأرقام ، مكنت للجيش الأحمر من أن يأتى بمعجزة القرن العشرين . . . فى مقاومة قواعد مماثلة . . أقامها فلاسفة الوطنية الاشتراكية على يد « روزنبرج وهتلر »

وقبل أن تدور آلات الترسانة الكبرى عبر المحيط لتسجل رقماً فى الإنتاج لم يحلم به « ويلز » فى عالمه المتخيل .

هذه الحقائق لم تفت الروس أو الألمان ، ولم تفت الإنجليز أو الأمريكان أو اليابان ، ولكنها فاتتنا نحن فظللنا حتى سنة ١٩٤٢ نقيم سياستنا على أساس من الخطب ذات الرنين ، قال لى مرة أحد الأصدقاء من الساسة النابهين ، إنه راجع نصوص معاهدة التحالف فأدهشه منها . . أن الإنجليز عنوا فيها بالجزئيات الاقتصادية أكثر من عنايتهم بالكليات السياسية .. فنصوا عند الكلام على طرق المعاهدة على السيارات وحمولتها بل على « الدناجل » فيها والمسافات بينها ..

فلماذا عنوا بكل هذا ؟ ؟ لقد كانوا فى ذلك ساسة يعرفون اتجاهات الدنيا الحديثة ويتطورون معها ..

أما نحن فنحترف السياسة — فى القرن العشرين — على طريقة أبناء القرن التاسع عشر ، وكل ما نشكو منه من التناحر الحزبى أو الانحلال الخلقى أو الروح النفعى إنما هو وليد هذه الحقيقة المرة . . وليد خيالنا السياسى القديم نسبح فيه داخل حدودنا وقد انهارت بين الدول الحدود . . وليد الهوة الفكرية التى حفرناها بيننا و بين أمم الحضارة ، فاعترفوا هم بأن الاجتماع وليد الاقتصاد ، و بقينا نحن نُملِّك ثروة مصر سبعة فى المائة من أبنائها .

ثم ننشىء وزارة للشئون الاجتماعية لنطالبها باطعام ثلاثة وتسعين فى المائة من المواطنين من صندوق الاحسان أو من مشروع الزكاة ، فاذا أرادت الدولة أن تفرض على الوارثين من أبناء السبعة فى المائة « ضريبة تركات وأيلولة » ظل المشروع فى سكرتارية مجلس الشيوخ يغط فى النوم قرابة عامين ، وإذا أردنا إنعاش الكتلة العاملة بعض الإنعاش ببعض قوانين عمالية تناهت فى التواضع ظلت هذه القوانين رهينة هذه السكرتارية بضع سنين .

سمعت صديقاً مرة يقول « لقد كان سعد زغلول من أنصار هذه السياسة القديمة » نعم . كان زغلول باشا من أنصار هذه السياسة . . ولـكن سعداً كان زعيما يريد إنهـاض أمة ، ولم يكن مصلحاً يريد أن يبنى . . كان زعيما يريد أن يوقظ نائماً ، ويلهب خاملا ، وكانت فترته فترة هدم للقديم الفاسد ،أما عصرنا فعصر تعمير و بناء ، وليس لنا أن ننسج على منوال رجل أدى رسالته وأتم مهمته ومضى إلى بارئه مرتاح الضمير

فى عصر سعد كان « هتلر » جاويشـــاً . . وها هو ذا اليوم يحكم القارة . . فـكيف جمدنا نحن على القديم ربع قرن من الزمان من غير أن يقوم فينا من يحدثنا عن أساليب التجارة الحديثة ، ونظم التبادل الجديد ، وأسس النهوض الصناعى .

هذه هى الحقيقة الـكبرى أسجلها لأبناء الجيل بمداد من دم القلب يقطر أسى على ما انتهينا إليه .

وهذه هى العلة الأولى التى عوقت حياتنا النيابية بمصر عن أن تثمر ثمرها المرجو ، لأن روح الخمول الجماعى ، وازدهار الخلق النفعى ، لابد أن يؤديا إلى استهانة بالصالح العام ، إذا عارضه الصالح الشخصى ، والاستهانة بالصالح العام هدم للروح الديمقراطى ، يجرد الحياة البرلمانية من الدم النقى ، ويجعلها هيكلا شكليا ، وعقدا براقا من زائف الماس فى الجيد . .

جيد الدولة طبعا ! ! !

***

حياتنا النيابية — إذن — لاتزال تتطور — ولـكن داخل حدودنا — فاذا ما أردنا لها أن تثمر وجب علينا أن نصل بين الضمير المصرى فيها ، و بين ما يجرى خارج الحدود بين مختلف الامم ، وبهذا وحده يجرى دم الحضارة الحديثة فى شرايين البرلمان المصرى ، فيترك النائب إصلاح دورة مياه فى قريته للمجلس

القروى ، ليسأل عن حركة من حركات التصدير ، أو عن أسباب النقص فى استيراد الحديد والقصدير ، أو عن سبب جوع المنتج أو الأجير ، فى البلد الزراعى الذى يجود على الآخرين بالذهب النضير . . وهذه اليقظة التى نرجوها لنائبنا تذكرنا بالناخب فننبه على ناحية يحسن أن تكون خاتمة لهذا البحث :

كثيرا ما يهم هذا الناخب أن ينتمى إلى حزب من الأحزاب ، ويتعذر عليك أن تثنيه عن تعصبه لهـــذا الحزب . . ينتمى إليه لا عن بصر بمبادىء اقتصادية أو غير اقتصادية ينادى بها حزبه ، ولا عن دراسة لمختلف الأسس التى قامت عليها الأحزاب وإيثـــار لأساس بعينه ، ولا عن فـكرة قومية دان بها ورأى حزبه يعمل لها . .

لاشىء من هذا فى الأغلب الأعم يحمل ناخب القرية أو الاقليم على التعصب للحزبية ، بل لأن قبيلته أو أسرته نشأت على مناصرة هذا الحزب — لعوامل لاشأن لها بمثل سياسى أعلى — فأصبح أبناء هذه الأسرة أو القبيلة يرون من تقاليدهم مناصرة الحزب الصديق ظالما أو مظلوما ، أو لأن الناخب يرتبط بأرض المالك ارتباطاً يجد معه أن من الوفاء للمالك أن ينتخبه إن هو رشح نفسه أو ينتخب من يدعوه هذا المالك إلى انتخابه .

ولو أن أحزابنا عنيت بالحياة الاقتصادية التى أصبحت اليوم ذات صبغة دولية ، ولو أن نوابنا ألفوا أن يعرفوا مكان بلادهم من هذه الدنيا . . لسرى روح اليقظة منهم إلى ناخبيهم ، ولعرف الناخب أن للوطن حقاً فوق حق القبيلة والأسرة . ولعرف كيف يناصر حزبه عن بصر بمبادئه وإيمان بمُثُلِه ولازدهرت تبعا لهذا الروح حياتنا البرلمانية ، ولواصلت تقدمها . . ولـكن داخل النطاق الذى يربط بين مصر الناهضة وبين الدنيا الجديدة القادمة

الباب الثانى

المجلسان فى الميزان

والآن يجىء دور البرلمان بمجلسيه وملحوظاتنا عليه ، ولقد عاصرت مجلس الشيوخ طويلا ، بل قل إن عامى هذا هو خامس الأعوام التى أمضيتها فيه ، مطلا بعين النـاقد على مايجرى فى قاعته ، ومتتبعا بروح الاهتمام مايجرى خارج هذه القاعة .

أما مجلس النواب الفائت ، فلم أشهد من جلساته فى أثناء السنوات الأربع التى عاشها ، غير جلسات لعلها أربع أيضا ، وإن كنتُ تتبعت مانشر عن جلساته فى الصحف .

من حقى — إذن — أن أتحدث عن مجلس الشيوخ وأسهب فى الحديث ، ومن حقى أن أبدى رأيا فى مجلس النواب المنحل على الجملة لاعلى التفصيل ، ومن حقى أخيراً أن أحدد لمجلس النواب القائم بعض الاتجاهات التى تشير إلى مقبل أيامه ، راجين أن تجىء النتائج المرجوة من هذا المجلس وفقا لهذه المقدمات التى لاحت بشائرها .

من حقى هذا كله ، ولـكنى أكتفى بأن أسوق الملاحظات على الحياة البرلمانية فى صورتها العامة ، مراعياً فى هذا الإجمال أكثر من اعتبار .

عناصر البرلمان

ولـكى أوفق إلى حصر أقل الملحوظات عدداً ، وأكثرها — فى رأيى — نفعاً ، فى أقل عدد ممكن من الصفحات ، ينبغى أن أعرض بالحصر أيضاً إلى

العناصر التى تقوم عليها الحياة البرلمانية ، أو التى لايستكمل البرلمان بغيرها المظهر الصحيح لقيامه .

وأحسبك تعرف أن البرلمان يقوم على رياسة ، وأعضاء فى القاعة ، وأعضاء فى اللجان ، وكتل من هؤلاء الأعضاء تمثل الهيئات والأحزاب والآراء ، ووزراء يسألون أمامه، وموظفين يعدون له مضابطه ، ويهيئون أعماله ، وصحفيين ينقلون إلى الناس مايدور تحت قبة البرلمان ، وما تنتجه اللجان ، ونظارة يأخذون مكانهم من الشرفات ، ليروا صامتين جهود الناطقين باسمهم .

وليس فى وسعى أن أتناول بالبسط هذه العناصر جميعاً فى الحيز الذى تحدده صفحات هذا الكتاب ، وإنما أشير إلى كل عنصر إشارة عابرة إلا ماأرى وجوب التوسع فيه .

رياسة المجلس

وقد أثبتت الأحداث فى كل الدول التى تحيا حياة نيابية ، أن للرياسة فى المجالس خطرها وأثرها ، ولهذا لوحظ فى الدول التى نجحت فيها الحياة البرلمانية أن الرئيس يختار فى الأغلب الأعم من صفوف المستقلين ، أو يقع الاختيار على شخصية من حزب الأغلبية يكون صاحبها قد عرف فى حياته السياسية بانعدام روح التعصب فيه ، وبسعة الصدر لتلقى آراء معارضيه ، وبروح العدل يحدو تصرفاته ، فاذا مااختير هذا الرجل الحزبى لهذا المركز الخطير ، خلع عنه ثوب الحزبية ، وأصبح شأنه فى كرسى الرياسة شأن القاضى فى منصة القضاء ، واستمد للتسوية بين الجميع قبسا من النور الذى أحاطت به الحياة الدستورية جلال التاج نفسه ... للجميع وفوق الجميع .

وفى مصر بالذات أتيح للبرلمان أن يشهد ألواناً من هذا التسامى وأقباسا من هذا النور ، ولكن على قدر النطاق الذى عاشت فيه حياتنا البرلمانية

الوليدة ، وبالقدر الممكن من روح الإنصاف الذى يستحيل اكتماله لمثل هذه الحيـــاة إلا على مهل ، وعلى هدى التطورات السياسية التى تتطور بنا أو نتطور بها . . .

وهذه «التحفظات» — التى أستعيرها من لغة السياسة للغة النقد — يذكرنى بها نقد توجه به بعض المفكرين الأحرار فى مصر ، إلى التنافر الذى بدا فى بعض الأحيان ، بين الروح الديمقراطى الذى كان ينبغى أن تدار به جلسات المجلسين ، وبين النزعة العنيفة التى نزع إليها بعض عظمائنا حين أسندت إليهم هذه الرياسة فى أزمان ماضية ، وقد نسى أولئك الناقدون ، أن هؤلاء العظماء كان من بينهم زعماء قادوا النهضة من بدايتها ، واعتبروا الحياة البرلمانية وليدة جهادهم ، فكان من حقهم أن يعتبروا أنفسهم معلمين ، فى طور النشوء الذى اجتازته هذه الحياة ، وأن يأخذوا النواب باللين تارة ، وبالعنف ثانية ، وبالحض ثالثة ، وبالمنع رابعة ، وبمختلف الوسائل التى اعترفت بها الحضارة حقا ثابتا لكل معـــلم ، حتى إذا ما نضج هؤلاء النواب ، ورسخت فى المجلسين تقاليد صالحة ، فلا ضير أن ترتفع فى القرن العشرين ، راية الشاعر القديم ، الذى علّم تلميذه الرماية ، فعاد التلميذ بعد أن اشتد منه الساعد يرمى أستاذه ، مع فارق كبير بين ألم هذا الشاعر من تنـكر تلميذه الذى رمى فأساء ، وفخار هذا « المعـــلم البرلمانى » الذى رماه تلميذه فأحسن ، لأن إصابة المرمى إن عدت إساءة فى الميدان الخلقى والفردى ، فهى الهدف المرجو من وراء التطور البرلمانى ، على أننا وقد قطعنا بهذه الحياة البرلمانية أشواطا ، وخرجنا بها من دور الهدم إلى دور البناء ، وجمعت السكرتارية فى مجلس الشيوخ وفى عهد الرئيس السابق من تقاليد المجلسين ما أتاح لهـا أن تملأ بهـا كتابا ضخما ، فقد أصبح من حقنا أن نعتبر هذه الرياسة شابة يافعة اجتازت طور النشوء ، وأصبح من حق النقد أن يبدى رأيه فيها ، أو أن يبدى بعض الملحوظات عليها . . . وأقول (عليها) لأنى لن أعرض لشخص الرئيس

السابق أو الحالى إلا عندما يجيء دوراهما بين شخصيات الشيوخ ، و إنما أبدى هنا الملحوظات عامة من حيث صلتها بالحياة البرلمانية .

***

أول واجب على الرياسة أن تعطى الأعضاء حق إبداء الرأى مطلقا من كل قيد ، وأن تكفل للاقليات الحماية تامة ضد المؤيدين الذين يستمدون القوة من حكومتهم القائمة ومن كثرتهم العددية ، بل أذهب إلى حد القول بأن الرياسة فى برلمان حديث كبرلماننا ، لا تجاوز حدودها إذا هى رأت أن تسعى خارج القاعة وفى كل ملاءمة تعرض ، إلى حض بعض زعماء الأكثرية على مناصرة الأقلية فى الرأى الذى تعتزم إبداءه ، متى كان الموضوع المطروح لا صلة له بالسياسة أو بالأحزاب ، ومتى كان الرئيس مقتنعا بأن رأى الأقلية يوائم الصالح العام ، بهذا يروض النواب أنفسهم على حقيقة هى إحدى أهداف الحياة البرلمانية ، وأعنى بهذه الحقيقة أن الحزب لا ينبغى أن يكون له رأى يلزم به أنصاره فى المسائل القومية التى لا تمت بوشيجة إلى خلاف بين الأحزاب فى مبادئها

وأنا إذ أبدى هذا الرأى ، فانما أقيمه على ما لاحظته فى أحايين كثيرة من ميل نواب الكثرة — فى مختلف العهود ومن مختلف الأحزاب — إلى مقاومة كل رأى تناصره الأقليات ، ولو كان هذا الرأى خاصاً بتشريع ينظم أمراً اجتماعياً لا دخل للاحزاب فيه ، وأقيمه على ما لاحظته أيضا من تعجل بعض الرياسات فى مجالسنا البرلمانية إلى الترحيب بكل اقتراح يرمى إلى إقفال باب المناقشة قبل أن يتنور المجلس ، وإلى الاحتكام السريع إلى النواب بطريقة أخذ الرأى ، مع علم هذه الرياسات بأن الأغلبية تملك دائما ترجيح الرأى الذى يطيب لها . بل إنه ليؤسفنى أن أرى الصالح العام يحملنى حملا على أن أقرر أن بعض الرؤساء يميلون كثيراً إلى مناصرة السلطة التنفيذية ، متأثرين بأن هذه السلطة تملك حل مجلس النواب إن كان الرجل رئيسا للنواب ، أو أن هذه السلطة تملك عدم تجديد

تعيين الرجل إن كان رئيسا للشيوخ ، فإذا تطهر من الفكرتين فقد يكون متأثرا بأن الانتصار للأقليات يحدث شغباً لا داعى له ، أو يؤلب كثرة ما أغناه عن خصومتها . . . مثل هؤلاء الرؤساء لا يؤدون للحياة البرلمانية واجبا أو لا يفهمون منها لبابا . . ولو أن هذه العيوب التى بدت على بعض الرؤساء فى بعض العهود لم تخالط تفكيرهم ، لخطت حياتنا البرلمانية خطوات واسعة ، ولجنينا منها ثمارا أكثر نضجاً .

وللرؤساء الذين وقعوا فى هذه الأخطاء أن يشعروا بأنهم المعنيون بهذا النقد ، أما أولئك الذين ضربوا أحسن الأمثال لتجردهم « الممكن » منها ، فأحسبهم يعرفون أنفسهم ، وأحسب الناس يعرفونهم أيضاً ، فقد حدث أن جلس بعض هؤلاء المؤمنين بحرية الرأى وبجوهر الحياة الديموقراطية فى كرسى الرياسة مستندين فى جلستهم إلى إغلبية تناصرهم ، ثم لم يترددوا فى كبح جماح هذه الأغلبية وفى حماية الأقلية ، حتى لقد أغضب بعضهم كثيراً من أنصارهم ، لكنهم أرضوا ضمير الحق ، بل ضمير هذه الحياة البرلمانية ، وكان لهم الفضل فى هذه اللمحات الطيبة التى تومض فى سماء المجلسين بين الحين والحين ، فيتوارى روح التشاؤم فينا ، ويزدهر إيماننا بأننا نتطور حقا .

* * *

ولوحظ أيضاً — أكثر من مرة وفى أكثر من موقف — أن بعض الرؤساء ، يسرفون فى توقير بعض البلغاء ، ويخشون خصومتهم فلا يقاطعونهم ولو خرجوا عن الموضوع ، أو ولو جاء كلامهم مكرراً ومعاداً — خلافا لنص اللائحة — ثم لوحظ فى الوقت نفسه أن هؤلاء الرؤساء ، كانوا يستخدمون العنف والمقاطعة مع بعض النواب الذين لا يحسنون فن الخصومة ، بحيث لم يتمكن بعضهم من إبداء رأيه كاملا ، على الرغم من وجودهم فى المجلس من يوم قام ، ومحاولاتهم الدائمة فى إبداء آرائهم .

* * *

ولوحظ كذلك أن الرؤساء يختلفون فى فهم اللوائح وفى تطبيقها ، فبعضهم يضفى عليها من التقديس « الحرفى » ما يبديه فى صورة الجندى الطائع لحرفية النصوص طاعة « عمياء » كما يقول العسكريون . . وبعضهم يستخدمها استخداما غير عادل ، ويصر على تطبيقها حينا ، ويعدل عن تطبيقها حينا ، ويلجأ إلى ما يناقضها حينا ، فتفقد اللوائح كل احترام لها فى نفوس النواب ، على أن ثمت آخرين من هؤلاء الرؤساء قد أحسنوا الفهم والتطبيق ، فعنوا بالروح قبل النص ، ولم يستغلوا المرونة فى بعض نصوصها إلا خدمة لغرض سام أو لصالح عام — خذ مثلا شيخا أغضب رئيس شيوخ مرة ومرتين وثلاث مرات ، فلم يشعره الرئيس بأن لوجود بوليس البرلمان حكمة ، وبأن فى اللائحة أحكاما . فأسرف الشيخ فى عدم المبالاة ، فطبق الرئيس النصوص كاملة ، وعلى صورة قاسية ... حسبك منها أن البوليس تناهب الشيخ من ملابسه وذراعيه ، بل أسرف الجنود بعد إخراج الشيخ من القاعة ، فأخرجوه بغير حق من مبنى البرلمان كله ، وكان الموقف يدعو إلى المرارة ، وأنت ترى شيخاً محترما واقفاً بأبواب البرلمان يصرخ بأعلى صوته . . . وجنوداً يدفعون به إلى خارج المكان الذى لم يقم إلا على تحريم هذا الاعتداء على الشيخ — لا من الجندى العادى ، بل من الوزير وقوى الدولة كلها — تمكينا له من أداء واجبه كاملا ومن إبداء رأيه حراً . . .

فاذا أنت سألت النصوص فالرئيس لم يتجاوزها . . أصدر أمره باخراج الشيخ فنفذ البوليس أمره . . أما إذا سألت روح النصوص فالرئيس قد تجاوزها فعلا ، وتخطاها إلى كرامة النيابة ممثلة فى النائب ، وكان فى وسعه أن يعهد إلى طائفة من الشيوخ أنفسهم باخراج الشيخ داخل نطاق البوليس المضروب حوله ، ليذهبوا به إلى خارج القاعة ، وليعملوا على تهدئته ، فيكون النص قد طبق والكرامة قد صينت .

* * *

ولوحظ على بعض الرؤساء أن الهدف الذى يتجهون اليه إثر افتتاح الجلسة هو التخلص منها فى أقصر وقت ممكن ، ما دامت الأعمال الواردة فى جدولها ، لا تتضمن استجواباً يستدعى أخذاً ورداً بين الأحزاب ، ناسين أن هذه الطريقة التى تطوى مشروعات القوانين طياً ، وتثب بها إلى أخذ الموافقة عليها ، قبل أن يتنور الشيوخ فيها ، إنما هى إخلال أكيد بسلطة التشريع ، التى لاتقل أهمية عن سلطة الرقابة التى تعتبر الاستجوابات مظهراً من مظاهرها . . حتى لقد حدث أكثر من مرة أن أخطر مشروعات القوانين التى تتعلق بفن الملاحة ، أو بدقائق الصناعة ، أو بالعلامات التجارية ، أن كان بعض الرؤساء يدربون السكرتارين الموظفين على تلاوة موادها بطريقة غريبة ، فيبدأ السكرتير الموظف بتلاوة عبارة من المادة السابعة ، ثم يثب منها إلى عبارة فى المادة الخامسة عشرة ، ثم يصدق على المشروع المؤلف من تسعين مادة فنية فى دقائق معدودة . فاذا اعترض أحد الشيوخ على هذه الطريقة قيل له : « صدق المجلس » ! ! !

***

وقد عرف بعض الرؤساء بالميل إلى روح الفكاهة ، وهو روح ينعش الجو أحياناً ويدرأ الملل أحايين ، على أن هذا الروح كان يجنح فى بعض المواقف الى فتائج تفسح للنقد مكاناً ، وقد أشرنا إلى هذه النتائج — أكثر من مرة وفى أكثر من مناسبة — حين كنا نصف لقراء البلاغ الجلسات التى يسيطر عليها هذا الروح .. كان الرئيس يميل إلى أخذ الموافقة على أمر من الامور ، ويلاحظ أن جمهرة الشيوخ الباقين فى القاعة هم ممن جاوزوا السبعين ، وفترت هممهم عن القيام والقعود كلما طلب إليهم قيام وقعود ، فيطرح الرئيس الرأى الذى لا يميل إليه ، أو الذى يستتبع أخذاً ورداً ، طالباً إلى مؤيديه « أن يتفضلوا بالوقوف » فيتثاءب الكثيرون ويظلون جلوساً ، فلا يصيب الرأى المطروح غير موافقة القليلين من ذوى النشاط ، فاذا نحن عدنا إلى نص اللائحة ، فالرئيس لم يخطىء ، أما إذا عدنا إلى الروح ... فروح

الفكاهة قد طغى من غير شك على روح النصوص . . وانتصر فى جو من المرح ذلك الرأى الذى مال إليه الرئيس .

وكفى الرياسة منا هذا القدر . . .

الأعضاء

والقراء من غير شك لا يطمعون فى حديث مسهب عن الأعضاء ، فى هذا المكان من الكتاب ، لأن الحديث عنهم سيجيء فى الباب الثالث مفصلا ، وأول ما أحب أن ألفت اليه أنظار الأعضاء كجماعة لا كافراد — لا يجاوز الملاحظة التى وردت ضمناً ونحن نتحدث عن الرياسة من حيث عدم التفريق بين ما هو حزبى وغير حزبى .. وقد ضرب أحد وكيلى مجلس الشيوخ مثلا طيباً لهذا التفريق من أيام ، حين عرضت الحكومة الوفدية مشروع قانون بشأن رئيس محكمة مصر الابتدائية الأهلية فكان من معارضيها هذا الوكيل الوفدى

***

وألاحظ عليهم أيضاً — شيوخا ونواباً — أن من بينهم من لا تفوتهم جلسة من الجلسات فى القاعة أو فى اللجان إلا عند الضرورة القصوى ، وكان لرئيس الشيوخ السابق تقليد حميد ، فى تنويهه عند ختام كل دورة بجهود هؤلاء ، وذكر عدد جلسات اللجان التى لم يتخلفوا عنها (وقد جاوزت نسبة حضور أحد الشيوخ ٩٥ ٪) وعندى أن من الخير أن يوزع على الصحف فى نهاية كل دورة ذلك الإحصاء الذى يبين عدد الجلسات التى حضرها كل عضو فى كل لجنة ، وأن تكلف الصحف بنشر هذا الإحصاء ، ليعرف الناخبون جهود ممثليهم ، فى ذلك البرلمان الداخلى الصامت ، الذى يغذى قاعة الجلسة بالوقود اللازم لإدارة آلاتها ، وحتى لا يخدعهم ضجيج هذه الآلات فى القاعة ، عن جهود « الجنود المجهولين » فى داخل اللجان ، ويلحق بهذه الملاحظة عناية بعض الشيوخ بالمواظبة على

حضور كل جلسة يعرفون أن حزبهم يتطلب « أصواتهم » فيها ، وتخلفهم عن الجلسات الأخَر التى لاتحتاج الأحزاب فيها إلى حشد الأنصار .

الوزراء والنواب

ويحسن أن نقرن الوزراء بالنواب فى هذا الحديث ، فإن أهم ملحوظات لنا على الروح الوزارى فيما يتصل بالروح الديموقراطى ، إنما تقوم على اشتراك الوزير والنائب فيها ، أو فيما نبديه منها ، فى هذا الفصل المسهب تبعاً لخطورة موضوعه .

***

والقراء يعرفون أن مصر فى ماضيها القريب والبعيد ، قد عانت الشىء الكثير من مختلف ألوان الحكم المطلق ، وأن جميع الدول التى احتلتها أو حكمتها أو بسطت السيادة أو الحماية عليها ، إنما اتخذت من أبناء هذا الوطن صنائع لها ، وأقامت منهم حكاماً عليها ، فاستبدوا بالأمر فيها ، ثم تركوا البلاد بعدهم وفيها فقر وذعر ، وتركوا مقاييس الأخلاق وفيها اختلال ، يبدو مرة فى صورة الإعجاب بالقوى ، ويبدو أخرى فى صورة خوف من القوة .

ويبدو أن تلك الأجيال المتعاقبة ، قد تركت فينا شعوراً بالبعد عن الحاكم رهبة منه ، أو بالتقرب إليه تملقاً له ، مادام سلطان الحكم فى يده ، وشعوراً بالشماتة فيه متى زال هذا السلطان عنه ، ويبدو أيضاً أن ذلك الأثر السيىء قد لحق بالحكام أنفسهم فجعلهم — وهم فى كراسى الحكم - أنصاف آلهة ، حتى إذا زال السلطان عنهم ، ارتدوا أناسيَّ أقل قدراً مما كانوا لو أنهم لم يحكموا . . .

ويبدو كذلك أن ذلك الماضى المظلم الطويل ، قد تغلغل بميراثه الثقيل ، فى نفوس أبناء الجيل ، فلم تستطع الثورة « الزغلولية » نفسها أن تقضى عليه قضاء تاماً ، وإن كانت قد ارتفعت بمستوى الكرامة الشخصية ، وبمستوى الكرامة الوطنية . . . ويبدو أخيراً أن بقية من ذلك الروح لايزال يسيطر على الجمهرة من

أبناء الجيل القديم ولايزال يتجلى فى كل انقلاب سياسى أو تغيير وزارى .

هذه هى الملحوظة العامة أثبتها لأثب منها إلى ملحوظة خاصة بالشيوخ والنواب وعلاقتهم بالوزراء .

***

لاحظت أن الشيخ أو النائب — وأستثنى قلة أجلها — إذا ماعُيّن وزيراً وانتقل مكانه بهذا التعيين ، من كرسى فى صفوف الشيوخ والنواب ، إلى آخر فى صفوف الوزراء ، تخذ لنفسه وجها غير الذى نعرفه ، وتخذ هـذا الوجه قسمات وسمات غير التى عهدناها فيه ، ومشى (بمعاليه) فى مرح واختيال لايحسبان للرجعة حسابا ، واصطنع لصاحبه إيماءات تنسيه أنه فى مكانه الوزارى من هذا الحكم الدستورى ، إنما هو خادم لا حاكم ، ومقلد لا مخلد ، ومسئول بعد أن كان سائلا .

وهذا الميراث الذى خلقته الأجيال فى نفس الحاكم ، وتسلل من ظلامها إلى صدره حاملا إليه « نفخ القرب » وإلى أذنيه حاملا إليها « قرع الطبول » هو بعينه الذى تسلل من خلال ذلك الماضى إلى الشيخ أو النائب ، فحمله على أن يفسح الطريق للوزير الجديد (على صورة تعيد إلى الذهن « مجلس شورى النواب » فى عهد إسماعيل) وحمله أيضاً على أن يرد على الإيماءة الوزارية بانحناءة بادية ، لا تتفق مع المعاملة التى كان يعامل بها هذا الوزير ، قبل أن يقلد منصبه بساعات .

هذا الوضع الغريب يحدونا إلى لفت الشيوخ والنواب والوزراء أيضاً إلى أن الديموقراطية لاتعرف شيئا من هذا الروح ، وإلى أن الحياة النيابية إنما تعرف حكم الشعب وحده .. أناب عنه شيوخاً ونوابا ، فاختار حزب الأغلبية أفراداً منهم يديرون دفة الحكم كوكلاء ، لا يكفل لهم البقاء ، غير ثقة هؤلاء النواب ،

فاذا فرضنا جدلا أن ثمة محلا للرهبة ، فالمنطق الدستورى يقضى على الوزير بأن يرهب النائب ، ولا يقضى على النائب بأن يرهب الوزير .

***

وقد تكون زلفى النواب للوزراء راجعة فى بعض أسبابها إلى رغبة النائب فى توثيق صلته بالوزير ، حتى إذا قصده فى رغبة له استجيب إلى رغبته . . وليس أخطر على الروح الدستورى ، وعلى النظام البرلمانى ، من أن تدفع الرغبات الشخصية بنائب يملك سلطة الاتهام وسلطة الرقابة ، إلى الاستهانة فى سبيل الصالح الشخصى ، بسلطات عهدت بها الأمة إليه ليحرص عليها ... بل قل إن الوساطات إذا جاوزت حدود المطالبة بالإنصاف ، إلى تمييز فريق من أبناء الأمة على فريق ، فقد انهارت أحكام المادة الثالثة من الدستور التى تنص على أن المصريين لدى القانون سواء ، وعلى أنهم متساوون فى التمتع بالحقوق وفى القيام بالواجبات .

ويؤسفنى أن بعض النواب والشيوخ قد جاوزوا — ولا يزالون يجاوزون — حدود المطالبة بالإنصاف ، إلى حدود هذا التفريق ، من يوم قامت الحياة النيابية إلى يومنا هذا ، حتى لقد شكا بعض الوزراء الحاليين هذه الظاهرة إلى رئيسهم فجمع الرئيس هيئته البرلمانية وحمل على هذه الظاهرة حملة صادقة .

بل أذكر أن وزيرا ولى الوزارة حينا ، واتخذ العدل ميزانا ، فأغضب نواب حزبه ، وشيع يوم بارح كرسيه بابتسامات الرضا من أولئك الغاضبين .

صحيح أن النظام البرلمانى يسبب للنائب كثيراً من المتاعب ، لأن له ناخبين يطالبونه بالكثير من الخدمات ، ولأنه ارتبط بوعود مع هذا وذاك فى أيام الانتخابات ، ولكنى أعتقد أن النواب لو اتفقوا فيما بينهم أو فى هيئاتهم البرلمانية ، على أن يستبدلوا بهذه الخدمات الفردية ، التى وعدوا بها الناخبين ، إصلاحات عامة فى جميع الأقاليم ، تنتهى أخيرا إلى رفاهية جميع المواطنين ، وتشعرهم حقا بأن راية المساواة تخفق وضاءة فوق الجميع ، لرضى الناخبون عن حياتهم الجديدة ،

بل لأقاموا أنفسهم على الزمان حماة لهذه المساواة بعد أن يتذوقوا حلو ثمارها .

المتكلمون والصامتون

ويسوقنا ذكر الروح البيروقراطى إلى ملحوظة أخرى على الشيوخ الصامتين الذين يظلون حفاظا على « فضيلة !!! الصمت » فيهم من بداية الدورة إلى نهايتها .

ويحسن فى هذا المقام أن أتحدث عن الصامتين كطوائف . تاركا تحديد أشخاصهم إلى الفصول التحليلية فى (الباب الثالث) .

ويعرف كل متتبع نشاط مجلسينا ، أن المتكلمين الذين أشهدوا المنبرين على جولاتهم ، قلة تعد على أصابع اليدين فى كل مجلس ، وجمهرتهم من جماعة المحامين الذين يحترفون صناعة الكلام ، فما علة صمت المئات من الشيوخ والنواب ؟

ليس من الإنصاف فى شىء أن نرمى الصامتين بضعف فى الوطنية ، أو فى الكفاية الخطابية ، إنما الإنصاف أن نعرض لطوائفهم ، ونرد ألوان الصمت إلى أصولها فيهم ، ولا أحسبنى أجاوز الحق إذا قدمت لك القائمة التالية :

١ — صامتون لانهم لايحسنون صناعة البيان ، ولكنهم يخدمون البرلمان داخل اللجان .

٢ — صامتون لأنهم يحسبون فى الصمت وقارا يحفظ عليهم أقدارهم .

٣ — صامتون لأنهم يخشون إذا هم عارضوا ، أن تعطل لهم الحكومة صوالح لهم فيها ، أو يلاقون اضطهاداً منها .

٤ — صامتون لأنهم غير أكفاء للكلام ولا للجان ، وإن كانوا أكفاء للحصول على أصوات الناخبين فى دوائرهم !!!

هذه هى طوائفهم التى خلص لى تحديدها على الزمن .

والأصل فى النيابة أن يؤدى صاحبها لبلاده خدمات عامة فى الدائرة التى يحسنها ، فيكافأ على هذه الخدمات مكافأة مالية لاتدخل فى باب المرتبات

ولا الأجور ، تساميا بمستوى النيابة عن مستوى الوظيفة ، ويكافأ أيضاً بالحصانة البرلمانية تحوطه بسياج من الضمانات تكفل له إبداء رأيه دائما .

وليس فى الطوائف التى أشرنا إليها من لايحسن خدمة من الخدمات يقدمها للوطن والتاج ، إلا طائفة غير الأكفاء ممن فرضتهم إرادة الناخب على الحياة البرلمانية ، فوجب عليها أن تضطلع بهذا العبء راضية ، وأن تعتبره ضريبة زكاة عن المحسنين الكثيرين ، تؤديها لنفسها بوصفها نظاماً للحكم لابد له من عيوب ، وكفاه فخاراً أن عيوبه تعد .

الطائفة الأولى : ونحن نعذر من غير شك أولئك الذين لا يحسنون الكلام ، ونذكر لهم بالعرفان ، أنهم عوضونا عن هذا النقص فى القاعة ، بالنتاج القيم فى اللجان حيث تدرس الآراء وتمحص التشريعات ، ولكن لنا بعض الرأى نبديه برغم قيام العذر الذى ألمعنا إليه . فليس لزاما على النائب لكى يبدى رأيه فى القاعة ، أن يكون جهورى الصوت ، أو قوى الأداء ، أو جزل العبارة ، أو سليم اللغة ، وفى وسع النائب الذى لا يلتزم الصمت إلا خشية الخطأ أو خيفة النقد . أن يقف فى مكانه إن كان قوى الصوت ، ويتحدث إلى زملائه ، كما يتحدث إلى أصدقائه وأسرته ، فى القهوة وفى البيت ، بلغة دارجة مستحبة ، وفى وسعه أيضاً أن يستعين بمكبر الصوت إن كان خافته ، للاعراب بنفس الطريقة عن الرأى الذى يعن له ، ويا طالما أثبت الواقع أن اللغة الدارجة عند بعض النواب ، أخف وقعاً من الفصحى عند من حرموا نعمة الظرف وخفة الروح .

الطائفة الثانية : أما «السادة» الذين يحسبون فى الصمت وقاراً يحفظ أقداراً ، فأنهم فى ميزانى يفكرون بعقلية الحكم «البيروقراطى» ويحيون عهود المماليك والأتراك فى هذا العهد الديمقراطى ، ويخلون بهذا الحسبان منهم بأبسط مبادىء المساواة التى قام عليها دستورنا ، وليس بمفهوم مطلقا أن يتكلم أحدهم وهو رئيس للوزارة أو وهو عضو فيها ، وباللهجة الشامخة التى سبق أن أشرنا إليها ، فاذا عاد إلى

مقاعد النواب وترك مقاعد الوزراء ، رأى أنه أصبح من طينة وزارية ، لاتبيح له أن ينزل إلى مستوى النقاش البرلمانى ، فجاء من بيته صامتا ، وبارح سيارته إلى باب البرلمان صامتا ، ودخل الى القاعة صامتا ، وخرج منها صامتا — ليعود إلى بيته كما جاء منه ، مثل هذا الرجل الذى لم يتكلم وهو قادر على الكلام ، والذى استمع إلى معركة الآراء تستثير الجماد ولم يثر ، وتوجب على كل ذى رأى أن يجهر به فلم يجهر ، لا يمكن أن تكون الحياة البرلمانية قد استأجرته لتزدان بوجوده أو بكبريائه ، ولتدفع له ثمنا لصمته المكافأة المالية والحصانة البرلمانية ! بل ذهب بعضهم فى التعالى — أو فيما لست أدريه — إلى حد الخروج من القاعة عند الاقتراع على أمر ذى بال تختلف عليه الأحزاب ، حتى يظل حضرته بمنجاة من كل خدش أو عتب ، وعندى أن هذا الحرص المقلوب على ما يخاله « كرامة » كان أولى بصاحبه أن يعتذر عن عدم قبوله عضوية الشيوخ إن كان شيخا معينا ، وألا يخوض غمار الانتخاب إن كان منتخبا ، لأن الناخب حين انتخبه ، لم يجل بخاطره أن الناطق بلسانه لن ينطق ، فالنائب الصامت يخل بواجبه نحو النيابة وبأمانة فى عنقه نحو الناخب ، وبكرامة قلب معناها نحو شخصه ، وإنى لعاجز عن تصور الحياة النيابية فى مصر لو قدر عليها — لا قدر الله — أن تجىء الكثرة يوما من هذا الطراز الذى يؤلف فى بلد ديمقراطى ، طبقة من الذوات لا تصلح للحياة فى غير عهود الإقطاع .

الطائفة الثالثة : أما أولئك الذين يخشون إذا هم عارضوا الحكومة القائمة أن تضطهدهم ، أوتعطل صوالحهم ، فكان الخيرلهم ، وقد آثروا أشخاصهم على بلادهم أن ينضموا جهارا نهارا إلى كل حزب يحكم ! ؟ وليس هذا بغريب فقد شهدت مصر ألوانا من هذا الطراز يوم كان النضال الحزبى قائما على قدم وساق ، وعهدى أن أفراد الطائفة الثانية إن كانوا قد توهموا فى صمتهم — جهلا أو ضلة — وقاراً لهم ، فان أفراد الطائفة الثالثة ، انما يخلون بواجباتهم عامدين ، بل يبيعون

صوالح بلادهم بصمت يقصدون منه نفعا لأشخاصهم . . وكفى هذا القدر لهم « فما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط » — كما قال المغفور له مصطفى كامل باشا — فما بالك بمن عاش لنفسه على حساب أمته ؟ ! !

الطائفة الرابعة : أما أولئك الذين لا كفاية عندهم للكلام أو للجان . . فلا عتب لنا عليهم — والعتب منا على ناخبيهم — أو إن شئت فعتب منا عليهم ، لأنهم رشحوا أنفسهم فاقحموها على مجال غير مجالهم ، وأساءوا إلى ذممهم ، بأن استحلوا مكافأة لا حق لهم فيها ، وحصانة لم توجد إلا لتحمى ذا الرأى يبديه للصالح العام غير مبال ، فضلا عن شغلهم مقاعد كان من الخير أن تشغل بمن هم أهل لها . . .

***

ولوحظ أخيراً — على النواب والوزراء معا — أنهم لا يعنون العناية الكافية بشكايات الناخبين فى أثناء قيام البرلمان ، فياطالما حمل البريد إلى المجلسين صرخات المظلومين من المواطنين ، فمرت عرائضهم راكضة بلجنة العرائض ، وياطالما أُشِّر عليها — بغير قراءة كل مافيها — بتأشيرة الإحالة إلى الوزارة المختصة ، فعادت هذه الأكداس التى تحمل الفجائع والمآسى إلى جدول الأعمال ، مستغرقة منه سطراً واحداً تجتازه إلى سلات المهملات المعدة لها فى مختلف الوزارات ، ولعل من الخير أن أضرب لوزرائنا ونوابنا مثلا من عناية الأمم الديموقراطية بآراء الأفراد فيها — أن مستر « تشرشل » تلقى فى خلال هذه الحرب خطابا من مواطن عادى غاضب على تصرفات الوزير قال له فيه : « أنت مجرم . وأنت جبان وأنت كذاب . . » وما كان أيسر لهذا الزعيم الذى أولته الإمبراطورية ثقتها كاملة ، وفوضه مجلس العموم تفويضاً لم يسمع بمثله فى تاريخ هذه الإمبراطورية ، أن يمزق هذا الخطاب — ولا نقول بلغة بعض حكامنا أن يكلف قسما من أقسام

البوليس بالتحقيق معه أو بالقبض عليه — لكن « تشرشل » رد على صاحب الخطاب بخطاب مماثل قال فيه : « أسفت كثيراً على كتابك ، وهو فى ذاته دليل ناهض على أنك فى حالة نفسية أليمة ، و إذا كنت قد ظلمتنى ظلما فادحا بما ظلمتنى به . فان ذلك لا يحرمك ماأشعر به الآن نحوك من العطف عليك ، والرثاء لحالك ، لانك من غير شك قد تألمت وتعذبت كثيراً » (١)

بهذا الروح الديموقراطى يحكم الوزير الإنجليزى ، فهل كان فى رده يخشى أن يقال له لِمَ لَمْ ترد على هذا المواطن ؟ كلا . . . إنما ردّ مسوقا بالروح الديموقراطى الذى نُشّىء عليه ، والذى يشعر معه أن هذا المواطن بوصفه أصيلا ، من حقه أن يحاسب وكيله ولو جاء الحساب على هذه الصورة النابية ، و بمثل هذا الروح الديموقراطى أيضا ، تعمل أداة الحكم فى انجلترا فى مختلف الوزارات ، وعلى اختلاف درجات الموظفين ، لخدمة هذا المواطن ، أما فى مصر ، فيؤسفنى أن أقرر ، أن الوزير فى وزارته ، لا يرعى هذا الروح الديموقراطى بين موظفيه ، فليس بمعقول أن يرعى هؤلاء الموظفون روحاً لا يرعاه الوزير ، و بسبب فقدان هذا الروح ، ترتفع شكاوى الجمهور من سوء المعاملة التى يلقاها من الموظف المصرى فى وزارته ، وليس لهذا الجمهور من منصف . . لأن الموظفين جميعاً إنما ينتظمهم روح بيروقراطى موروث ، لا يُعنى كل منهم إلا بإرضاء من هو أعلى وظيفة منه ، فاذا وجد أمامه من هو أقل منه نفوذاً ، انتقم للملق الذى يعانيه أمام رئيسه بفرض السيادة على المرءوس ، ومطالبته بأن يرفع له من مظاهر الملق . مثل الذى رفعه هو لرئيسه ، أما الرقابة البرلمانية التى فرضها الدستور على الوزراء وجعلها حقا للنواب .. فقد أريد بها أن تنتقل من الوزير إلى الوكيل ، ومن الوكيل إلى مساعد الوكيل حتى تنتظم الموظفين جميعاً ، فيسود العاملين لخدمة المواطنين روح ديموقراطى

---

(١) هذه الفقرات من ترجمة الأستاذ كامل سليم بك وكان ينوى أن يتخذ منها موضوعا لمحاضرة يلقيها فى الديموقراطية .

ينهض بالأداة الحكومية كلها . . . بيد أن الذى حدث . . أن الوزراء اعتبروا الرقابة البرلمانية عبئاً واجب الأداء برغمهم ، فهم يتحايلون على أن يسايروه شكلا من غير أن يؤمنوا به روحا ، ثم أساءوا فهم ذلك المبدأ الدستورى القائل بفصل السلطات ، فلم يعملوا على تغيير الروح البيروقراطى القديم بين موظفيهم ، لأن هذا المبدأ يحرم على السلطة التشريعية أن تتدخل فى أعمال هؤلاء الموظفين ، وبهذا تنعدم الرقابة البرلمانية على الأداة الحكومية ، ولو أنها غير منعدمة على الوزراء الذين حالوا بهذا الفهم الخاطىء لحقيقة المسئولية الوزارية ، دون إشراف الأمة ممثلا فى نوابها ، على أداة الحكم فيها ممثلة فى موظفيها .

ولهذه العلة ترى التقدم مطرداً فى كل نتاج حكومى يقوم على النظام البرلمانى ، فى ظل راية الرأى الحر الذى يكفله هـــذا النظام لكل مواطن ، سواء أكان موظفاً أم غير موظف ، أما فى مصر ، فتنسخ إرادة الوزير إرادات الموظفين جميعاً ، ويعتبر الموظف نفسه مطالباً — لكى يحتفظ بوظيفته أولكى يحصل على حقه فى الترقية أو فى العلاوة — بارضاء الوزير لا بارضاء ضميره وواجبه ، حتى لقد رأينا فى الوزارة التى تشرف على تربية الجيل موظفين كباراً ، يؤيدون رأى وزير بعينه وسياسة تعليمية بعينها ، ثم لا يترددون إذا ما ولى الأمر وزير آخر ، أن يؤيدوا سياسة له تناقض سياسة سلفه ، وبهذا انعدم أن يكون لموظف رأى حر يبديه فى الإصلاح ، وبهذا أيضاً جمدت الأداة عند ذلك الحد الذى كانت قد وقفت عنده قبل قيام البرلمان ، فكاننا أقمنا بهذا السلوك سداً بين نظامنا البرلمانى وأداتنا الحكومية .

أسلحة العراك

وننتقل الآن إلى أصناف الأسلحة التى زود بها الدستور كل شيخ ونائب إذا أراد أن يجند نفسه للدفاع عن الناخب ، ويخوض فى إيمان وبسالة ميدان

النضال الفكرى ويحارب ، وهذه الأسلحة هى الأسئلة يتوجه بها إلى الوزير ، والاقتراحات يتقدم بها إلى المجلس ليقرها ، والرغبات يبديها ، فتحال إلى الوزارات لترى رأيها فيها ، ولتحقق الممكن منها ، وليس للنائب بعد هذه الأسلحة غير الرأى يدلى به فى القاعة أو فى اللجان ، كلما عرض مشروع بقانون ، أو طرح على البحث فى بداية الدورة خطـــاب العرش ، أو قدمت إلى المجلسين فى نهاية الدورة ميزانية الدولة .

ولست أشك فى توافر أوجه الشبه — على حد تعبير رجال اللغة — بين الجندى فى البرلمان والجندى فى الميدان ، ولا فارق إلا أن أسلحة هذا من صلب وحديد ، وخشب ووقود ، وأسلحة هذا من سؤال واستجواب ، ورغبة واقتراح ، ولسان يحاسب ، أو تقرير يوضع ، أو مذكرة تقدم ، أو بيانات تجمع ، والجنديان فيما عدا هذا الاختلاف فى الأصناف ، فرسا رهان فى الميدان ، متماثلان أو متشابهان ، كلاهما يذود عن حرمة الوطن ، وكلاهما يريد صالح المواطن ، فاذا أراد النائب أن يظفر بما يريد ، فقد وجب عليه مايجب على الجندى من :

(ا) تنظيف أسلحته والمحافظة عليها والتجديد فيها .

(ب) حسن استخدامها فى الأوقات الملائمة تماما .

(ح) الاحتفاظ بقوته المعنوية فى أعلى مستوى ممكن .

(ء) العمل على أن يكون له هدف يتجه إليه ، وحافز يحفظ عليه هذه القوة المعنوية فى مستواها الرفيع المنشود .

***

وقد تكون هذه الأغراض الأربعة مفهومة جيدا فيما يخص الجندى فى الميدان ، وقد تكون غامضة بعض الغموض فيما يخص الشيخ أو النائب .. وأدوات عراكه وتنظيفها والتجديد فيها ، تقتضى منه تجديد قواه المفكرة ، التى تقوم عنده مقام الأجسام عند جنود الميدان .. بالغذاء الصالح لها ، من سعة الاطلاع على مايكتب

ويقال ، وسرعة الاتصال بمـا يجرى فى الخارج والداخل ، ومداومة البحث والدرس فى صالح بلاده وما يعوزها .

***

أما حسن استخدام الأسلحة فواضح كل الوضوح . . وقد يطلق أحدنا غدارة ليصيب بها هدفا . . فيرتد الطلق إليه ويصبح هو نفسه هدفا ، نتيجة لسوء الاستخدام ، كذلك السؤال أو الاستجواب قد يكون فى توجيههما فى غير وقتهما المناسب ضرر بمصر وبسياستها العليا ، ومن هنا قام الخلاف على الأسئلة والاستجوابات ومكانها من اللائحة ، يوم ألف رئيس مجلس النواب السابق لجنة تنظر فى تعديل هذه اللائحة ، فقال بعضهم ، إن من حق الرئيس أن يحول دون توجيه سؤال ضار أو استجواب غير دستورى إلى آخر ماقيل . . وهب دعاة الحرية يحتفظون للنائب بالحق المطلق فى سؤال الوزير واستجوابه ، ويقولون إن المجلس وحده هو الذى يستبعد السؤال أو الاستجواب ، وإن من الخطر على الروح النيابى أن يملك فرد بعينه — ولو كان رئيساً — سلطة الحكم على دستورية استجواب أو عدم دستوريته ، وخطورة سؤال أو عدم خطورته ، لأن الدستور صريح فى كفالة حرية الرأى مطلقة من كل قيد للنائب ، وصريح فى كفالة حقه الدستورى فى المراقبة والمحاسبة ، وليس لأحد أن يحول دون هذا الحق غير المجلس وحده ، لأن البرلمان الذى يملك تعديل الدستور — بالشرائط المنصوص عليها لإجراء هذا التعديل — يملك طبعاً ، الحيلولة دون الجواب على سؤال ، ويملك أيضاً استبعاد ما يشاء من الاستجوابات .

وقد جرى حديث فى هذا الشأن بينى وبين الرئيس الحالى لمجلس النواب ، فقلت له إن من غير حقه أن يحول دون النائب وتوجيه السؤال الذى يريد توجيهه فأيد هذا القول ، ولكنه أضاف إليه أنه هو شخصياً يحاول إقناع السائل بالعدول عن تقديم سؤاله ، عند ما يرى — أى الرئيس — أن السؤال قد لا يوائم فى صيغته

أو فى ظرفه صالح البلاد ، فاذا أصر النائب على وجهة نظره ، فلا مناص من أن يرفع إلى المجلس سؤاله .

وهذا المذهب من الرياسة مذهب سليم وسديد ، وفى وسعك أن تضيفه إلى ميزات الرياسات التى سبق أن تحدثنا عنها ، ولك أن تذكر بهذه الملاءمة أن قوة الشخصية شرط واجب المراعاة عند اختيار الرئيس ، لأن فى وسعه « وديا » أن يجنب بتأثيره الشخصى سفينة الحياة النيابية كثيرا من الصخور .

أما الاحتفاظ بالقوة المعنوية فيرتبط ارتباطا وثيقا بالهدف الذى يتجه إليه النائب ، والحافز الذى يحفزه على هذا الاتجاه .

***

وأنا أخشى أن أذكر كلمة « الهدف » أو إن شئت فسمه « المثل الأعلى » حتى لا تتفتح أمامى آفاق لا نهاية لها ، وتتحول الدفة فى يدى من قيادة سفينة بحثى إلى الشاطى البرلمانى المحدود ، إلى بر التربية الوطنية التى لاتعرف فى ترقيها الوقوف عند الحدود ، فأنا من المؤمنين بأن حيرة هذا البلد راجعة إلى انعدام مثل أعلى يرفعها إليه ويدفعها إلى حيث يلوح لها ، ثم يبتعد عنها ليستحث خطاها على المزيد من التقدم ، فاذا كنا قد عدمنا مثلا أعلى يدعو إليه المواطنين كأفراد وكأمة ؛ فلا أقل من أن يكون للنواب أهداف يتجهون إليها ، فيتنبه الرأى العام عليها ، ويكون التنبه بداية الطريق إلى المثل الأعلى المنشود .

هذه مصر أمامك يا سيدى . . مصر بلادك وبلادى . . ومناط رجائك ومناط رجائى . . طف بدور العيلات فيها . هل تجد أهدافا يوجه إليها الآباء بنيهم وبنيها ؟ طف بمدارسها وطف بمسارحها وطف بالمجتمعات فى مقاهيها ، وبالمكاتب الزاخرة بموظفيها ، هل تسمع إلا لغواً وغثا ؟ وإن أنت سمعت حواراً جاداً . . فهل تتبين منه هدفا ! ؟ أو قصارك أن تسمع الشكايات . وقصاراهم أن يحددوا لك المرض وهو غير مجهول . وأن يشخصوا الداء وكلنا بالداء عليم ؟ !

فما الذى ينقصنا جميعا حتى نقضى على الحيرة الآخذة بنا ؟

ينقصنا الهدف من غير شك .

كان لنا استقلال ضائع فتخذنا استرداده هدفا ، وهببنا تحت قيادة الوفد وسعد نطالب به ، فعلت صيحاتنا وأعجب العالم كله بنهضتنا ، وتسابقنا إلى ميادين الفداء ، نروى بطاح الأرض بأغلى الدماء ، فى سخاء أى سخاء . وهانحن أولاء لانزال كما كنا بأشخاصنا و بكامل قوانا ، بل لعلنا ازددنا تنوراً وفهما ، وازددنا بالدنيا معرفة وعلماً ، وكان المنطق يقضى بأن تزداد الصيحات ارتفاعا ، فلماذا خفتت ؟

خفتت لأن المثل الأعلى الذى كان يدفعنا إلى الكفاح قد توارى ، وتحقق الاستقلال — فى النطاق السياسى — من سنوات ست ، ولم نعد نبحث عن هدف غيره ، فلو أننا أقمنا السياسة على أساس اقتصادى كما قلت فى نقطة سابقة ، لاتسع أمامنا ميدان الاستقلال ، ولرأينا له معانى أُخَرَ غير التى حصرناه فيها ، ولتجدد هدفنا بإصرارنا على تحقيق هذه المعانى .

لو أننا عرفنا أن من معانى الاستقلال ألا يبقى فى أرض مصر الزراعية الجائعة شبر بائر ، وأن من معانى الاستقلال ألا يبقى بين المواطنين مواطن جائع أو جاهل ، وأن من معانى الاستقلال ألا تقوم الجامعة المصرية المعدة للبحوث الحرة على نفس الأساس الذى كانت تقوم عليه مدارسنا العالية ، وألا تظل الأسرة المصرية ضحية للانحلال الذى تعانيه ، وألا تظل الكتلة العاملة واليد الزراعية تنتج كل الخير لمصر ، ثم تحرم كل ماتنتج ، وألا تبقى أرض مصر فى يد الوارثين المعدودين ، والمرابين الجشعين .

لو أننا عرفنا أن من معاني الاستقلال التطهر من كل النقائص الداخلية ، والتحرر من كل الأوزار الخارجية ، ثم أهبنا بالمواطنين على الضوء الجديد أن : « هذا استقلالكم بمعناه الحديث فطالبوا به » لتجدد لنا هدف ولبات لنا مَثَل ..

نعمل فى دائرته ، وينتظم تفكيرنا كله ، ويوجه نتاجنا كله ، فمن لهذا الهدف يحدده ويحييه ؟

له الحياة البرلمانية وله الشيوخ والنواب . . إنه أمانة فى عنقهم ، يجب أن يفكروا فيه وأن يحددوه وأن يتجهوا إليه ، وأن يدخلوه ضمن برامجهم أفراداً وأحزابا ، فإذا هم فعلوا — وإنهم إن شاء الله لفاعلون — اتجهت الأسئلة إلى هذه الأهداف ، ودارت الاستجوابات حول المقصرين فى العمل لها ، وتقدمت الاقتراحات بتحقيق الممكن منها ، وجاءت الرغبات معربة عنها ونسى كل مواطن صالحه الشخصى متى عرف أن هناك صالحا عاما يعود عليه وعلى الجميع بالخير الذى يرجوه ، وتوارت النزعات النفعية التى نشكو منها .

خذ مثلا .. جدولا من جداول أعمال الجلسات فى مجلس الشيوخ والنواب ، تجده حافلا بأربعين سؤالا وبخمسين اقتراحا .. فتخال نواب مصر قد سجلوا فى النشاط البرلمانى رقما قياسيا لا يرنو إليه مجلس العموم نفسه . . فاذا طالعت هذه الاقتراحات والأسئلة ، أحزنتك العاصفة تثور فى فنجان ، والجهود تذهب إلى الشيطان ، ورأيت الكثرة منها تحمل طابع التفاهة ، أو هى أقرب إلى اختصاصات المجالس القروية والمجالس البلدية ، فإن هى تسامت فأقرب إلى اختصاص البرلمانات الإقليمية التى قامت للإصلاح المحلى ، وأعنى بها مجالس المديريات ، فهل فكر أولئك السائلون أو المقترحون فى أنهم بهذا الفيض الزاخر من الأسئلة التافهة أو الاقتراحات المحلية إنما يشغلون مجلس أمة ، ويربكون لجانه ، ويعطلون فى الوقت نفسه أعمال المجالس المحلية المبثوثه فى الأقاليم ، والقادرة على فهم المطالب الإقليمية ؟

المسألة أن بعضا من الشيوخ والنواب ، غير قادرين على مزاولة الاستجوابات التى تتطلب بحوثا ودروسا ، وبلاغة فى الخطابة ، وامتلاكا لزمام المنبر ، ولكنهم يريدون أن يسمعوا الناخبين أصواتهم ، وأن تنشر الصحف أنباءهم ، وأن يعودوا إلى أقاليمهم قائلين لأهليهم ، إنهم نواب عاملون وإنهم يخدمون أبناء الإقليم ،

وأيسر طريق لهذا تقديم سؤال . . كل الجهد فيه أن يكتب . . وقد يرفض فى لجنة الاقتراحات شكلا ، وقد يحال إلى اللجنة المختصة فتحفظه حفظا ، ولكن المقترح لا يعنيه أكثر من أن يجىء اقتراحه أو سؤاله فى الجدول مطبوعا ، وفى الجلسة مذكورا ، وفى الصحف منشوراً .

ولعلك تسمع المعجب المطرب من أسئلة تقدم بها إلى السكرتارية نواب ، واقتنعوا بعد جهد بغرابتها فتنازلوا عنها ، وحسبك أن تكون صديقاً للقائمين بالأمر فى المجلسين ، ليطلعوك على هذه الألوان . . فتدهش ! !

بين يدى الآن جدول يعتبر بالنسبة لجداول أخرى « جدولا سامياً » وفيه ثلاثون اقتراحا ، منها اقتراح بعمل وصلة تصل قرية أبى عوالى بمركز أشمون بالطريق الزراعى ، ومنها — خذ بالك . . أرجوك — اقتراح بانشاء أمكنة خاصة بجوار مساجد لوضع أحذية المصلين بها ! ! !

وواضح أن هذا الاقتراح « وجيه ! ! ! » لكن . . على أن يتقدم به أحد المصلين إلى ملاحظ المسجد ، بل إلى خادمه فيحققه له ، فماذا أنت قائل وقد تقدم به نائب فشغل به لجانا ، وأمل أن يعود من اللجان إلى القاعة ليجمع عليه نواب أمة ، وليلزموا وزيراً مسئولا عن السياسة العليا للدولة وفى أوقات الحرب . . باصدار قرار سريع للبحث عن « تخشيبه » تصون أحذية المصلين ! ! !

ونترقى الآن فى أمثلة أخرى لأسئلة أرقى ، ومن الجدول بعينه ، لنرى نائبا يطلب ردم مستنقع ببلدة كفر الباجور مركز منوف ونائبا ثانيا يطلب ردم بركة فى ناحية الجرابيع مركز بنى مزار . . وفى مختلف الجلسات تجد كثيرا من الاقتراحات تدور على ردم المستنقعات فى كفور وقرى تستطيع مجالسها القروية أن تؤدى المهمة ، وتسأل نفسك كما سألت نفسى : « أفما كان من الخير أن تسأل الوزارة أو تستجوب عن سياسة ردم البرك والمستنقعات فى مختلف جهات القطر فنعرف رأيها ويبدى النواب آراءهم ويريحون ويستريحون » بدلا من أن يشغلوا المجلس

النيابى فى كل جلسة بقرية من القرى . . لو أنك سألت أهلها أنفسهم .. لعلمت أن ردم البركة لا يعنيهم ، قدر عنايتهم بالخبز الذى يغذيهم ، والصحة التى تعوزهم ، والكساء الذى ينقصهم ؟ ! !

هذه أمثلة لا أذكر أسماء أصحابها ، فأنا أقصد إلى تقويم المعوج من حياتنا البرلمانية ، لا إلى التنديد بالأشخاص . . وحسبك أن تعرف — من قبيل الإثبات بالمستندات — أنى أنقل الأسئلة من جدول أعمال الجلسة الحادية عشرة لمجلس النواب فى هذه الدورة و بتاريخ أول يونيه سنة ١٩٤٢ ، ولا أكتمك أن رئيس النواب الحالى قد تنبه على هذه الحقيقة فأصبح يعالجها بقوله (الاقتراحات من رقم ١ إلى رقم ٣٠ تحال على لجنة العرائض) وتعاون ممثلو الصحف معه على أن يفوتوا على طلاب الشهرة الرخيصة مقاصدهم ، فأهملوا الإشارة إلى هذا الصنف من المقترحات .

ومما يدل على أن التعميم — لا التخصيص — هو الأليق بالنواب ، أن هذا الجدول نفسه يتضمن اقتراحاً طيباً ، قد يكون صاحبه متأثراً بمشهد معين فى مكان بعينه وقعت عليه عيناه ، ولكن لجوءه ، إلى طابع التعميم فى الإصلاح ، نهض بالاقتراح من المستوى الرخيص إلى المستوى الرفيع ، حين اقترح « العدول عن تخصيص الدور الأعلى من المستشفيات القروية للأمراض المعدية » .

***

أما الاستجوابات فأمرها خطير غير هين ، لأنها سلطة اتهام وحساب يملكها النائب ، وهى سلطة مرعية يتقيها الوزراء ، ويساهم فيها الخطباء بالخطب وبالآراء ، ومستواها فوق مستوى السؤال ، بل إن السؤال يعتبر فى الأغلب الأعم تمهيداً لها ، لأن الأصل فى السؤال أن يكون استيضاحا لأمر مبهم ، أوطلبا لبيانات بعينها ، فاذا لم يقنع الجواب السائل ، أو لم يقنع بالإيضاحات التى قدمت إليه ، عمد إلى الاستجواب معتمداً على البيانات التى حصل عليها .

وقد لوحظ أن النواب يسرفون أحيانا فى تقديم الاستجوابات ، ويركبون بها أعمال السلطة التنفيذية ، بل حدث فى إحدى الدورات أن انهالت على إحدى الوزارات أكداس من الاستجوابات ، جعلت مهمة الوزراء قاصرة ، فى مدى شهور متواصلة ، على التأهب للدفاع بجمع البيانات والأدلة ، ومن عجب أن معظم هذه الاستجوابات — ولا أقول « كلها » خشية الخطأ — انتهت إلى الانتقال إلى جدول الأعمال ، وهذا الانتقال لغة برلمانية فى اكتفاء النواب بما قيل فى الجلسة ، وهذا الاكتفاء بمثابة البراءة للمتهم ...

أريد أن أقول إن الاستجواب فى المجالس النيابية ، سلاح لا ينبغى أن يلجأ اليه إلا عند الضرورة القصوى ، ولا أريد أن أذكر بالتفصيل استجوابا لأحد الشيوخ ظل يرجأ من جلسة إلى جلسة ، ومن دورة إلى دورة ، وأحسبه إلى اليوم لا يزال قائما ، فهل تدرى ما هو وما علة إرجائه ؟ هو استجواب عن خفراء فى بعض العزب استغنى عنهم ، وفيه يطالب صاحبه ببيانات يرهق جمعها الوزراء المشتغلين بجمع بيانات أكثر أهمية لاستجوابات أكثر خطورة ، فاذا لم يكن من حقهم أن يسرفوا فى تأجيل هذا الاستجواب ، فان الشيوخ كانوا يستجيبون عن طيب خاطر لطلب التأجيل ، مراعين نفس الاعتبارات التى أشرنا إليها .

ولوحظ أيضاً أن بعض الوزارات تستخدم الكثرة العددية لأنصارها ، استخداما يمكن لها من تفادى الاستجواب ، فتلجأ أحيانا إلى الدفع بعدم دستوريته ، وتقضى لها الكثرة بصحة هذا الدفع ، ومع أن الكثرة تملك هذا الحق من غير شك ، فان التقاليد تأباه . . لأن الحكمة فى وجود لجنة تسمى « لجنة الشئون الدستورية » هو البحث فى كل ريبة تعلق بكل استجواب من حيث الدستورية أو عدمها ، واللجنة بحوثها الهادىء وبأعضائها المتخصصين ، وبالبيانات التى تطلبها من الوزراء المختصين ويقدمونها لها ، وبالاستماع إلى حجج كل فريق ، تستطيع أن تصدر حكما قائما على دراسة عميقة وأسباب مرجحة ، أما المجلس كهيئة تضم مختلف

العقليات، فعسير أن تحكّم مزارعا من المزارعين فى شأن دستورى ، من غير أن تنوره اللجنة المختصة ، وهو حر بعد التنور فى إبداء الرأى الذى يريده ، وهذه الملاحظة تكاد تكون عامة فى كل مجلس من مجالسنا .

وأرى لزاماً علىّ أن أنتهز مناسبة اللجان والمتخصصين فيها ، لأشير إلى نقص لاحظناه على السنين ، فى اختيار الأعضاء لهذه اللجان ، خذ مثلا شيخا لا علاقة له بشئون المال والاقتصاد يصر على وجوده فى لجنة المالية والجمارك . . لا لشىء إلا لأن هذه اللجنة هى أهم اللجان عملا وأكثرها نتاجا ، والعضو فيها مشهور مذكور ، وقد يجامَل هذا العضو فيقر المجلس انتخابه ، فيشغل بهذا الإقرار مكانا كان أولى أن يشغله رجل يحسن العمل فيه .

كذلك لوحظ أن عضواً يختار لثلاث لجان ، وآخر يختار للجنة واحدة قل أن تجتمع ، فاذا كانت الكفايات تتفاوت ، فالخير أن يراعى إلى جانبها فراغ كل عضو ومدى استعداده للقيام بمهمته ، لأن عدم هذه المراعاة قد سبب كثيراً من البطء ، بحيث ظلت مشروعات قوانين مهمة ، قائمة فى هذه اللجان وقتا طويلا .

وتذكرنى مسألة اللجان أيضاً بالعبء الذى يلقيه بعضها على السكرتارين الموظفين فيها ، تاركين لهم وضع التقارير التى يفرض أن اللجنة نفسها هى التى تضعها ، وتنتخب مقرراً لها يدافع عن رأى الأغلبية فيها .

***

قد يقول نائب : « هأنتذا قد أخذت على أحدنا اقتراحا له رأيته تافها ورآه هو غير تافه . . . فهل لك أن تدلنا أنت على ألوان الاقتراحات أو الأسئلة أو الاستجوابات التى ترى فيها نتاجا للحياة البرلمانية أو خدمة للصالح العام ؟ »

لو أنى افترضت مثل هذا السؤال يوجه إلى ، لكان الجواب عليه فرصة سعيدة ، يتيحها السائل أو يتيحها الفرض ، لأضع أيدى النواب على ناحية لم يعن بها أحد ، برغم أنها المظهر الأول للديموقراطية ، والروح الذى لا قائمة تقوم لحياة نيابية

سليمة إلا إذا لازمها خطوة خطوة . . وأعنى به التعاون . . فكم اقتراحا لبث روح التعاون فى البلاد ، تقدم به الشيوخ والنواب ، ودع عنك الوزراء . ؟ بل كم عدد الابتسامات التى علت الشفاه ، والأيدى التى دعكت العيون ، والأفواه التى أرسلت التثاؤب ، عندما كان يقف أحد المحامين من الشيوخ مرة أو مرتين فى العام ، عند خطاب العرش ، وعند نظر الميزانية ، ليذكر « التعاون » ؟

« التعاون » فى مجلسينا كاد يغدو أفكوهة ، فاذا عرفت أن الديموقراطية لا عنى أولا وقبل كل شىء غير بث الإيمان فى صدور المواطنين بوجوب التعاون بينهم .. هالك أن يبدو هذا التعاون فى مظهر (الحدوتة) التى أكثروا من سردها بغير عمل ، حتى أصيبت بالشلل أو بالملل .

وزير واحد فى وزارة واحدة ، هو الذى هب هبة صادقة ، لينشر فى البلاد بسلطان الحاكم ودهاء المجرب روح التعاون ، لم تشأ الأقدار أن تمكن له من تحقيق أمنيته فنام مشروعه ونام الشيوخ والنواب عنه من ذلك اليوم . . وأعنى بالوزير المغفور له فتح الله بركات باشا .

قرأت مرة لمدير التعاون بحثاً يقول فيه ، إن الناس اعتادوا أن يفهموا الديموقراطية على وضعها السياسى ، ونسوا أن هذا الوضع لا بقاء له بغير التعاون ، الذى يعتبر فى عالم الاقتصاد والاجتماع ، صنو النظام البرلمانى فى ميدان السياسة ، وقد بدأ يساير النظام البرلمانى فى أوروبا منذ وجد خطوة فخطوة ، لأن الروح الذى يسيطر على الاثنين واحد والغاية منهما واحدة ، روح الشورى والخضوع للغالبية ، وتغليب الصالح العام على كل اعتبار ، وكما أن الحكم البرلمانى لا يقبل الاستبداد والتعسف والانفراد بالحكم ، كذلك نظام التعاون لا يرضى سيطرة رأس المال واستغلال الممولين للعاملين .

قرأت هذا الرأى ، فهززت رأسى أسفا على ما أصاب أدراكنا البرلمانى من جمود ، فالمسألة من الوضوح بحيث لا تحتمل اختلافا عليها ، ومصر أشد بلاد الله

حاجة إلى التعاون بين أبنائها ، لأن العامل فيها أشد عمال العالم حاجة إلى نظام يقاوم سيطرة رأس المال الذى اعتصر المسكين بغير مقابل ، فما هى جهود شيوخنا ونوابنا فى هذه السبيل ؟

أخشى إذا أنا ماشيت الرجل الطيب ، وذكرت النواب بما ذكر به القراء من قول الله (وتعاونوا على البر والتقوى) ومن قول نبيه (يد الله مع الجماعة) أن يلقى قارئى الشيخ أو قارئى النائب ، كتابى من يده ، ويقول لأقرب الناس إليه (إن حضرة المؤلف يريد أن يشتغل واعظا لنا فى آخر الزمن) وأقنع بما سقت من تذكير لأولئك الذين ملأوا دنيا البرلمان بعجيج الاقتراحات ، حتى طالبوا الدولة بحماية حذاء المصلى ، ولم يطالبوها بحماية الأمة من التفكك الذى لا يعرف تعاونا ، ومن الروح الفردى الذى لا يوقر جماعة .

***

وتذكرنى كلمة « العامل » التى جاءت عفوا فى حديثى عن التعاون بالمشكلة العمالية وماصنع لها الشيوخ والنواب . . . جاءهم قانون عقد العمل وقانون النقابات فوقف الرأسماليون فى مجلس النواب الفائت يقاومونه بلباقة ومكر ، ويلبسون للقضاء عليه ، ثوب الغيرة على اليد العاملة ، حتى جردوه من بعض ميزاته ، وارتضى العمال مابقى لهم منه ، وارتقبوا موافقة الشيوخ عليه ، فظل فى اللجان شهورا بعد شهور ، ثم جاء أول قانون فكان يلحق برفرف الجدول ليؤجل ثم يؤجل . . حتى تنتهى الدوره . . وحتى يرسخ — خطأ — فى ذهن العامل الذى يؤلف أغلبية الناخبين فى المدن أن الحياة البرلمانية إنما قامت لتقاومه لا لتأخذ بيده ! !

وهذه الحقائق التى أذكرها ، لم أشعر بها وحدى بل شعر بها الناس جميعا ، حتى أن النائب الناهض الذى قاد زعامة المعارضة فى مجلس النواب السابق ما كاد يلى الأمر فى وزارة الشئون الاجتماعية ، حتى وثب إلى البرلمان ، يسترد منه ما نام فيه من مشروعات قوانين العمل والعمال ، وعقد العمل ، والتأمين الإجبارى ضد الإصابات

وأجرى فيها دما جديداً ، ورفعها إلى مجلس الوزراء ، ولابد أن يكون قد رفعها الآن إلى البرلمان ، ولابد أن يذود عنها ضد المتربصين بها من خصومها[١] ، وعلى قدر ذوده تسجل له النهضة قدر جهده ، فقد نشط الرجل وجاء فى الصحف أنه وضع مشروع قانون بتحديد حد أدنى لأجور العمال الزراعيين والصناعيين ، وآخر للتأمين ضد المرض والشيخوخة ، وثالثاً لتنظيم الجمعيات الخيرية ، ونشرت الصحف أنه ألف أكثر من عشر لجان لتبحث تنظيم الزكاة وما إلى الزكاة .. وكل هذا بعض واجبات الوزراء والشيوخ والنواب ، فاذا كان قد استقل بها وزير فرد ، فمدى حكمنا عليه يقاس بمدى غيرته على نهضته ، وعلى مدى إيمانه بها ، ودفاعه عنها حتى تجاوز دائرة الكلام والورق ، فقد ملأنا الدنيا كلاما .. ولم نقتصد فى تحبير الأوراق إلا لسبب غلاء سعرها ! ! !

هذا مثلان أضعهما أمام من يسألنى من الشيوخ والنواب أمثلة للموضوعات الحيوية التى يثمر فيها استخدام الاقتراح أو تقديم السؤال والاستجواب .

الأحزاب ! ! !

وننتقل الآن إلى عنصر الحزبيه فى حياتنا البرلمانية . . ثم أقف قليلا لألتقط بعض أنفاسى .

الأحزاب . . . ! ! !

قال مرة أحد المتنورين من الشيوخ — وقد أعطى الكلمة فى جلسة الرد على خطاب العرش — ما معناه أن الحياة البرلمانية لا يمكن أن تقوم إلا على نظام الأحزاب ، فاذا انفرد بالحكم دونها حزب واحد منها ، فقد انهار المعنى الحقيقى لهذه الحياة ، بانعدام المعارضة التى هى لباب هذا النظام .

وقال مرة شيخ له مقامه — وقد ولى رياسة أحد المجلسين حينا — إن

---

(١) هذا ما قلناه فى الطبعة الأولى وقد صح كله وتربص بقانونى النقابات والتأمين الاجبارى المتربصون وذاد عنهما الوزير وأقرهما البرلمان وارجىء مشروع قانون عقد العمل إلى الدورة القادمة .

النظام البرلمانى لم يقم إلا للدفاع عن الأقلية ولحماية رأيها ، والقولان صحيحان ..

والخلاف الحزبى نفعه فى الأمم الديمقراطية أكثر من ضرره .

ولكن . . فى مصر . . يبدو أن الأمر مختلف جدا ، ويبدو أن عدم استقرار نظامنا البرلمانى ، راجع فى كثير من عوامله ، إلى إساءة فهمنا معنى النظام الحزبي .

وليس فى نيتى أن أتوسع فى بسط هذا الخلاف وأسبابه ونتائجه ، وليس من صالح مصر ولا من مقتضيات الظرف مثل هذا التوسع . . . ولكنى لاأستطيع أن أطوى هذه الصفحة — وقد قدمت لها بعبارتى الشيخين — من غير أن ألفتك إلى نتيجة غير سارة ، قلبت فى الأذهان معنى الحياة البرلمانية أو كادت .

ألفتك — بل أطلب إليك — أن تنتهز فرصة أى خلاف حزبى ينشب فى مصر .. وتخير أية طبقة من الطبقات فى أية بيئة من البيئات ثم تحدث إليهم فى السياسة ، ثم « تدهلز » إلى الحملة على الحزبية والأحزاب بغير تفريق . . ثم سجل لقسمات الوجوه خطابيانيا . . ولتأوهات الحضور درجة حرارية . . ثم علل لى هذا الإجماع . . ثم قف معى مرة ثانية لنلتقط أنفاسنا .

نعم . . لنلتقط الأنفاس ونعود إلى عبارتى الشيخين من جديد ، ونخرج منهما بأن الأحزاب لابد منها للحياة البرلمانية . . ثم لنعود كرة أخرى إلى قسمات الوجوه وتأوهات الحضور ، لنخرج منها بالاستياء من حرب الأحزاب . . فكيف إذن نوفق بين النقيضين ؟

الجواب تناهى فى البساطة . . فهناك فارق بين حرب وحرب . . وبين أحزابنا هنا وأحزابهم هناك . . وفى هذا الفارق المفتاح المسروق أو السر المخبوء .

أفتريد أن تهتدى إلى السر وأن تعثر على المفتاح ؟

إذن فاستمع معى إلى عبارة كتبها مرة أحد الصحفيين عن رئيس وزارة سابق قال :

« وكان يكره الدعاية والإعلان . . اطلعت ذات يوم على موقف مشرف

له ، وكانت الناس كلها تعيب عليه موقفه هذا ، لأنها لا تعرف هذا الموقف على حقيقته . . وعرضت عليه أن أنشر الحقيقة فأبى . . وقال : إن النشر يخدمنى ويضر البلد . . ولهذا أفضل أن لا تنشر شيئا » .

هذه العبارة تنطوى على معنى ، هو وحده الذى أعنيه ولا أعنى الدعاوة لصاحبه : « إن النشر يخدمنى ويضر البلد » هذا المعنى هو الذى تقوم عليه الأحزاب التى تقوم عليها الحياة البرلمانية فى كل بلد ديموقراطى . . تخدم صالح الحزب متى كانت خدمته غير متعارضة مع صالح البلد ، فان تعارضت ، وجب تغليب الصالح العام على الصالح الحزبى . . فهل لقى هذا المعنى سوقا فى بلادنا ؟

الجواب تتولاه قسمات الوجوه وتأوهات القلوب ! !

فى مصر تهب الريح طيبة رخاء على حزب الأغلبية ، فتضرب عن خوض غمار الانتخابات أحزاب الأقلية ، بحجة أن الانتخابات تجرى تحت الأحكام العرفية ، وتهب الريح طيبة رخاء على أحزاب الأقلية فيضرب حزب الأغلبية بحجة أن الانتخابات مزورة وغير حرة ، وقد يكون أحد القولين صحيحاً ، بل قد يكون القولان صحيحين ، ولكن الخطأ الأكبر فى تبادل هذا الإضراب ، لأنه ينتهى بنا حتما إلى انعدام المعارضة فى أحد المجلسين أو فيهما معاً .

وأنا أحب أن أبرز هذه النقطة ، وأن أضرب لها مثلا بارزاً أيضاً .

فى مجلس النواب الفائت الذى يعتقد الوفديون أنه قام على التزوير ، كان للوفد كتلة لا يزيد عددها على عدد أصابع اليدين إلا قليلا ، وكان للوفد كتلة قوية فى مجلس الشيوخ الذى لم يطعن أحد فى سلامة تكوينه . . فماذا حدث ؟

حدث أن قاد الكتلتين فى المجلسين رجلان من خيرة رجال الوفد ، أحدهما فى الشيوخ اعتبره النقد أستاذا فى « التكتيك البرلمانى » وطرازا ممتازا فى الحكمة والقوة وبعد النظر ، وثانيهما اعتبره النقد صادق الحملات ، قوى

البراهين ، مهاجما مقطوع النظير ، صديقا خارج الجلسات للجميع ، و بقوة هذين الرجلين، استطاع الوفد أن يظل فى الميدان، وأن يهز المنبرين فى البرلمان، وأن يحمل الحاكم على أن يعمل للمعارضة حساباً.. وهذا الحساب هو اللباب فى الحياة البرلمانية.

وقد قامت إحدى المجلات بعمل إحصاء طريف ، خرجت منه بأن مجموع المدة التى انفرد الوفديون بالحكم فيها أو اشتركوا فيها فى الحكم ، بلغت ١٨٧٦ يوما أى قرابة خمس سنوات ، وأن الدستوريين بلغت مدتهم ٧ سنوات وعشرة شهور ، وأن الاتحاديين بلغت مدتهم ٧ سنوات تقريبا وأن الشعبيين بلغت مدتهم ٥ سنوات ونصف السنة ، وأن الحزب الوطنى بلغت مدته عامين إلا شهرا [1] ، و بلغت مدة السعديين ثلاث سنوات إلا شهرا.. أما المستقلون فاذا لم تجاوز مدتهم ٦٣٢ يوما ، فقد فازوا بنصيب الأسد من رياسة الوزارات ، فكان منهم رياسة عدلى يكن لوزارته الثانية ، وعبد الخالق ثروت لوزارته الثانية ، وعدلى للثالثة ، وتوفيق نسيم للثالثة وعلى ماهر للأولى وعلى ماهر للثانية وحسن صبرى وحسين سرى .

هذا الإحصاء يستوقف النظر حقا ...

وليس يعنينا أن يكون الخطأ الدستورى راجعاً إلى سوء تصرف هذا الحزب أو إخطاء ذاك الرئيس، فما نحن هنا لمحاسبة الأحزاب على هذه الأخطاء ، وإنما نحن نحاسب على حسن سير الحياة البرلمانية وسوئه ، فلو كانت هذه الحياة قد استقرت حقا ، لما كان لهذا الإحصاء الظالم محل ، فالحزب الذى يمثل الأغلبية، يجب دستوريا أن يلى الحكم ، إلا إذا رأى هو أن فى ائتلافه بغيره من الأحزاب صالحا للبلاد .

الأمر إذن فى حياتنا البرلمانية لايسير على سنن برلمانى ، ذلك لأن الأحزاب إنما ترعى صالحها بقطع النظر عن أن يجىء الصالح العام متفقا معها أو مختلفا ،

---

(١) بعد صدور الطبعة الأولى طلب إلى النائب المحترم محمد محمود جلال بك أن أصوب هذا التعبير لأن الحزب الوطنى لم يصطلع بالحكم وإن كان حافظ رمضان باشا قد اشترك فى بعض الوزارات

ولست أساير المجلة فى أن الاتحاديين يمثلون ٢٠/٠ من الأمة وحكموا سبع سنين، أو أن الشعبيين يمثلون ٤٠/٠ وحكموا واشتركوا فى الحكم خمس سنوات ونصف سنة، فالنسبة أمرها متروك للإحصاء الرسمى إلى أن يقوم فينا « معهد جلوب » آخر .. ولكن الذى يعنينا من البحث هو سوء سير الحياة البرلمانية من الناحية الحزبية .

وهذا الانعكاس قد يكون نتيجة لازمة لأخطاء ارتكبها هذا الحزب أو ذاك، أو لعوامل خارجة عن إرادة هذا الحزب أو ذاك ، ولكنه — أى الانعكاس — كان مقدمة فى كل حال لانعكاس آخر فى الوضع الدستورى بين المجلس النيابى والوزارة ، فأصبح من تقاليدنا السيئة أن تلجأ كل وزارة تفقد ثقة البرلمان إلى حل البرلمان ، بدلا من أن تستقيل هى ويبقى هو . .

لانقل إن هذا حق دستورى لكل وزارة ، فما أفظع الحق إذا أسيء استخدامه ! .

أشيع فى هذا الصيف أن مسيو پول رينو ومسيو چورچ ماندل (وزير الداخلية فى وزارته) يضعان وهما فى السجن مشروعا لإنشاء نظام جمهورى برلمانى فى فرنسا ، وأن هذا النظام يجعل من المتعذر إسقاط الوزارة بعد النقاش السياسى، ولكن القرار الذى يصدره مجلس النواب ، يفرض على رئيس الجمهورية النظر فى موقف الوزارة ويمنحه حق إقالتها « وقد كانت نقطه الضعف فى الجمهورية الفرنسية الثالثة تنحصر فى عدم استقرار مجلس النواب مما أدى إلى عدة تغييرات وزارية فقد سقطت ست وزارات وألفت غيرها فى سنة واحدة وكانت الأغلبية تطفر من اليسار إلى اليمين » .

دع عنك شعورى بالفخار بهؤلاء الرجال الذين يصنعون الدساتير، وهم فى السجون يجهلون المصير فى البلد المهزوم ، وفكر معى فى دائهم ودائنا . . . داؤهم هم .. يرجع إلى وزارة تستقيل لفقدانها ثقة المجلس، فتقوم أخرى لاتلبث أن تفقد الثقة فيستقيل ، والمجلس دائما باق . . أما داؤنا نحن فيرجع إلى مجلس يحل ، كلما

ضن على وزارة بالثقة ، فتجرى هى انتخابات تغضب الآخرين ويضربون عنها ، فيجىء أنصار الوزارة الجديدة فيسعى الغاضبون بمختلف وسائل « السعى الخفى » لإحداث مانسميه انقلابا .. أو لاسترداد مايسمونه حقا .

تقلقل غريب .. تزايله الغرابة متى ألقينا على طبيعة الخصومات بين الأحزاب نظرة عامة .

***

ويجىء الآن دور « التكتيك الحزبى » فى مجلسينا .

وأشهد أن « التكتيك » فن من الفنون لايحسنه غير القليلين ، وأن زعيمى المعارضة فى المجلسين فى السنوات الأربع الفائتة — المغفور له الأستاذ يوسف الجندى والأستاذ عبدالحميد عبدالحق — قد برزا فى هذا « التكتيك » تبريزا يسجل لهما بالحمد من غير شك ، على أن عبد الحميد لم يكن فى يده من القوة العددية مايهدد به ، أما يوسف فقد كان يملك هذه القوة ، ولهذا اختلف الاثنان فى الطريقتين وكان « لكل شيخ طريقة » كما يقولون ، فعبدالحميد كان يعتمد على توثيق صلاته بالزعماء والنواب ، وعلى نعومة المدخل أولا ، وعنف الهجوم فجأة ، وقوة الحجة دائما ، فكان يحمل الكثرة على الإصغاء ، ثم يثبت لضجيجهم ، ثم ينسحب فى اللحظة المناسبة التى يحدث الانسحاب فيها صدى يلائم المعارضة ، فأذا عاد إلى جلسة تالية كانت الكثرة على استعداد للترضية .

أما يوسف فكانت له كتلة متماسكة يحسن توجيهها ، ويحسن فى الوقت المناسب حشدها ضد أغلبية متخاذلة ، تقوم على أحزاب متنافرة ، لايجمع بينها إلا سلطان الحكم ، وعلى مستقلين قد يحضر منهم عدد كبير ، ينزل بالمعارضين الهزيمة ، وقد يتغيب عن الجلسة أكثرهم ، فيفوز المعارضون .

أما المستقلون فأمرهم كان ولا يزال عجبا بين الأمور !

لقد كان المفروض أن المستقل ، فى زمن ضلت الأحزاب فيه طريق الرشاد ،

هو الرجل الحر ، ذو الضمير الحى ، الذى يؤدى واجبه غير مبال هيئة ولاحزبا .. أما الذى حدث فى مجلس الشيوخ بالذات ، وطيلة السنوات الأربع الفائتة ، فكان على النقيض من هذا «المفروض» .. إذا استثنيت قلة تعد على أصابع اليد — من طراز محمد شفيق باشا — تؤيد اليسار مرة وتؤيد اليمين ثانية ، وتخرج على الفريقين ثالثة وفقاً للصالح العام . . نعم كان جمهرة المستقلين يعتبرون أنفسهم أنصاراً لكل حكومة قائمة ضد كتلة المعارضة ، وكان بعض المستقلين أكثر تعصبا لرئيس وزارة بعينه ، لأنه هو الذى عينهم شيوخا ، كأنما التعيين منة ، يراد منها شراء صوت الشيخ الذى عين ، لا سداً لنقص فى الكفايات التى تعوز المجلس .

هذا الخطأ فى الفهم بين صفوف المستقلين أضر وأفاد ، أضر المستقلين أنفسهم وأساء إلى كراماتهم وهم من عيون الأمة والمشاهير فيها ، ولكنه فى الوقت نفسه ، أفاد الحكم النيابى ، بحمله المعارضة على التفنن فى إجادة «التكتيك البرلماني» لتقاوم بالبراعة والتماسك ، كثرة عددية لا براعة عندها ولا تماسك بينها .. وتوالى الانتصارات للمعارضين برغم أنهم قلة لا يكملون الستين فى مجلس يبلغ عدد أعضائه مائة وسبعة وأربعين ، قد حمل بعض رؤساء الوزارات أيضا على محاربة المعارضة بنفس سلاحها ، فتفقه فى « التكتيك » من لم يكن فقيها ، وجاء هذا الفقه كسباً للنشاط البرلمانى ، وأشاع فى الشيوخ النائمين كثيراً من الحركة والحياة . . ولعل أزهر عهد شاهدناه من هذه الناحية هو عهد حسين سرى باشا ، فالرجل لم يكن حزبيا ، ولكن وزارته كانت حزبية مرة ، ونصف حزبية أخرى ، ولكنه كان يعرف أن ابتسامة منه كحاكم ، لشيخ مستوزر ، كافية لحمله على تأييده ، وأن حشد الأنصار يفيده ، فكان يحشدهم متى استطاع ، فاذا عز عليه حشدهم ، وأدرك أن الحاضرين من أنصاره أقلية ، بارح الجلسة ، لأن عملا فى المجلس الآخر يقتضى وجوده ، ولأن تليفونا « ذا بال » استدعاه ، فان جاءت الجلسة التالية وتكررت نفس المأساة ، أشار على أنصاره بمبارحة القاعة ، ليصبح العدد غير قانونى ،

ويمتنع أخذ قرار ضده ، فتؤجل الجلسة حتى يحشد أنصاره . . فاذا ما بدأوا يخرجون ، انبرى زعيم المعارضة إلى المنبر ، يشهد الحق والتاريخ على هذا التصرف الذى (ما كان يصح) أن يصدر عن حكومة وشيوخ .

وهذا الذى كان يلجأ إليه سرى باشا ، يماثل ذلك الذى كان يلجأ إليه زعيم المعارضة ، حتى لقد عرض يوما أمر ذو بال ، فنشط الوفديون للحشد ، وجىء بمرضى من فوق أسرتهم ، وربح المعارضون يومئذ المعركة .

كان هذا يجرى فى مجلس الشيوخ ، لأن الأحزاب كانت ممثلة فيه ، وراية المعارضة كانت خفاقة ، والرئيس كان كعادته يجامل الحكومة ، ولكنه كان يعمل حسابا لقوة المعارضة وزعيمها ، فيمسك العصاة من وسطها ، ويجد لمهارته الشخصية مجالا بين المتكافئين .

وكان زعيم المعارضة بعيد النظر جداً ، فلا يساير المتطرفين من رجالات حزبه ، بل ينظر دائما إلى بعيد ، ويوفق دائماً بين صالح الحزب وصالح بلاده فى الفترة الدقيقة التى كانت تجتازها .

بيد أن هذا الذى ذكرناه عن « التكتيك » فى فترة بعينها — أنا من المعجبين بالمعارضة فيها — لايعنى أن الأحزاب فى المجلسين ، لم تسرف فى تغليب الصالح الحزبى ، بل حدث — أكثر من مرة فى أكثر من موقف — أن أخذ الشطط بخناق الأحزاب ، فرجحت كفة العناد الشخصى على كفة الصالح الوطنى ، من غير أن يقصد المختلفون — طبعاً — إلى الإضرار بهذا الصالح .

ونذكر — ونحن بصدد « التكتيك » — أن كثيراً من المفارقات كانت تلازم ذلك النشاط ، وقد حفلت بهذه الألوان الصور التى رسمناها فى البلاغ لما جرى فى تلك الجلسات ، فبين الشيوخ عجائز هدَّ الزمن قواهم ، وكثر أن يغفلوا عن سير النقاش فى القاعة ، فاذا جاء التصويت ، وكانوا غير متنبهين على ماتعنيه كلمة

« نعم » أو كلمة « لا » أوفد زعيم المعارضة شيخا وفديا يجاور كل عجوز غافل من هؤلاء ، ليلقى فى أذنه كلمة « لا » فاذا هو نطقها ، صاح فيه زملاؤه المؤيدون « اللى مع الحكومة يقول : نعم » فيقول « نعم » ويحار الرئيس ويعاود سؤال الشيخ بين الضجيج والضحك .

وأخيرا فالتكتيك حق لكل حزب . . وفن جميل فى ذاته ، ولكن هذا الجمال لايتجلى ، إلا حين ترفرف راية الصالح العام فوقه وهو يجرى وفقه . . أما إذا هو خالف صالح المواطنين ، فقد انقلب الجمال قبحاً ، وأرجو أن يوفق الله أحزابنا دائماً إلى الحق والجمال معاً .

المضبطة

ونعرض الآن لعنصر جديد ما كان فى نيتى أن أعرض له ، لو لم يكن له من الأثر فى الحقيقة والحرص على الأمانة فى تصويرها ماله ، فضلا عن أن لى فى هذا العنصر رأياً ، أحب أن أبديه فى شىء من الإيجاز ، راجياً أن يضعه أنصار الحياة البرلمانية موضع العناية والدرس ، وأعنى بهذا العنصر « المضبطة » .

ولهذه المضبطة رجالها ، يشرف عليهم فى مجلس الشيوخ شاب محبوب منهم ، وموثوق بكفايته ، هو الأستاذ إبراهيم بك عبد الوهاب ، ويشرف عليهم فى مجلس النواب الأستاذ أمين ميلاد ، وهو رجل تطل الخبرة علينا من خلال شعره الأبيض ، ولرجال المضبطة متاعبهم وجهودهم فى سد النقص الذى كانت تشعر به لغة الضاد ، كلما رنت إلى لغات أقل منها غنى وأكثر منها تمتعا بطريقة الاختصار فيها « الشورت هاند » .

ليس لى — إذن — على رجال المضبطة فى المجلسين مأخذ ، وإن كنت لاأعرف على التحديد التعليمات الصادرة إلى هذه « الفرق » من الرياسة أو من السكرتارية

حتى أعقب عليها تأييدا أو تفنيدا ، وإنما ينصب نقدى على السياسة التى رسمتها الرياسة للمضبطة من بداية الحياة النيابية إلى اليوم .

***

فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ افتتح البرلمان أولى جلساته .

وفى سنة ١٩٢٦ اتجه التفكير إلى اقتباس النظام الفرنسى ، وتطبيقه على مضبطة مجلس الشيوخ وطريقة وضعها ، وكيفية تبويبها ووضع فهرس لها وفصل ماينبغى فصله عن المناقشات . هذا مافهمته من كتاب « الدستور » فيما يخص مضبطة الشيوخ التى اقتبس لها هذا النظام من ذلك العام ، يوم كان حبيب حنين المصرى بك (باشا الآن) سكرتيرا عاما ، وكان المغفور له محمد شوكت بك المستشار الملكى مديراً للإدارة التشريعية ، ولا أدرى — على التحديد — تاريخ أخذ مجلس النواب بهذا النظام .

ولا اعتراض لى على النظام الفرنسى فى ذاته ، وإنما ينصب اعتراضى على الأسلوب الذى تدون به مضابطنا .

ولكى يكون اعتراضى واضحا ومقنعا ، ينبغى أن نتفق قبله على المهمة التى وجدت هذه المضبطة لتؤديها .

والذى أفهمه أنها لم توجد لتسجيل مايجرى فى القاعة ، حتى تكون محاضر رسمية يرجع إليها من شاء متى شاء فقط ، وإنما وجدت لتكون مرآة صادقة لحياتنا البرلمانية ، يتصفحها الأبناء والأحفاد ، ويستخلص منها مؤرخوهم ونقادهم حقيقة آبائهم وأجدادهم ، وحقيقة الأطوار التى اجتازتها الحياة النيابية ، ووجدت المضبطة أيضا لتكون مرآة صادقة يرى فيها « التاريخ النيابى » صورته الحقيقية ، ووجدت كذلك لتغذى هواة البحوث فى مقبل الأجيال ، بالعناصر التى تقوم عليها دراساتهم لعوامل النقص التى اعتورت الحياة البرلمانية ، ولأخلاق الرجالات الذين قاموا

عليها وأحسنوا توجيهها أو أساءوا . كما نحاول الآن أن ندرس تاريخنا النيابى وأطواره من محاضر المجالس النيـــابية التى تعاقبت من عصر إسماعيل إلى الجمعية التشريعية .

ترى من هذا أن الأغراض التى تتوخاها البلاد من هذه « المضبطة » ليست هينة كما يبدو لبعضهم ، ولا هى تقف عند حد مناقشات تجمع ، ومضبطة تطبع ، وكفى ، ولـكنها مهمة لها جلالها من حيث أغراضها ، ولها آثارها من حيث أقداس الدراسة والأمانة والتاريخ .

فهل من حق القوامين على هذه « المضبطة » أن يبدلوا لغة بلغة ، وأسلوباً بأسلوب ، وأن يحذفوا منها مالم يقرر المجلس حذفه ، وأن يضيفوا إليها ما لم يقرر المجلس إضافته ، بحجة الغيرة على كرامة الشيوخ ، و بدافع الرغبة فى أن تنشر كلماتهم على نحو يشرف الحياة النيابية ؟

الجواب بالنفى قطعاً ، ولا يملك أحد — فى رأيى طبعا — أن يمد يداً إلى كلام قيل فى المجلس ، وأثبته رجال المضبطة بنصه .

و يحسن أن أزيد القراء إيضاحاً .

فى الشيوخ والنواب عقليات مختلفة ، وللشيوخ والنواب كفايات مختلفة ، ولـكل شيخ أو نائب أن يعبر عن المعانى التى يقصد إليها بالعبارة التى تواتيه ، وهو حر فى أن يلقى كلمته فصيحة بليغة ، أو يختار لها اللغة الدارجة ، أو يرسلها مزيجاً من الفصحى والدارجة ، أو يحليها بحواشى من (القفشات) أو بتوابل من النكات .

الواجب — فى ميزانى — يقضى على المضبطة بأن تـكون أمينة على العبارة والأسلوب والمزحة ، أمانتها على كلمة (تصفيق) أو كلمة (ضحك) أو كلمة (ضجة) تحرص على إثباتها لأنها تصور حقيقة وقع كلمة الشيخ أو النائب فى نفوس الشيوخ والنواب .

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

ولهذه الأمانة حكمتها ، لأنها تعطى كل ذى حق حقه ، فتعين بلاغة البليغ وركاكة الركيك ، وقوة تأثير كل ، وتعلل بهذا التأثير النتيجة التى يكون قد انتهى إليها المجلس ، أو القرار الذى يكون قد اتخذه ، وكذلك تبين أثر النعومة التى استخدمها نائب بعينه فربح إصغاء الزملاء ، أو الجفاء الذى لازم تعبير نائب آخر فخسر المعركة بسبب هذا الجفاء .

يقولون فى الأدب الغربى إن الأسلوب هو الرجل أو إن الرجل هو أسلوبه ، وهو قول صحيح تخطت به الحضارة حد الحاجة إلى التدليل على صحته ، فما بال المجلس يتجاهل هذه الحقيقة ، ويخلق لكل شيخ لا أسلوب له أسلوباً من عند المجلس ؟

الذى يجرى الآن فى مجلس الشيوخ (وأحسب أن مجلس النواب يشارك أخاه الطريقة) أن شيخاً كل حظه من الثقافة أنه (يقرأ ويكتب) يقف ليقول (خذوا بالكم ياإخوانى ، الموضوع ، ده مش داخلى عقل ولايدخلشى فى ذمتى بنكله) ويثبت رجال المضبطة هذه العبارة بنصها (أو هذا هو المفروض فيهم) فاذا اجتمع (المصفون) من الموظفين المختصين بتهيئة المضبطة للطبع إثر انتهاء الجلسة ، أمسك كبيرهم إبراهيم بك عبد الوهاب بقلمه ، وراح يكتب بأسلوبه مثلا (أرجو أن تصغوا إلى يا حضرات الشيوخ المحترمين لأن هذا الموضوع لايستريح إليه عقلى ، كلما تناوله بالتفكير فيه أو قلبه على مختلف وجوهه) .

صحيح أن العبارات الجديدة قد أدت المعنى وتسامت به و بالتعبير عنه ، ولكن الموظفين المطالبين باثبات مايدور فى القاعة ، لايدخل ضمن اختصاصهم أن يجعلوا من المستوى الريفى مستوى ثقافياً .

وإذا أجزنا لهم هذا التبديل والتغيير — وهو مايجرى العمل عليه مع الأسف — فما هو الفارق بين بلاغة شيوخ من طراز صبرى أبى علم وتوفيق دوس ونواب من طراز مكرم عبيد ومحمد محمود جلال و بين الشيخ المحترم لويس فانوس ، وهو على سعة اطلاعه ، يحطم اللغة تحطيما ، ونائب كالبدراوى باشا يصيح

فى النواب (الحقوا ابنى . . شرب الشاى بالعسل . . ابنى جعان وكلمنى النهرده فى التليفون) .

أظن أن الأمر واضح لايحوجنا إلى مزيد من البيان ، فان قيل إن الخطباء البلغاء الذين يلقون كلماتهم بالفصحى ، لاتمتد إلى عباراتهم أى يد بالتغيير أو بالتحريف ، فان نقدى ينصب على أن يرتفع الموظفون بمستوى غير البلغاء إلى مستوى هؤلاء البلغاء .

وهناك سبب آخر يدعونى إلى التنديد بالطريقة المتبعة ، ذلكم هو رغبتى فى النهوض بمستوى الأداء والتعبير عند الشيوخ والنواب ، لأن المجلس إذا اتبع طريقتى ، وكان أميناً على إثبات أقوال الشيوخ كما تجىء منهم ، ورأى غير البليغ سوء صدى هذا التعبير فى أقليمه أو بين الصرحاء من الأصدقاء ، فانه عامل من غير شك على تحسين الأسلوب وتجميل العبارة ، ومحاول دائماً أن يجهد نفسه فى إعداد مايريد قوله ، وفى هذا الترقى كسب لاشك فيه .

قد أفهم أن تمتد يد الموظف المختص فى كثير من الرفق إلى كلمة بعينها تفلت فى ساعة غضب من فم شيخ ، فتجىء نابيـــة ، فيرى المسئولون أن وجودها فى المضبطة يسجل عيباً ولايعطى صورة للتاريخ ، فيمر القلم بالمحو على هذه الـكلمة . قد يكون مثـــل هذا المحو مفهوماً ، أما أن نؤلف نحن للشيخ — ولا أقول «نزيف» — فهذا هو الذى أحمل عليه بكل قوة فىّ ، وأدعو الرياستين إلى دراسته للقضاء عليه ، أو للتخفف منه على الأقل بألا يستبعد إلا ما كان نابياً ولا يؤثر استبعاده فى الأمانة للدراسة والتاريخ .

أما إن قيل إن الشيوخ أنفسهم ، لم ترتفع منهم صيحة احتجاج أو اعتراض حتى الآن ، فالتعليل ظاهر ؛ لأن الشيوخ البلغاء لايغيّر فى عباراتهم ، إلا أن يطلبوا هم إدخال بعض التغيير ليجابوا إليه ، ولتظهر كلمتهم أشد تماسكا أو أوفر بلاغة ،

ولأن غير البلغاء يحسّن لهم ، ولا وجود لشيخ غير بليغ ، يرى أسلوبه الركيك قد تبدى فى صورة حسناء ، ثم يأباها .

ولى أيضاً على المضبطة ملاحظة أخرى ، فقد جرى عرف الرياسات فى مجلس الشيوخ على أن يسأل الرئيس : «هل لأحد من حضراتكم ملاحظة على مضبطة الجلسة السابقة ؟» فان كان لأحد ملاحظة عابرة أمر الرئيس باثباتها ، وإن كانت كلاماً طويلا طلب إلى الشيخ أن يتصل بالمسئولين عن المضبطة فى مكاتبهم لإجراء التغيير اللازم .

وعندى أن هذا خطأ ، وخطأ فادح ، والواجب أن يذكر الشيخ فى القاعة نفسها مايسميه « تصويباً » وأن يقر الشيوخ هذا « التصويب » لأن المصوِّب بالقاء ماقاله مرة أخرى . يعتبر مستشهداً بزملائه على أن هذا الذى فات المضبطة وتبينه هو ، هو الذى قيل حقاً ، وهو الذى سمعه الشيوخ حقاً ، وليس مستحيلا أن يستبيح شيخ أو نائب لنفسه ادعاء أقوال فاته أن يقولها ، فينتهز فرصة التصويب ويثبتها ، فيخل بالأمانة فضلا عن الإخلال بالموضوع ، إذا كانت العبارة التى أضافها ، يمكن أن تضيف إلى آرائه رأياً لم يكن له عند ماطرح الموضوع .

وكفى هذا القدر للمضبطة ، وكل ماأرجوه أن يفهم الموظفون أنهم غير معنيين بهذا التبديل والتغيير ، إنما المعنى المجلس الذى أطالبه بتغير هذه السياسة ، وأضيف إليه الرياسة ، أعنى الرياسة فى المجلسين معاً ، لأن لكل مجلس أن يتخذ لمضبطته الطريقة التى يرضاها .

النظارة

أما النظارة فى مصر فلا سلطان للنقد عليهم ، فهم أحرار فى إقبالهم على الجلسات وفى عدم إقبالهم ، فضلا عن أنهم يمثلون مختلف الطبقات ، فتوجيه النقد إليهم لايصلح كثيراً معهم ، ولكنهم كعنصر من العناصر التى توفر للجلسات شرط

العلنية ، يجوز أن نسجل لهم ، أو عليهم ، ملحوظات عابرة . . فقد لاحظنا مثلا :

(ا) أن الإقبال دائمـــا يكون نصيب الجلسات التى تعرض فيها الاستجوابات بصفة عامة .

(ب) وأن الإقبال يتضاعف إذا كان الخلاف ناشبا بعنف بين الحكومة والمعارضة وتوقع النظارة الخطب النارية أو الحماسية التى تروى عطاش المزاج المصرى الذى عودناه على الأقوال لا على الأعمال .

(ج) وأن العنصر النسائى يميل إلى حضور جلسات النواب ذوى النشاط أكثر من ميله إلى حضور جلسات الشيوخ .

(ء) وأن البحوث الفنية التى تعتبر ممتعة للمفكرين لا تصادف إقبال النظارة .

نثبت هذه الملاحظات بغير تعقيب ! !

الصحافة

وتجىء الآن خاتمة بحثنا البرلمانى « العابر » الذى اجتزنا به العناصر التى يقوم عليها المجلسان فى أضيق حيز ممكن ، قانعين بإلقاء ظلال من الملحوظات على كل عنصر ، شأن السفينة الصغيرة فى عرض البحر الكبير ، عندما يلقى شراعها على صفحة الماء ظلاله ثم تمضى .

ولتكن الخاتمة حديثاً قصيراً عن الصحافة وممثليها فى البرلمان .

وقد حدث فى شهر يونيو الحالى الذى أكتب لك فيه هذا البحث السريع ، أن وقف معالى وزير العدل فى أحد المجلسين يلقى بياناً عرض فيه للرقابة والصحف ، فأسمى ممثليها « مخبرين » فتوجهت فى أثناء وصفى تلك الجلسة فى « البلاغ » بكلمة عتب قصيرة على هذه التسمية ، فأصدر معاليه فى اليوم التالى بلاغا رسمياً عُنى فيه بإثبات رأيه الطيب فينا ، وأكد أنه لا يقصد إلا ترجمة

التسمية الفرنسية Reporteurs فجاء هذا البيان من الوزير النابه دليلا على تغير وجهة نظر الحاكمين إلى الصحفيين .

أثبت هذه الواقعة لأخرج منها إلى أن الزملاء الذين يمثلون صحفهم ، ليسوا مخبرين بالمعنى المفهوم من هذه التسمية فى صحفنا ، وليسوا أيضاً «مخبرين برلمانيين» لأن المخبر البرلمانى هو المخبر العادى الذى يعهد إليه أن يجوس خلال مكاتب البرلمان من الصبح حتى الظهيرة ، ليحصل على أخبار اللجان التى تعقد ، والتقارير التى توضع ، والجدول الذى يُعد .

والحق أن الصحفى الذى يمثل الجريدة فى المجلس بين أن يكون « محرراً برلمانيا » أو « ناقداً برلمانيا » أما أنه محرر فذلك لأنه يستمع إلى النقاش الذى يدور ، ثم لا ينقله بحروفه كما تفعل المضبطة ، لأنه لو فعل لما اتسعت له صفحات الجريدة ، وإنما يلخصه فى أضيق حيز ، مراعياً فى التلخيص أن يحرص على جوهر البيان أو النقاش ، وعلى إبراز الفقرات التى يعتز بها صاحبها بنصها حيناً ، أو بما هو أقرب إلى النص أحايين ، فاذا لم يكن ممثل الصحيفة محرراً متمكناً من الفن الصحفى ، ومن الفن البيانى ، فيستحيل عليه أن ينهض بمهمته على الوجه المرغوب فيه .

وأما الناقد البرلمانى فمهمته أكبر أثراً . . وأكثر خطراً . . فهو ينقل إليك الروح الذى ساد النقاش ، والجو الذى عاش فيه ، ويصور لك الخطب والخطباء تصويراً يصلك بهم وأنت غائب عنهم ، فضلا عن التعقيب الذى يراه لازماً بين الحين والحين ، أو الملحوظة الناعمة يدسها بين السطور وعلى صورة توجيه ، ويدع لك أنت مهمة استخلاصها ، فهو يعيش فيما بين السطور أكثر مما يعيش بالسطور ، ويتضاعف العبء إن كان مثلنا يمثل صحيفة مسائيـة ، لأن صحف الصباح تكون قد سبقته بملخص للمضبطة — أو بنصها إن كانت موجزة — فهو إن نقل عنها ، كان لاغناء فى استغراقه حيزاً من الصفحات ، وفى نشره مساء كلاماً نُشر

فى الصباح ، أما إن هو شاء أن يبحث عن جديد ، فبحث يضنيه من غير شك ، و إن كان هذا الاضناء له ، غذاء للحياة النيابية .

و إذا كان القراء قد اجتمعوا — فضلا منهم — على اعتبار مؤلف هذا الكتاب وحده رافعاً لراية هذا النقد فى مصر ، فان من دواعى الارتياح و بواعث الثقة ، أن بعض الزميلات بدأت تتنبه على جلال النقد ، و بدأ ممثلوها يزحفون إليه فى بطء قد يسرع بهم غدا إذا أجازت لهم صحفهم هذه السرعة ، وقد يبرز من بينهم فى الغداة نقاد يسجل لهم التاريخ النيابى كفايات طيبة .

***

وتقف المجلات على هامش النقد موقفاً يوائمها ، فيشهد ممثلوها الجلسات التى يتوقعون أن تثار فيها أمور ذات بال ، ويخرجون منها « بالقفشات » التى يطيب لقرائهم إبرازها ، بل يذهب بعضها إلى حد تنقل معه بعض نقدات عن الصحف من غير إشارة إلى هذا النقل ، وهى محقة فى النقل — لافى اهمال الإشارة — لأن بعض الناس من طلاب الاطلاع « الخفيف » يقرأون المجلات ولايقرأون الصحف .

* * *

وحسبك من أثر المحرر البرلمانى فى الحياة البرلمانية ، ذلك السلطان العريض الذى يملكه فى إبراز من شاء من النواب . و إخفاء ماشاء من جهودهم . والناس فى خارج البرلمان لايعرفون عما يجرى فيه إلا مايطالعونه فى الصحف ، وقد يلقى نائب خطاباً خطيراً يسجل له بالفخار ، ويكون المحررون البرلمانيون فى هذه الأثناء يتناولون المرطبات فى المقصف مثلا ، فلا يقرأ أحد شيئاً عن خطاب هذا النائب فى هذه الصحف ، ويحدث أحياناً أن ينعقد المجلس خمس ساعات ويتبارى الخطباء من نوابه البلغاء ، ثم تخرج بعض الصحف قائلة « وهنا جرت مناقشة اشترك فيها كل من حضرات النواب أو الشيوخ المحترمين . . . » وتسوق لك

عشرة أسماء أو أقل أو أكثر .. مع أن كل نائب أو شيخ من هؤلاء لا يعنيه من خطابه أكثر من ذيوعه بين الناس .

وقد حدث أكثر من مرة أن نوابا نابهين لم يسمع بهم أحد لسوء علاقاتهم بممثلى الصحف ، وحدث أن نوابا عاديين اشتهروا بين الناس لكثرة ماتنشر الصحف أسماءهم .

وهذه الظاهرة التى تبدو بين الحين والحين ، على يد « بعض » المحررين البرلمانيين ، تنافى الأمانة الصحفية أولا ، وتنافى ضمير الناقد ثانياً ، وتعطل ترقى الحياة البرلمانية أخيراً ، على أن الأمر فى هذه الأيام يبدو خيراً بكثير مما كان فى الماضى ، لأن الصحافة نفسها قطعت فى مجال الترقى أشواطاً ، وجمهرة ممثليها هم من الشبان المثقفين ، وأصحابها أو رؤساء تحريرها هم أعضاء فى هذا المجلس ، أو فى ذاك .

* * *

وللصحفيين البرلمانيين فى السنوات الأخيرة مواقف جديرة بالحمد والتنويه ، أذكر منها موقفاً بينهم و بين أحد الشيوخ النابهين ، وقد أخرجته القرعة ولم يعده المرسوم الأخير فحرم المجلس من بلاغته ، ومن أثره ، ومن مناوراته وأعنى به الشيخ المحترم وهيب دوس بك .

هذا الرجل معتد بنفسه — وهو أهل لهذا الاعتداد من غير شك — ولكن (الشاطر) إذا وقع ... فأنت تعرف بقية المثل ، وكبوة الجواد جرت — من قديم — مجرى المثل أيضا ، وقد كبا الشيخ فى إحدى الجلسات التى جرى فيها حول الرقابة الصحفية نقاش حاد ، فاراد الشيخ — لأمر فى نفسه أو لغير أمر — أن ينتصر لحكومة سرى باشا ، فانزلق وعرّض بالصحافة — وكانت هذه هى إحدى الجلسات القليلة ، التى تخلف كاتب هذه السطور عن حضورها — فضج الصحفيون فى الشرفة ، واحتج ممثلوهم فى القاعة ، وذاد المغفور له زعيم المعارضة عن كرامة الصحافة .

وفى الجلسة التالية تم الاتفاق بينى و بين ممثل الأهرام ، واستجاب الزملاء جميعا

لهذا الاتفاق ، على أن ننسحب من الشرفة فى أية لحظة يهم فيها وهيب باعتلاء المنبر ، وما كاد الاتفاق يتم حتى عرض أمر ، رأى وهيب معه أن يتحدث إلى زملائه ، فصعد إلى المنبر وما كاد يقول « ياحضرات الشيوخ المحترمين » حتى وقف الصحفيون فى شرفتهم دفعة واحدة ، وفى مظاهرة صامتة رائعة ، محدثين جلبة ظاهرة ، فسكت الشيخ عن الكلام ، وتطلعت إلينا عيون الشيوخ ، وسمرت فينا عين الرئيس ، وأرسل إلينا زعيم المعارضة إشارات خفية تحمل التحبيذ والتحية ، وبارحنا الشرفة إلى مقصف المجلس ، ولم نعد إليها إلا بعد أن جاء بعض الموظفين ينهى إلينا أن الشيخ اقتضب حديثه وانتهى منه .

وكان لهذا الحادث دوى غير هين ، فرأى رئيس الشيوخ السابق — وكان رجلا بعيد النظر سديد التفكير قديم الأسلوب — أن يستخدم أسلوبه القديم مع « بتوع الجرانيل » ظنا منه أن الصحفيين اليوم لا يختلفون عن الصحفيين فى الماضى ، خضوعاً لأوامر أصحاب الصحف ، ولو جاءت الأوامر مخالفة للاصول المرعية ، أو هادمة للكرامة الشخصية ، فاتصل الرئيس بالمغفور له عبد القادر حمزه باشا صاحب البلاغ وعضو الشيوخ يومئذ ، و بالأستاذ محمود أبى الفتح صاحب المصرى وعضو النواب يومئذ ، و بالأستاذ أنطون بك الجميل عضو الشيوخ ورئيس تحرير الأهرام وصديق الرئيس ، وطلب إليهم أن يستخدموا نفوذهم عند ممثليهم ، حتى يقلعوا عن معاملة الشيوخ هذه المعاملة ، بحجة أن الشيوخ أحرار فى إبداء آرائهم ولو خالفت آراء الناس جميعا ، وأشار الرئيس إشارة خفية إلى أنه يملك سحب البطاقات التى تجيز لنا دخول المجلس

و فى اليوم التالى للحادث استدعانى المغفور له صاحب البلاغ وقال مبتسما إن رئيس الشيوخ يرجوكم جميعاً ، و يرجوك أنت على الأخص للصداقة التى بينكما ، أن تعطوه كلمة بتناسى حادث وهيب بك دوس بعد أن احتج المجلس عليه وطُينت كرامتكم ، ويبلغكم أنه — كرئيس — مطالب بحفظ نظام الجلسة ، والمظاهرة التى

لجأتم إليها أخلت — كما يقول — بهذا النظام ، ولم تستطع الجلسة أن تسترد جوها الطبيعى ، إلا بعد أن عدتم إليها ، فضلا عن انطواء هذه المظاهرة على تهديد وجهتموه لشيوخ الأمة الذين يحميهم الدستور من كل تهديد

و بعد أن سرد صاحب البلاغ وجهة نظر الرئيس ابتسم وقال (وأنا رأيى برضه أن اللى عملتوه كفايه فإيه رأيك ؟)

وأحسست بشيء من الحروجة فقلت لصاحب البلاغ ما معناه (قبل أن أدلى برأيى أحب أن أسألك إن كنت تطلب إلى هذا المطلب بوصفك صاحب الجريدة ، ولك أن تملى على ماتشاء ، ولى من غير شك أن أرضى فأبقى ، أو أرفض فأستقيل ، أم هو رأى تبديه وتريد رأيى فيه)

وأجاب عبد القادر باشا فى حماسة : (أنا أعاملكم دائماً كزملاء وأصدقاء ، فليس بيننا صاحب جريدة ومحرر فيها ، وكرامة الجريدة عندى هى كرامتى وكرامتكم معاً)

وأجبت : (كرامة الجريدة هى التى تقضى على بأن أصارحك بكل شيء ، فهذه المظاهرة عملت وانتهت ولن تعود ، لا خوفاً من أحد ، بل لأنها بطبيعتها لا ينبغى أن تتكرر ، أما العقوبة التى أصررنا على توقيعها على الشيخ ، فهى أن نضرب عن نشر أية كلمة له حتى نهاية هذه الدورة ، ولن أتزحزح من جانبى عن هذا الاصرار ولو أباه الزملاء جميعا ، وأما صداقتى للرئيس فيبدو أنها صداقة مشوبة بفكرة أنه رئيس شيوخ هائل وأنى صحفى متواضع ، والدليل على وجود هذه الفكرة عند الرجل ، أنه شكانى إليك بدلا من أن يدعونى إليه ، وأما أنه يملك سحب البطاقات فغير صحيح عملياً ، لأن أحداً من الشعب لا يسمع بعدئذ شيئاً عن مجلسه وشيوخه ، وستر جهود الشيوخ عن الجمهور ، أمر لا يملكه الرئيس ، ويحرمه روح الدستور بغير نص ، وأما أن الشيوخ أحرار فى إبداء آرائهم ، فالصحفيون أيضاً أحرار فى رفض هذه الآراء وفى الذود عن كراماتهم بالوسائل المشروعة التى يملكونها)

وضحك صاحب البلاغ وقال (وهو كذلك ، أنا على كل حال ماحبش أتدخل

فى الحكاية دى مادمتم شايفين إنها لازمة ، ولو أن وهيب نفسه عارف إنه غلط)

وفى الجلسة التى تلت ذلك اليوم صعدت إلى شرفة الصحافة، فوجدت رئيس تحرير الأهرام يتحدث إلى ممثلها ، فلما رآنى قال إنه ينتظرنى ، وأعاد على مسمعى ماسمعته من صاحب البلاغ ، فقصصت على الجميل بك ماجرى بينى و بين عبدالقادر باشا ، فأيد أنطون بك اقتراحى وقال إنه كرئيس تحرير للأهرام، يرحب بكل قرار نرى فيه حفظاً للكرامة، وضرب لنا مثلا نائباً سابقاً أفلت منه فى أحد المجالس الفائتة نفس الخطأ ، فأضربت الصحافة عن ذكر اسمه ، فكان يحتال على ذكره بأن يثير أموراً لابد للصحف من أن تشير إليها ، لأن النقاش فى طول الجلسة يكون قد دار حولها فكان أنطون بك يكتب : (وقال أحد النواب — يقصد النائب — كيت وكيت فرد عليه فلان بكيت وعلان بكيت) .

ومن ذلك اليوم نفذنا القرار فعلا، حتى حملنا الرجل الذى كان يتكلم دائماً ، على أن ينحاز إلى صفوف الصامتين ، وحتى قاربت الدورة على التمام .

ولكن — وأقولها آسفاً — استطاع الرجل أخيراً ، أن يحدث ثغرة فى صفوفنا، بوسائل لاأزال أجهلها ، بأن لجأ إلى زميل — لا أذكر اسمه لأنه عزيز علىّ وأنا أقصد العبرة لا التنديد — فحمله على أن يلخص له قبيل انتهاء الدورة خطابا ألقاه فى إحدى الجلسات ، فأحدث الزميل صدعا فى الجبهة المؤتلفة ، وسايره بعض الزملاء — ولا أذكر أسماءهم أيضا — وأصررت أنا حتى نهاية الدورة على تجاهل الشيخ ، و إن كان الشيخ نفسه قد أثنى على الصحف بعد هذا ، ولجأ إلى مصالحتها فى أكثر من موقف .

* * *

وحدث أيضا حادث آخر أقل شأنا ، لأن «سبق الاصرار» فيه غير متوفر ، ولأن « اندفاع » الأستاذ لويس فانوس هو الذى أدى إليه ، فقد أخطأ الشيخ مرة مثل خطأ وهيب ، فانسحبنا ، فترك الرئيس كرسى الرياسة للوكيل، وجاء

إلينا فدعانا إلى مكتبه ، وهناك تم الاتفاق على أن يعتذر لويس ، وعلى أن يلقى الرئيس كلمة « رسمية » من منصة الرياسة ترضية للصحافة ، وفعل ، وسجلت الصحافة موقفها الثانى بوصفها السلطة الرابعة التى تتمم السلطات الثلاث التى تقوم عليها الحياة النيابية .

* * *

وحسب الصحافة فخاراً أتم وأوفى .. موقف لها حدث فى خلال هذا الشهر (يونيو) الذى تطالع الكتاب فى آخره وأنا أثبته لك فى اليوم العشرين منه ، مرقف العطف الذى ظفرت به من صاحب الجلالة مليك مصر الناهض ، وراعى أقداس الحريات فيها .

نعم استطاعت الصحافة حين اشتد ساعد الرقابة عليها ، وحيل بين ممثليها البرلمانيين وحرية نشر « كل » مايجرى فى داخل البرلمان من مناقشات ، أن تقنع الوزارة القائمة بأن هذا المنع ضار بها ، فصرحت الحكومة رسميا فى مجلس الشيوخ ، بأن لارقابة على مايجرى داخل البرلمان ، فلما تشرفت لجنة الرد على خطاب العرش بمقابلة صاحب الجلالة الملك فى يوم ١٧ يونيو الحالى ، تفضل جلالته فاسبغ على الصحافة عطفه وحمايته ، وخاطب رئيس اللجنة وأعضاءها بالنطق السامى الآتى :

« سررت جداً بنشر مضابط مناقشات البرلمان لأن ذلك يتيح للامة أن تطلع على أعماله » .

هذا موقف الصحافة من الرقابة فى أدق الفترات التى تجتازها البلاد ، ونحسب أن من حقها أن يسجل لها .

خاتمة البحث العابر

وبعد :

فقد يطيب لأحد القراء أن يسمى بحثى « غير عابر » بعد أن استغرق قرابة ثلث الكتاب ، فان وجد مثل هذا القارىء ، فأرى من واجبى أن أوكد له من جديد إصرارى على أن هذا البحث « عابر » ، وحسبك من حقيقة العبر فيه ، السرعة التى كتب بها ، فقد ظللت أرجىء البدء حتى حددت لصدور الكتاب (فى اعلانات الصحف) يوم ٣٠ يونيه الحالى وبدأت فيه فى اليوم السابع منه على أن أفرغ منه — وضعا وطبعا — فى عشرين يوما ، ولم أكن قد كتبت من هذا البحث حرفا .

والدليل على صحة هذه الدعوى ، أنى حدثتك عن النطق السامى الذى صدر فى يوم ١٧ يونيه ، فى هذا اليوم — إذن — كنت لاأزال أكتب هذا البحث ، فما يكون البحث العابر إذا لم يكن هو هذا الذى كتب على هذا النحو وفى هذا الأمد ؟ أقرر هذه الحقيقة لتكون شفيعا لى إذا أعوزتنى الشفاعة فى تقصير وقع منى ، أو خطأ ترديت فيه ، أو عمق ارتجاه القارىء منى فلم أحققه له .

والله أسأل أن يكون التوفيق قد حالفنى ، وأن أكون قد رسمت للحياة البرلمانية صورة متواضعة من خالص الصدق ، وأن يكون لملحوظاتى عليها أثر نافع فى تقدمها ، فتمشى قدما إلى الأهداف المرجوة منها ، حتى تحل مصر المحل اللائق بها بين الدول الديمقراطية حقا .

... هنا

(١)

وأقتل داء رؤية العين ظالماً يسىء ، ويتلى فى المحافل حمده

« البارودى »

(٢)

دار النيابة قد صفت أرائكها لا تجلسوا فوقها الأصنام والخُشُبا

« شوقى »

(٣)

« لقد عملنا على تخليص المصرى من الاستعمار الأجنبى ، وقد بقى علينا أن نخلص المصرى من الاستعمار المصرى »

« من البيان الحكومى الذى قدمت به ميزانية هذا العام »

مهه هناك

(١)

« إن خير المصلحين الذين عرفوا فى هذه الدنيا هم أولئك الذين بدأوا باصلاح أنفسهم » .

« برناردشو »

(٢)

« زنوا أغلاطكم فهى ثقيلة الموازين »

« بهناده »

(٣)

« إن الديموقراطية ليست شجرة تغرس ثم تترك ؛ وإنما ينبغى تعهدها بالرى والعناية والتقليم إذا أريد لها أن تثمر » .

« من مقال لجريدة إجبشيان مبل »

الملك

تشرف بمقابلة صاحب الجلالة الملك فى السابع عشر من هذا الشهر (يونيو سنة ١٩٤٢) حضرات رئيس وأعضاء لجنة الرد على خطاب العرش فى مجلس الشيوخ فخاطبهم جلالته بنطق كريم جاء فيه :

« سررت جداً بنشر مضابط مناقشات البرلمان لأن ذلك يتيح للأمة أن تطلع على أعماله » .

فازاء هذه الرعاية السامية التى ظفرت بهـــا حرية الرأى من صاحب العرش ، وإزاء هذه الحماية التى بسطها الملك الدستورى على قداسة الفكر ، لا يسع « النقد البرلمانى » وهو يعرض لأعضاء البرلمان بالتصوير والتحليل ، إلا أن يرفع تحيته مشبوبة حرّى ، إلى مقام الملك المفدى ، ويسأل الله أن يجدد بيقظته وشبابه ، مجد مصر وشبابها .

الباب الثالث

فى مجلس الشيوخ

هيئة المكتب فى الدورة الحالية « مع حفظ الألقاب »

الرئيس	على زكى العرابى باشا
الوكلاء	على كمال حبيشه بك[1]
	سليمان السيد سليمان باشا
المراقبان	حفنى الطرزى باشا
	محمد الشريف بك
السكرتيرون البرلمانيون	أنطون الجميل بك
	عازر جبران بك
	الأستاذ حسين الجندى
	الدكتور ابراهيم بيومى مدكور

الموظفون المتممون لإدارة الجلسة

السكرتير العام	امين عز العرب بك
رئيس المضبطة	ابراهيم بك عبد الوهاب
السكرتير الموظف	الأستاذ محمود الشاعر .

(١) كان حبيشه بك وكيلا للمجلس حين صدرت الطبعة الأولى ثم عين وكيلا للداخلية .

الشيوخ المحترمون

تصوير وتسجيل — وعرض وتحليل

نستهل الآن باسم الله الذى انفرد وحده بالكمال ، هذه الفصول التى نتناول بها أشخاص الشيوخ المحترمين ، وفيها تصوير لجهودهم ، وتسجيل لنشاطهم ، وعرض لآثارهم على هدى ماضيهم وحاضرهم ، وتحليل لأشخاصهم ، معتمدين فيها على مانشرناه تباعا فى جريدة « البلاغ » فى مدى ثمانية وعشرين أسبوعا ، مضيفين إليها بضعة فصول جديدة عن الشيوخ الذين عينوا أخيرا ، حفاظا على الفصول التى تناولنا فيها أولئك الذين أبطل تعيينهم المرسوم الصادر فى فبراير الماضى ، سواء منهم من أعادت الوزارة الحالية تعيينه ومن لم تعده ، وسنتناول الشيوخ كما قلنا فى المقدمة طائفة بعد طائفة ، مرتبين وفق حروف « ألف باء » ونبـــدأ الآن بشيوخ الرياسة .

« ١ »

الشيوخ

الذين ولوا رياسة المجلس

١ — على زكى العرابى باشا « الرئيس الحالى »

٢ — محمد محمود خليل بك « الرئيس السابق »

٣ — الأستاذ محمود بسيونى « الرئيس الأسبق »

١ — على زكى العرابى باشا

فى ٨ مايو انتهت مدة رياسة الرئيس السابق ، فعين العرابى باشا — وقد كان يومئذ وزيراً للمواصلات — رئيساً للشيوخ ، فهو — إذن — جديد علينا من حيث الرياسة ، والمدة التى ينزل فيها الرئيس الجديد ضيفاً على النقد لم تنته بعد .. حتى نجيز لأنفسنا أن نخرج به إلى نطاق المحاسبة . . . وإن كانت هذه الضيافة لاتحول دون التصوير العابر «من الظاهر» كما يقول الصيادلة .

ويحسن أن نقدم لهذا التصوير بنبذة موجزة عن حياة الرئيس — فقد تخرج الرجل فى مدرسة الحقوق من أربعين عاماً أو أقل قليلا ، وكان زميلا للشيخين المحترمين — جعفر ولى باشا وتوفيق دوس باشا — ثم اشتغل محامياً قرابة ست سنوات ثم عين وكيلا للنائب العمومى ، ثم مدرساً للقانون الجنائى فى مدرسة البوليس فمدرساً للمادة نفسها فى مدرسة الحقوق .

وفى سنة ١٩٢٤ عين رئيساً لنيابة الاستئناف ، وفى هذه السنة عرف سعد زغلول لأول مرة فى حياته ، وفى سنة ١٩٢٩ عين وكيلا لمحكمة مصر ، وفى سنة ١٩٣٠ عين مستشاراً فى محكمة الاستئناف ، وفى سنة ١٩٣٦ اختاره النحاس باشا عضواً فى وزارته ، وظل رفعته يختاره فى كل وزارة يؤلفها حتى عين رئيساً للشيوخ .

فهل كان الرجل عريقاً فى الوفدية حتى يقع عليه اختيار رئيس الوفد ؟

كلا . وقد قال العرابى باشا لأحد الصحفيين مرة : «إنه لم يتصل بالنحاس باشا إلا بعد أن وقع عليه اختيار رفعته فى سنة ١٩٣٦ » ولكن للأمر قصة معروفة ، خلاصتها أن زكى العرابى باشا حين كان رئيساً لنيابة الاستئناف ، اتهم مصطفى النحاس « المحامى » مع زملاء له فى القضية المعروفة بقضية « وثائق سيف الدين» وأشار العرابى فى خاتمة التحقيق بحفظه — فأبى عليه وزير الحقانية يومئذ هذا الحفظ — وقدم النحاس باشا إلى القضاء فجاءت براءته مؤيدة للرأى الذى ذهب إليه العرابى ... ومن ذلك اليوم وثق النحاس بنزاهة العرابى .

وأبرز ما فى الرئيس الحالى للشيوخ — شغفه بالتأليف القضائى ، وله فى شرح قانون تحقيق الجنايات كتاب ضخم يقع فى جزءين كبيرين .

الرئيس فى الجلسة

كان الرجل عضواً فى الشيوخ قبل أن يكون رئيساً عليهم ، لكنه لم يكن من عملاء نقداتى يوماً ، ولم أكن صيرفاً لجواهر المواهب فيه ، لأنه غين شيخاً وهو عضو فى الوزارة ، ولأنه آثر لنفسه أن يكون وزيراً صامتاً مغرقاً فى الصمت ، وأن يظل رجلا عابساً مسرفاً فى العبوس ، حتى خيل إلى — خطأ — أن الرجل لايحسن الكلام . . وخيل إلى — حين اختير للشيوخ رئيساً — أنه لايستطيع أن يحفظ النظام ، ونسيت — مأخوذاً بالشكل — تلك السنوات الطويلة التى كان فيها قاضياً ومستشاراً وحافظاً للنظام فى الجلسات التى كان يرأسها ، ويشهدها جمهور كنظارة المجلس ، وفيها محامون يتقاتلون بأسلحة البيان كأعضاء البرلمان . . نسيت هذا كله ، ودهشت عند ماقيل لى إن العرابى باشا عين رئيساً للشيوخ . . بل ظللت أطوف بالصحاب وأتحدث إليهم قائلا لهم : « بس يا خواتي — الراجل

الطيب ده . . ماله ومال الرياسة اللى عايزه ميت ناب أزرق فى بعض » .

وارتقبنا مقدم الرجل فى أول جلسة عقدت بعد صدور المرسوم بتعيينه — وأقبل ! . . أقبل كما خلقه الله ، قصير القامة ، ملىء الجسم ، جاد القسمات . ساكن سطح الوجه ، لا تبدو عليه التموجات التى يعتمد عليها أهل الفراسة فى الدراسة . .

أقبل الرئيس باسما ؟ ! ! فى اللحظة التى اتخذ فيها وكيل المجلس مكانه من منصة الرياسة ، فاتجه الرئيس الجديد إلى أريكة فى مدخل القاعة ، يريد أن ينتظر فيها حتى يتلى المرسوم الملكى بتعيينه ، ولكن الطرزى باشا أدركه قبل أن يجلس وأخذ بيده إلى الصف الأول من مقاعد الشيوخ قائلا له « تفضل هنا يا باشا » وأحسن الشيوخ استقباله فوقف فى أدب يرد تحيتهم ، وتلى المرسوم وصفق الشيوخ فحياهم ثانية . . . وصعد إلى المنصة فصفق الشيوخ فحياهم مرة ثالثة .

وبدأ يدير الجلسة مسترشداً بالجدول ، ومستشيراً أحد السكرتارين البرلمانيين فيما كان يبهم عليه — ولم تطل فترة التهيب أكثر من دقائق . . استمر بعدها يدير الجلسة والجلسات التى تلتها بروح القاضى الذى كان يدير جلسات المحاكم ، وظهر أن فى وسعه أن يضحك وقت اللزوم ، وأن يعبس وقت اللزوم ، وأن يسيطر على أعصابه إذا اشتد النقاش ، وأن يحرص على معاملة زملائه معاملة مهذبة ، غير طموح إلى أكثر من حقه فى السلطان الذى كفلته له اللائحة .

وقد قلت فى « البلاغ » ولا أزال أقول إن البوادر تدل على كفاية الرجل ، ولكن من خطل الرأى أن نصدر من الآن حكما له أو عليه ، فالكفاية البرلمانية لا تبدو إلا إذا حزب الأمر ، وتفاقم الخلاف بين الشيوخ ، وتعارضت التيارات بين الأحزاب ، فعرف الرئيس كيف يجنب المجلس هذه الصعاب .

والرجل حتى الساعة لا يزال يلقى احترام الجميع ، والريح لا تزال تهب على السفينة طيبة رخاء ، وهو لا يزال ممسكا بالدفة فى نظافة ويقظة ، فهل تأتى النتائج

وفقاً للبوادر ؟ لا أدرى . . . وكل الذى أدريه أن هذا الرئيس ينفرد بميزتين واضحتين وأحب أن أزعم أن فيهما خير عاصم له من الزلل .

الميزة الأولى : صحوة الضمير القضائى فيه ، يرعى تصرفه دائماً ويحدوه ، برغم شعوره بأنه الآن وفدى وعضو فى الوفد وله ميوله ككل إنسان .

الميزة الثانية : يقظة روح المشرع فيه ، فهو غيور على الشكل ، مستمسك بالنصوص ، مما يمكن له كرئيس لمجلس تشريعى من توجيه النقاش توجيهاً سليما . .

صحيح — أن لمحات من الميول ... أطلت علينا حيناً من خلف بعض عباراته ، ولكنه كان يحسن الإصغاء إلى حجج المعارضين ، ويبدو عليه أنه اقتنع أو كاد ، وخير ما فى القاضى أن اقتناعه ، يطغى على ميوله ، فترجح كفة العدل أخيراً .

لا يسع النقد البرلمانى — إذن — إلا أن يستقبل الرئيس الجديد بكثير من التحفظ ، ويدعو الله أن يكفى الرئيس شر ما فى الغيب ، وأن يكفيه أيضاً شر صديقنا الأستاذ « لويس فانوس » .

٢ — محمد محمود خليل بك

الآن يثب النقد من رئيس الشيوخ الحالى إلى رئيس الشيوخ السابق ليحدق « الناقد » بقوة فى ذلك الوجه المشرب بالحمرة ، يزينه شارب « أكاديمى » الهيئة . . موفور الهيبة . . ناصع الشيبة . . يكلله رأس ابيض منه الشعر و « تسبسب » . . وحمل فوق هام الرياسة جلال السياسة . . السياسة العالمية بكل رهبة فيها ، وبكل غموض يحدوها ، حتى لقد أوحى إلى هذا الرأس العجيب ، الذى يرسم على الفم العريض ابتسامة ذات ألوان ، تصلح للتوجيه وتؤثر فى المصير . أن أسمى صاحب هذا الرأس مرة « كليمنصو النمر » !!! وأن أسميه أخرى « الرئيس هريو » !!!

الآن يثب النقد أو ينساب إلى هذا الرجل الرابض فى عزلة وغضب ، وراء

صومعة من ذهب ، لم تستطع أن ترد عنه شماتة الشامتين وصغار الكاتبين ممن كانوا بالأمس يرهبونه ويحرقون من حوله البخور ، فجاءوا اليوم يغضبونه

انتخب شيخا فى سنة ١٩٣٦ عن دائرة شبين القناطر وعين رئيسا للشيوخ فقضى فى الرياسة سنتين ، ثم جددت المدة ثم صدر مرسوم فى العام الفائت باعتبار مدة تعيينه الثانية ممتدة إلى ٨ مايو سنة ١٩٤٢ حيث خلفه الرئيس الحالى

ولا عاصم لهم من حياء الوجه أو من وخز الضمير ، فكثرت سكاكينهم بعد أن بارح الرجل كرسى الرياسة ، وأعلنوا عليه الحرب طاعنين من الخلف ، على طريقة الجبان إذا ما خلا وحده بأرض ! !

مليونير . . ولكن؟

ويحسن أن تعرف أن محمد محمود خليل بك . . هو أحد أفراد قلائل فى مصر يحملون لقب « مليونير » ويجر وراءه ثوبا مزركشاً بأسماء شركات تعد بالعشرات ، رياسات بعضها معقودة اللواء بسعادته ، وبعضها الآخر عقد له لواء العضوية فيها فقط . ! !

فهل تعنى هذه الملايين ، أن رئيس الشيوخ لا تعرف شماله ما تعطيه اليمين ؟ أو هل تعنى هذه الملايين أن الرئيس من أهل التبذير ؟ كلا ياسيدى .

إنه رجل عادى جداً فى حياته ، معقول جداً فى زيه وفى عدد بذلاته .

على أن الرئيس فرنسى النظافة والنظام ، يزدهر حيناً فيحمل فى يده زهرة ، وقد يزدان صدره بوردة ، ويتأنق حينا ، فتصادف فى العنق ربطة تغرى بعض الشيوخ بتقديم « سؤال » عنها أو « استجواب » عن كيفية الحصول عليها ! !

أتراه سعيداً ؟

وأنا أعرف مئات من الشيوخ والنواب ومن غير الشيوخ والنواب ، يسأل بعضهم بعضاً أو يتساءلون فيما بينهم و بين أنفسهم : أترى رئيس الشيوخ سعيداً سعادة تعادل ملايينه ؟

وعلى الرغم من أن هذا السؤال الشخصى ، خارج عن اختصاص النقد البرلمانى ، فانى أتولى الجواب عليه إشباعا لرغبة السائلين من ناحية ، ولأن رئيس الشيوخ شخصية ضخمة قد تغدو تاريخية ، ويتطلب دارسوها الإلمام بالشىء الكثير عنها من ناحية أخرى .

والرئيس إلى ماقبل التعكير الأخير الذى أنتجه تنكر الصديق وشماتة الخصم ، لم يكن محروما من أسباب المرح والسعادة ، فهو يعيش فى بيئة «فرانكو- آراب» إذا تخلت هذه عن مده بالسعادة ، تولت تلك شحن المقدار اللازم له من

هذه السعادة . . وكانت مكانته فى الدولة والمجالس والشركات والأملاك ، تكثر من حوله عدد المتملقين ، والملق فى ذاته مبعث سعادة و «حب الثناء طبيعة الانسان» كما يقول الشاعر . . . وإن كنت أعتقد أن الرئيس السابق يعاود النظر فى هذا البيت بعد الذى جرى عليه أخيراً .

والرئيس «أرتيست» أو ذواقة للفنون ، فهو من هواة التحف والصور والرسوم ومختلف ألوان الفن الجميل ، ومحب الجمال يجد فيه كثيراً من السعادة ، وهو من هذه الناحية لا يضن على الجمال بالمال ؟ !

وكان الرئيس يسعد كثيراً باحسانه إدارة الجلسات ، فاذا ادلهم الخطب ، وحزب الأمر ، وهددت الأحزاب بعضها بعضاً ، وتكهربت أعصاب الوزراء ، وخيف على التعاون بينهم و بين المعارضة ، واستطاع الرئيس أن يستخدم المهارة فى إنقاذ الموقف ، ملأت الابتسامة وجهه ، وشاعت السعادة فى أساريره ، وطاب له أن يستقبل زائريه «بالزوفة» فى مكتبه ، ليحدثهم حديثاً لبقاً يعرّض فيه «من تحت لتحت» بأولئك الذين يعرّضون فى مجالسهم أو فى مجلاتهم بقدرته كرئيس ، مدفوعين إلى هذا التعريض بتحريض من بعض الطامعين فى الرياسة .

على أن الرئيس السابق كان له ، إلى جانب هذا الحشد الحاشد من بواعث السعادة ، ما كان يحمله أحياناً على «السرحان» وكان ينتهز فرصة الخطب البرلمانية الطويلة التى يلقيها بعض الشيوخ ، ويعتمد هو ذقنه بيده ويضرب فى الخيال ، أو يحدق فى سقف القاعة فى نظرات شاردة لا تخلو من ذكريات آسية .

وقص علىّ صاحب سعادة من الشيوخ أنه زار الرئيس مرة فى قصره الفخم فطاف به حدائقه الغناء ، وأراه كل معجب ومطرب من تحفه وصوره ، ثم تنهد أخيراً وقال له :

— تعرف يافلان . . . كل القصر اللى انت شايفـــــه . . . مين فيه ؟ أنا وحرمى ! !

ثم سكت قليلا وقال :

— وكلبى . . .

ويقول الشيخ لى : « وأقسم لك يافلان . إن عينيه امتلت بالدموع وتأثرت جداً » .

ذلكم هو محمد محمود خليل بك المليونير . .

الرئيس . . الإدارى :

أما محمد محمود خليل بك الرئيس الإدارى فى مكتبه، فكان شعلة من النشاط والذكاء ، يفهم الصغيرة والكبيرة ، ويعرف « الشغال » و « البطال » و « يصهين » عن الكثير فيحسبه بعض الموظفين أخا قسوة حينا .. وأخا محاباة حينا . . فاذا كنت صديقا له . وسألته لهذه « الصهينة » سببا . . وأدلى لك بالأسباب ، فسرعان ماتلتمس له أكثر من عذر فيها .

وقد قال لى السكرتير العام مرة « الراجل ده من ساعة ماعملوه ريس هنا .. والموظفين هالكانين من الشغل .. محاضر إيه .. ومطبوعات إيه ودوسيهات إيه .. ومضابط إيه . . شىء مالوش آخر » ولا أدرى إن كان السكرتير العام لايزال عند هذا الرأى ، أم حملته التجربة على إدخال بعض التعديل ؟ !

أثار الشيوخ فى القاعة مرة لغطا حول شكاوى حملها البريد إليهم من بعض موظفى المجلس، وقال عبد السلام بك عبدالغفار إن هؤلاء الموظفين «منغنغون» و « لابيعملوش حاجة بالنسبة لغيرهم » و « بيا كلوا لوز وسكر » ولكن الرئيس سارع إلى « كلفتة » المسألة لافتا زملاءه إلى أن أعمال المكتب لاينبغى أن تثار فى القاعة جهرة .

وزرت الرئيس مرة فى مكتبه، وجاءت مناسبة هؤلاء الموظفين فقال لى مبتسما : « عبد السلام له حق ولا لوش . . وثق أن فى المجلس موظفين شغالين أد

الحكومة ميت مره . . ولكن فيه كمان موظفين لو أردت أشغلهم مالاقيش لهم شغل . . فيه استحاله ماديه لتشغيلهم . . وفيه موظفين بمرتبات ضخمه خدوها من بدرى قبل رياستى ، ما أقدرشى أعمل لهم حاجه . . وفيه ناس حظهم مش تمام لأنهم عينوا أيام التدقيق وتطبيق القانون المالى واللوايح فى مدتى . . ما أقدرش أحابيهم . . لكن تعال يا حبيبى للى ما لهمش شغل . . فلان الموظف قريب زعيم الحزب الفلانى . . وعلان قريب الشيخ المحترم فلان . . والأحزاب أهى زى ما أنت شايف مش عايزه تبطل خناق . . فلو فصلت أى واحد من الموظفين دول ، تبص تلاقيهم دخلوها فى دور تانى ، وانتقلت المسألة من موظف زائد عن الحاجة . . إلى اتهامات حزبية . . وده مش من مصلحة البلد فى شىء . . فهل ألام أنا على الحرص على الوحدة والصهينه على الحاجات البسيطة دى » .

الرئيس والنقد :

وقد كنت أحسب رئيس الشيوخ السابق أضيق الناس بالنقد صدراً ، وأشدهم بالناقد تبرما ، وضاعف هذا الحسبان عندى ، أن الصحف ظلت طويلا تكتب عن القضية التى رفعها رئيس الشيوخ ضد أحد الزملاء ، وكنت أعجب للرجل وضيق صدره ، حين كان بعض الزملاء يؤكدون لى أن أكثر من مسعى بذله الكبراء عند الرئيس ليتنازل عن القضية فأبى . . حتى كان ذات يوم واستدعانى الرئيس إلى مكتبه على غير تعارف سابق ، ليضفى على قلمى العاجز بعض تقديره ، فشكرت له التقدير ، وخرجت من لدن الرئيس « دائخا » أو « ملطوشا » أسائل النفس : أهذا الرجل من الدهاء بحيث يثنى على من (نكشه) كثيراً و (قفش) له كثيراً ... ليكون فى الثناء مخدر للناقد وربح للمنقود ... أم هى طبيعة الرجل يقدر النقد حقا ؟ وإن كان يقدره حقا ، فما باله قد ضاق بالزميل الآخر صدراً ؟ فقاضاه وأصر على القضية حتى حكم بتغريم الزميل ؟

وأصررت أنا الآخر على امتحان هذا الرئيس ، فبدأت أقتفى أثر خطواته ، كاشفا للناس (حيله) فى الطى و (الكلفتة) لاقفا بقلمى كل ما صنع من سحر يوفق به بين الحكومة والمعارضة . . وانتظرت أن يغضب الرجل من نقداتى . فما كان منه إلا أن أرسل إلىّ — بوصفه رئيسا لمجلس الشيوخ — خطاب تقدير يشكر فيه خدماتى للحياة النيابية . . وازدادت حيرتى و واصلت نقداتى . . فلما شكانى إليه محمد شفيق باشا قال الرئيس على مسمع من عبد الحميد سليمان باشا وخيرت راضى بك : « يا سيدى ... شفيق مش محمد محمود خليل .. قول فىّ أنا زى ما انت عايز ازداد انبساط وتقدير ، و بلاش شفيق ده راجل عصبى » ثم بدأ يقص على عبد الحميد باشا رأيه فى طريقتى .

ثبتت إذن سعة صدر الرئيس — ولو إنى مع الأسف لم أستطع التدليل عليها إلا بذكر حديث يتصل بشخصى — فما علة ضيق صدره إذن ببعض الزملاء ؟

واستخرت الله وسألت الرئيس هـذه العلة فعرفت منه أنه يقدر النقد عند ما يؤمن بأنه « نقد » أما أن يكون أكذوبة أو سخافة أو شيئا لا علاقة له بالرجل العمومى ، فهو خصم لمثل هذه الألوان ، وضرب مثلا مجلة كبرى تختلق عليه حديثا جرى بينه و بين جهة عليا كأن المحرر كان ثالث المتحدثين . . أو تنشر صورة تبديه كأنه عاض بالنواجذ على الرياسة من غير داع لهذا التعريض . . أو تنسب إلى شركة تملك باخرة أنها أصلحتها بآلاف الجنيهات ، ليتنزه الرئيس فيها إلى رأس البر وهو كذب لا أساس له من الصحة .

إدارة الجلسات :

أما محمد محمود خليل بك فى كرسى الرياسة ، فهنا يطيب للناقد أن يتحدث ، و يطيب للقارىء أن يستمع ، و إذا كنت قد أسميت المغفور له الأستاذ الجندى ذا الناب الأزرق ، فمن حق الرئيس أن يكون ذا النابين ، ناب يكشر عنه و يرفقه

بتعقيد فى الحاجب وتعقيص للجبين ، وغضبة يستلفها من قبيلة (مضر) فى وقت اللزوم ، وناب يلين حتى يسيل كالماء عذباً فراتاً ، ويرفقه بابتسامة عاتبة حيناً ، و « مدهلزة » تارة و «مكلفتة» تارة ، إلى آخر الألوان التى يقتضيها المقام . . . ولو لم يكن لرئيس الشيوخ هذان النابان ، لما سارت الحياة النيابية فى المجلس الموقر سيرها الهادىء ، بين حكومة لم تكن تستند إلى أحزاب قوية ، وبين معارضة كانت من الكثرة يوماً بحيث أثارت أكثر من عاصفة وأشد من ضجيج .

اللائحة المطاطة :

والرئيس حامى حمى اللائحة ! ! ! يتشبث بأحكامها و (يدعبس) فى موادها ، ويدق جرسه ، ويطرق بشاكوشه ، ويعلن أن اللائحة يجب احترامها ، وأن فى السويداء رجالا يذودون عن هذا الاحترام . . وكل هذا متى كان فى التشبث بأحكام اللائحة إنقاذ لموقف .

أما إذا كانت أحكام اللائحة على غير مايرام ، وتمسك أحد الشيوخ بهذه الأحكام ، فان الرئيس يسارع إلى « الشخط » و « التكشير » أو إلى الابتسامة واللين — حسبما تقتضيه شخصية الشيخ المخاطب — ويقول له : « اعمل معروف ياحضرة الزميل خلينا نشتغل . . كلنا عارفين أحكام اللائحة زيك » أو « ده شغلى أنا من فضلك » .

مراعاة الشخصية :

وأهم مميزات هذا الرئيس مراعاته شخصية المخاطب أو « مقتضى الحال » كما يقول أهل اللغة ، فكان مع المرحوم يوسف الجندى غيره مع لويس فانوس .

وهذه الطريقة لاتخلو من المؤاخذة وإن كان يقتضيها حسن الإدارة أحياناً ، ويحتمها جوالمجلس الذى تكهر به الخصومات فى بعض الأحايين ، فتحمل الرئيس على أن يلبس أكثر من رداء ويبدى أكثر من لون .

وكان بعض الشيوخ يتهمونه بمحاباته الأستاذ يوسف الجندى، وكان آخرون يتهمونه بخوفه منه، والحقيقة أن الرجل كان يدارى زعيم المعارضة، ويسترضيه أو «يشخط» فيه حسب الجو، لا محاباة ولا خوفا، فحين . . يعرف أن فى يد الجندى زمام الأكثرية، أو فى نيته إثارة أمر ذى خطورة يلجأ الرئيس إلى « محاياته » حتى يخيل إليك أنه محاب له أو خائف منه، أما إذا عرف الرئيس أن شيوخ اليمين يؤلفون الأغلبية ، تنمر للجندى و « شخط » و « نطر » وثارت العاصفة وأصر الرئيس وهدد بالاقتراع وعجب غير الفاهمين ! !

والرئيس «يستلطف» شيخاً بعينه كعبد السلام عبد الغفار، فيلقى له الحبل على الغارب، إلا إذا (زودها) فان الرئيس (يتنمر) فاذا (لايمها) عبد السلام، فقد كفى الله الرئيس الصدام، و إذا زعق عبد السلام، لاينه الرئيس حتى يستتب الأمن والنظام، فى دولة الثورة و « الهيجان » .

ويعرف الرئيس موضع الضعف عند الكثير من الشيوخ، فيسدد سهامه إليها، أو ينفذ إلى غرضه منها، فاذا أطال الشور بجى بك مثلا، لجأ الرئيس إلى الجرس والشاكوش وأرسل (من تحت، لتحت) بعض الغمغمات والمقاطعات، فيثور الشور بجى، ويبارح المنبر هائجاً مائجاً محتجاً غاضباً، فيبتسم (كليمنصو) لأن هذا هو المطلوب !!!

تكتيك الرياسة :

وكان للرياسة « تكتيكها » الخاص فى إدارة الجلسات، وهو يرى أن التزام الشكليات والترجمة عنها « بغير تصرف » هو أحد عيوب الحياة البرلمانية، لأن فى الأخذ والرد، مضيعة لأثمن الوقت، ومن هنا اعتنق الرئيس دين « الكلفته » والطى وحدث ماشئت عن براعة الرئيس السابق فى تأجيل الاستجوابات المحرجة إذا عرضت، وفى (كلفتها) إذا نوقشت، وفى (التدقيق) إذا رأى فيه مضايقة للمستجوب .

وذات مرة قدم الأستاذ محمود بسيونى — بوصفه زعيما للمعارضة — استجوابا عن حذف الرقابة الآيات القرآنية التى كانت صحف الوفد تنشرها داخل « إطار » للايحاء والتوجيه والتعريض، وحضر الجلسة مدير الرقابة والنشر يومئذ — الدكتور محمود عزمى — ووقف الأستاذ بسيونى يشرح استجوابه ، ومن خلاله توجه إلى الدكتور عزمى قائلا فى أسلوب العاتب :

— «إن الله يدافع عن الذين آمنوا» تشطبها ليه يا ابنى ؟ هُمَّهْ الوفديين بس اللى آمنوا ؟

ورد أحد شيوخ اليمين :

— مش ممكن يكونوا همه أبداً

وضج المجلس بالضحك ولكن الرئيس دق أجراسه غاضباً وقال للاستاذ بسيونى « شاخطاً » :

— لا يجوز توجيه الكلام لموظف أبداً (يقصد عزمى) .. اقرأ اللايحه يابيه عشان تعرف

وهى عبارة كما ترى تحفر أخاديد من الألم فى قلب الاستاذ بسيونى ، لأنه يُرمَى بعدم معرفة أحكام اللائحة وكان رئيساً للمجلس ! ! ولكن البيه البسيونى لم يشأ أن يتنبه عليها وأجاب فى دهاء :

— حاضر يا سيدى ، ما هو ما فيش تكليف .

وعاد الشيوخ يضجون بالضحك، وأفلت زمام الجو المهيأ من يد الاستاذ بسيونى، حين ذكر أن اللورد كرومر كان أكثر سخاء على الصحف من أيامنا ، فضج بعض الشيوخ وانتهزها الرئيس فاعلن غضبه دقاً بالجرس وطرقا بالشاكوش ، آملا بهذا أن « يلخبط » غزل البيه البسيونى و يفقد الاستجواب قوته .

ومما يدل على قوة الرئيس فى (لخبطة الغزل) أنه مرة سلك نفس المسلك مع عبد السلام بك عبد الغفار ، فغضب هذا «وتنرفز» واحتج» فصالحه الرئيس، وقال

له (تفضل تـكلم ياعبد السلام بيه) فقال عبد السلام: (أتكلم إيه؟ بعد ماطيرت اللى فى مخى؟) وعبثاً حاول عبد السلام بك أن يسترد شيئاً من الكلام الذى طار ، فبارح المنبر والرئيس يحجب بيده ابتسامة على فمه والشيوخ « يسخسخون » .

أسلوب الرئيس :

والرئيس غير ضليع فى لغة الضاد ، ولـكنه يعجب بالضليع فيها ، و يمتاز هو بأسلوب دپلوماسى راق ، يشبه الأسلوب الذى يجرى عليه الساسة العالميون ، وهو مهذب فى مخاطبة الشيوخ ، ولا ينسى فى غضبه أن يخاطب من يهاجمه بقوله : (يا حضرة الزميل) .

ورئيس الشيوخ من (المدرسة القديمة) فى الأسلوب العربى . و يضحكى أن سعادته كان مصراً على تسمية الصحفى (مكاتب) وعبثاً تحاول إقناعه بأن هذه التسمية لا تقال إلا للمراسلين فى الأقاليم .

و يعتبر الرئيس حلالا للمشكلات بصفة عامة ، و إذا تعقدت الامور سارع إلى رفع الجلسة للاستراحة ، واجتمع برئيس الحـكومة مرة ، و بزعيم المعارضة أخرى ، و (وز) الشيخ الفلانى ذا التأثير ، على الشيخ الفلانى الذى يتأثر به ، ولا تـكاد تمضى نصف ساعة ، حتى يعود الرئيس إلى المنصة باسما ، يتبعه الشقيقان : الصفاء والسلام !

ابن نـكته :

و يعتبر الرئيس (ابن نـكتة) . تحدث المغفور له الاستاذ الجندى مرة عن الأحكام العرفية فصاح فيه اللواء شريف باشا :

— هل أقرها البرلمان وأنت من ضمن والاّ لأ !

ورد الاستاذ الجندى بحركة تبرم :

— من فضلك تسكت انت .

وغضب شريف باشا — الرجل الطيب — وقال فى بساطته المعروفة :

— ماتشوحليش بإيدك كده يايوسف ياجندى . .

وقال الرئيس ليوسف غامزا بعينيه :

— ممنوع التشويح بأمر اللايحه يايوسف بيه .

وضحك الشيوخ والجندى معهم ، ومرت العاصفة .

الشيوخ الجدد :

وكان للرئيس طريقة فى استقبال الشيوخ الجدد تناهت فى المكر ، فاذا عين الشيخ أو انتخب ، وأراد أن يتكلم صدمه الرئيس وقاطعه ، واشتد معه ليعجم عوده ، فاذا عرف أن الشيخ (خواف) زاده خوفا وحمله على الانضمام إلى صفوف الصامتين ، وإن رآه (صلباً وقوياً ومعتزاً) احترمه واستجاب له كلما رفع أصبعه طالباً الكلمة ، وإن وجده وسطاً ، اتخذ إزاءه طريقاً وسطاً أيضاً .

وهذه الملحوظة تكمل أختاً لها سابقة أشرنا فيها إلى عناية الرئيس بدراسة شخصيات الشيوخ .

الرئيس بالإجمال :

وإذا سألتنى — ذمة وصراحة — رأيى فى رئيس الشيوخ السابق . . فإنى أجيبك — ذمة وصراحة — إن هذا المجلس التشريعى الأعلى لهذا البلد المسكين المتعثر ، فى ذلك الظرف الدقيق العصيب ، الذى اجتازه فى السنوات الأخيرة ، كان فى حاجة — أىَّ حاجة — إلى رياسة هذا الرجل الحصيف ، الذى عرف كيف يقود السفينة بين الأمواج ، ويجنبها خطر الصخور ، ويفيض من شخصيته ومهارته ، على ظلمة الخلاف الحزبى كثيراً من النور .

خاتمة :

فمن دواعى الأسى بعد كل هذا التوفيق الذى حالف الرئيس السابق سنين ،

أن يرى فى آخر الجلسات التى تولاها رأيا، يمكن لخصومه من تسديد هذه الطعنات إليه ، مع أن الرجل كان يعتقد — على ما يقول هو — أن تصرفه كان تصرفا سليما ، وأن المسيو چاكيه المستشار الملكى لوزارة الخارجية أبلغه أنه على حق فيه من الوجهة الدستورية .

من دواعى الأسى — سواء أكان الرجل مخطئا أم كان مصيبا — أن تكون هذه هى النهاية لجهوده ، وأن يعيد مصيره إلى الأذهان ، مصير ذلك المجد الطويل العريض الذى انعقد على جبين مستر لويد چورچ ، الذى قاد بلاده إلى النصر ، وفى آخر لحظة لم يحسن كسب الصلح لها ، فأهمل وانزوى ، وإن كنت أنا شخصياً من المؤمنين بأن محمد محمود خليل السياسى لايموت .

عيبان اثنان فى الرجل — ومن ذا الذى خلا من العيب ؟ — أولهما مراعاته خاطر الحاكم ، والآخر طموحه إلى الاستئثار بحقوق للرياسة ، تجاوز مايعطيه روح اللائحة .

فاذا تناسيت العيبين فقد كان الرجل رئيساً بحق ، ورئيساً هائلا ، ترك للحياة البرلمانية ثروة من التقاليد تفاخر بها وتباهى .

٣ — الأستاذ محمود بسيونى

والآن يجىء دور الرجل الطيب .. الأستاذ محمود بسيونى نقيب المحامين سابقا ، والزعيم الرسمى للمعارضة الوفدية فى مجلس الشيوخ سابقا أيضاً والوزير الأسبق « برضه » و « البيه البسيونى » — كما أسماه ناخبوه عندما كان يخوض معارك الانتخابات — شخصية محبوبة من جميع عارفيه ، ولعله الرجل الأوحد الذى غرق فى الحزبية إلى الأذنين ، وظل صديقاً لكل عضو فى كل حزب ، إذا التقى به طوى على عنقه الساعدين ، و (فرقعت) قبلاته على الخدين ، وفى الصوت الأجش الحبيب يروح يقول لألد الخصوم : (وحشتنى قوى يا ابنى) ثم يسأله عن السيد

الوالد والست الوالدة . . و « المحروس » إن كان له ولد و « لولو » إن كان له كلب ؟ !

الرئيس الأسبق للمجلس
وهو شيخ معين سنة ١٩٣٦

وأنا أحب هذا الرجل لله فى لله ، وإن كنت لم ألقه فى حياتى غير مرات معدودات ، آخرها كانت منذ سنوات فى منزل صديقى فريد بك الرفاعى . . ويومئذ عرف أنى (منياوى) فأبى إلا أن يسألنى عن قريتى (سواده) وعن عائلتى ، ثم نهض فعانقنى وحملنى لوالدى سلاما مشبوبا ، وظل يثنى على المرحوم والدى ساعة من الزمن ، وإلى اليوم لا أعرف أكان يعرف والدى حقا أم لم يكن يعرفه .

مثل هذا الرجل لايمكن إلا أن يحب .

مثل هذا الرجل الذى ولى وزارة الأوقاف يوما ، وسمع امرأة فقيرة تحتج على مدير المكتب لأنه لا يمكن لها من مقابلة الوزير ، فخرج الوزير بسيونى و « خلص » جماعة « المتخانقين » وقبل رأس المرأة ، وأخذ بيدها إلى مكتبه ، وسألها عن صحة والدها . . وأكد لها أنه كان صديقا له . مثله كيف لا يحب ؟

زعيم المعارضة :

ولكن . . هل هو صالح كبرلمانى وكزعيم للمعارضة فى البرلمان كما كان ؟ إنه صالح « لترويق الدم » إذا حزب الأمر وتكهرب الجو . . . وصالح

لإرسال الابتسامات إلى شفاه تتقاتل عليها عبارات الهيجان والغليان .

و بسيونى بك كان فى الشباب محامياً موفقاً ، وفى الرجولة محامياً بارزاً ، وفى الكهولة محامياً وسياسياً و « كل حاجه » أما اليوم فقد كبر . . ويبدو أن الكبر « يصعب » على الشيخ فهو يحاول أن يملأ فراغ زعامته أحياناً ، فيعتلى المنبر . . و « يشوح » بذراعيه على طريقة المحاماة قديماً . . ابتغاء التأثير ، ولكن الصوت لايواتيه . . ومخارج الحروف لم تعد سليمة . . و « طاقم الأسنان » يقفز من فمه كلما قفز صاحبه ، فيكون له من نفسه عدواً يحذر .

وطريقة الشيخ فى الخطابة . . طريقة « حبيه » غير برلمانية ، بل تثير الضحك فى مواقف .

وكان المغفور له الأستاذ الجندى لايرضيه من الأستاذ بسيونى قوله يخاطب سرى باشا رئيس الوزراء يومئذ : « عيب . . عيب يابنى تضييقك على الحرية وأنت الرجل العظيم النبيل . . الكريم . . نعم ياصاحب الدولة إنا نقدرك . . ونقدر نزاهتك ونقدر عبقريتك » .

ويظل الرجل يثنى على سرى باشا ، فينطلق المؤيدون يصفقون ، والأستاذ الجندى يضرب كفا بكف ، ويبسمل ويحوقل .

ويبدو أن الأستاذ الجندى تنبه لهذا ، فكان يشترك فى كل استجواب يقدم من الأستاذ بسيونى ، ويدعه يتكلم كما يشاء ، ثم يقف الأستاذ الجندى ليمحو أثر « الدروشة البسيونية » بكلام « تمام » يعيد إلى المعارضة ريحها التى ذهبت .

بين الرياستين :

وقد خيل لكثيرين — خطأ أو صوابا — أن بسيونى بك أغضبه خروج الرياسة من يده ، بدليل أنه ظل بعض العام مضربا عن الكلام .. فلما قدم العهد ، وبدأ بسيونى بك يعود إلى المنبر ، رأى فى الكرسى الذى كان يشغله هو . .

رجلا آخر « يكيد » حقا و « يغيظ » . رجلا صارماً فى يده ناقوس وشاكوش ، وفى فمه كلام « يفلق الحجر » . ولعينيه غمزات « تفوّر الدم » . . وعلى شفتيه ابتسامات تقول لبعضهم : « ومكروا .. ومكرنا .. فانظر » رأى الأستاذ بسيونى هذا كله .. فابتلع رضا به وحاور وداور .. واستخدم منتهى المهارة حتى لا يصطدم الرئيس القديم بالرئيس الجديد ، فكان الجديد كلما ضيق على بسيونى بك الخناق ، ونبهه إلى اللائحة ، أجاب بسيونى بك فى دهاء : « طيب يا ابنى .. طيب يا أخويا . طيب ياسيدى . . حاضر . . بس ماتزعلشى » ثم « لايمها » وبارح المنبر ، إلا إذا احتج الأستاذ الجندى و « سنده » فان « الملايمة » ساعتئذ كانت تجىء من « الرئيس هريو !! » على طريقة « الحبل اللى ينشد ينقطع » و « شيلنى وشيلك » .

الدروشة ونوادرها :

و « ... لدروشة » بسيونى بك أنصار وخصوم . فمن الناس من يعتقد أن الرجل « واصل » وله نفحاته وبركاته . . ومن الناس ماكرون يقسمون لك أن تحت القبة ماكراً مثلهم لاشيخاً . . وأن بين حبات المسبحة تسبح أفاعيل من الدهاء وتجثم ألوان من الحيل . . والرجل يعرف أنصاره وخصومه . ويعانق الخصوم ثم يقدم يده إلى أفواه الأنصار ، كما يقدم شيخ الطريقة يده إلى مريديه ليطبعوا عليها القبلة ..

ومن نوادر الأستاذ بسيونى التى تروى ، أن أحد المفصولين من وزارة قبل عهده ، تقدم إلى معالى بسيونى بك وزيرها يشكو إليه أمره ، ومايعانيه القطا من الأخوه الصغار ، والأم الملتاعة ، والأب الشيخ ، والأخت الباكية . فما كاد بسيونى

يستمع إلى هذه القطعة (الدرام) من الأدب الوصفى ، حتى أصدر أمراً كتابيا باعادة الموظف،فأسقط فى يدالمسئولين ، وحملوا إليه (دوسيه الولد) فاذا هومفصول باختلاس فصاح بسيونى : (لـكن أهله ياولدى يا كلوا منين ؟ عاتوكلوهم طوب ؟) وقيل للوزير إن فى الخيرات متسعا .. فتنفس الصعداء ، وأجرى على المحرومين من الخيرات ماعوضهم خيراً من المرتب .

بسيونى الداعية :

ولعل الأستاذ بسيونى أبرع أبنـــــاء الصعيد فى (الدعاية للانتخاب) فى أقاليم الصعيد .

قيل له مرة من بعض الأسيوطيين إنه علم أن صعابا تعترض المرشح الوفدى من بيت بعينه فى قرية بعينها . . فذهب هو إلى هذا البيت . . فتلقوه بالترحيب، فترك كبارهم و بدأ يقبل أطفالهم ، و يسأل عن الغائب منهم .. و ينادى (أم فلان) قائلا (اعملى لى شوية كشك ببيض وهاتى لى آكل) .

وطرب هؤلاء السذج من تواضع (البيه البسيونى) وعلى قنطرة من هذه (الدروشة) انقلب أفراد هذه العائلة أنصاراً أشداء للمرشح الوفدى ، إكراما للبيه البسيونى .

هذا هو زعيم المعارضة ذو الناب الـكهنوتي .. أتراه شيخاً مطمطما حقا أم شيخاً محترماً ذا أنياب ؟ لست والله أدرى ، وكل الذى أدريه أن الرجل إذا كانت قدتقدمت به السن فى حاضره ، فهو يترك ميراثاً حافلا بالـكفاية فى ماضيه ، فاذا كان بعض الشيوخ يرون أنه كان كثير التساهل فى إدارة الجلسات يوم

كان رئيساً للمجلس فان للطيبة فى هذا التساهل دخلا ، وللرجل الطيب فى فائدة التساهل رأيا ، ومهما تختلف الآراء على بسيونى الشيخ ، وعلى بسيونى رئيس الشيوخ ، فانها تجتمع كلها على بسيونى الوطنى المؤمن ، الذى خاض غمار الثورة غير هياب ، ومشى فى طليعة الصفوف يناصر سعداً ، وظل حتى اليوم ثابتا على المبدأ .

والنقد البرلمانى يرسل له فى خاتمة هذا الفصل الذى وافق مرضاً طويلا أقعده عن النشاط من شهور ، تحية صادقة وتمنياً طيباً حتى يعود إلى مكانه من الحياة البرلمانية .

« ب »

الشيوخ

الذين ولوا رياسة الوزارة

هم : (مع حفظ الألقاب)

١ — حسين سرى باشا

٢ — عبد الفتاح يحيى باشا

٣ — على ماهر باشا

١ — حسين سرى باشا

حسين سرى باشا الآن عضو فى الشيوخ ، وللنقد أن « يتبجبح » مع دولته ، من غير أن يخشى شيئاً من ذلك الذى كان النقاد يخشونه فى حسين سرى

رئيس الوزراء ووزير الداخلية والحاكم العسكرى ، على أنى أحمد الله أن مكن لى من الكتابة عن الرجل فى أثناء توليه الحكم ، غير مبال شيئاً من هذا هذا الذى يباليه الناس عادة ، وكل ما تسلحت به بسملة استهللت بها يومئذ مقالى ، واستعنت باسم الله القادر على ذلك الحاكم ، وارتقبت بعد ظهور المقال ، أن يتجاهل الرجل ما أصاب من ثناء ، وأن يتجهم لما أصيب به من نقد ، شأن جهرة حكامنا ، ولكن الرجل — ولم يكن بينى و بينه تعارف سابق — عنى باستدعائى وحرص على أن أتعرف حقيقته ، فنزع عنه « مكياج » العنف الذى عرف به والكبرياء الذى ذاع عنه ، وأمضينا فى مكتب الرياسة وقتاً طويلا ، نسيت فى خلاله أنى أخاطب رئيساً للوزراء ، ولم أعد أذكر إلا مواطنى المنياوى حسين سرى ، وخرجت من مكتبه ، وأنا أرثي للرجل ، ظَلَمَه ظاهره ، فحجب عن الناس حقيقة كان من حقها أن تظهر .

حسين سرى باشا كان شيخا معينا ثم خرج بالاقتراع النصفى ثم عين بمرسوم فى أثناء حكمه ثم أبطل النحاس باشا هذا المرسوم ولكنه أعاد تعيين حسين سرى باشا فى فبراير الماضى

بين الحقيقة والخيال :

وعندى أنى فى حاجة إلى قدر غير هين من عنصر التخيل ، حين أهم بإلقاء نظرة على حسين افندى سرى المهندس .. ومدى ما كان يرمى إليه .. و « منسوب » طموحه .. إذا هو علا بقدرة قادر ، فأصبح يوما مدير أعمال يكلل الشيب رأسه .. ثم أعود فألقى نظرة على ما حدث فعلا ، فأراه رائعاً و بديعاً ، وأرى فيه لونا من العناية

لاحظته عيونها ، فوثب حسين أفندى الشاب إلى حسين بك فى وكالة الأشغال ، ومابين لحظة عين من هذه العيون وانتباهتها ، صح قول الشاعر ، وغيّر الله من حال إلى حال . . ورأينا حسين باشا سرى فى عنفوان الرجولة وزيراً للأشغال . . ثم رأينا الأقدار تعلن عن مقاولة وزارية ظريفة فيرسو العطاء على حسين سرى ، فتبرم هذه الأقدار مع الوزير « الشغال » فى وزارة الأشغال ، عقد البقاء فى الحكم والترقى فيه . . فيصبح المهندس على رأس وزارة الدفاع . . فنعجب له ، ونسأل إن كان قد أطلق فى حياته بندقية صيد وشهد من الفوهة «دخان الرش» . . ثم ينقلب العجب إلى إعجاب بالوزير الذى لايهاب ، يتصدى المدفع والدبابة والطيارة والسيارة ، فيحسن الإشراف والتوجيه والإدارة . . ثم نراه فجأة على رأس وزارة المالية ، غارقا فى البحوث الاقتصادية والمشكلات العقارية ، آخذاً باليمين زمام المصارف والبيوتات ، ومعالجا باليسار داء الشركات ، مستعيضا عن البراجل والزوايا ومساقط المياه وخرير الشلالات . . بالأرقام والخزانة ورنين الذهب و (خشخشة) الورق ومعضلة الميزانيات . . موفقا إلى حد كاد يضعه فى مستوى (الكام راس) التى يفاخر بأصحابها فن الاقتصاد فى هذه البلاد ، وأعنى بهم تشكيلة « صدقى — ماهر — عبد الحميد سليمان — حافظ عفيفى — على المنزلاوى » إلى آخر هؤلاء (البريمة المدردحين) فى عالم الأرقام والاقتصاد

متى عرفته . . ؟

وحين أقول « عرفته » لا أعنى « تعارفت به » . وإنما أعنى « عرفت . . بعض حقيقته الوراثية » .

عرفت بعض حقيقته يوم كنت طالبا ، فقد جاء والده المرحوم اسماعيل سرى باشا ، ليرشح نفسه عن دائرة المنيا لعضوية مجلس الشيوخ ، وكان الانتخاب يومئذ خمسينيا للشيوخ كما كان ثلاثينيا للنواب ، وكان المرحوم والدى مندوبا

خمسينيا ، وفى يده التأثير فى المندوبين الذين ظفروا مثله بثقة الناخبين فى منطقة بلدتنا والقرى المجاورة لها ، وجاء اسماعيل سرى باشا ، بعد أن هجر المنيا طويلا لينازل المغفور له على اسماعيل بك . . وكانت المعركة يومئذ بديعة . . أحسن فيها سرى باشا الكبير ، الظن بالعلم والفن ، فقال للمرحوم والدى كما قال لكل من فى يده مقاليد بلده (اسمعوا يا اخوانى . . أنتم طلعتم اسماعيل سرى ابن بلدكم مهندس ووزير ، وأنا آدينى جيت أرد لكم الجميل ، لا أصرف قرش واحد ولا أخطب ولا أهوش ولا أعمل أى حاجه ، غير أنى أقدم لكم ابنكم اللى صنعتوه بأيديكم . . فان كنتم تعتقدوا أن علمى يشرفكم فى النيابة عنكم ، وأنى أقدر من خصمى على خدمتكم ، فانتخبونى ، وإلا فانتخبوا على اسماعيل) .

كانت هذه العبارات التى سمعتها من فم والدى ، هى كل الأسلحة النظيفة التى اختارها سرى الكبير للعراك الرهيب ، ونسى أن خصمه ينتمى إلى أسرة سلطان باشا . ودارت المعركة عنيفة بين أنصار سرى المؤمنين بأنهم يقدمون لمصر المهندس العالمى فخر المنيا — مهما يكن لونه السياسى أو مهما يكن بعد الرجل عن معسكر الوفد المحبوب بل « المعبود » يومئذ — وبين أنصار على بك اسماعيل ، وأدوات عراكهم تكاتف أسرتين هائلتين هما أسرتا سلطان وشعراوى ، وما أدراك ماعدد العمد الذين كان للأسرتين فضل فى تعيينهم فى القرى ، وما عدد المستأجرين لتسعة عشر ألف فدان تملكها الأسرتان ، وماعدد المنتفعين بصلات الأسرتين وبهاتين (الدائرتين) الكبيرتين . . . ثم ما أدراك كيف انبث الدعاة لعلى بك اسماعيل فى أرجاء الأقاليم وفى أيديهم عصا سحرية ! ! لا أستطيع أن أصفها إلا بأنها « ذات بريق » لولا التقى لقلت — مع الشاعر — جلت قدرته ! ! !

وطبعا . . ظفر على بك بالأغلبية . . . وانبسطت أسارير اسماعيل سرى

وقال لأنصاره : « الحمد لله اللى خلانى عشت وشفت أن بلدى برضه فيها رجاله تعرف قيمة العلم والشرف والنزاهة » .

أثبت هـذه الحادثة وقد كنت يومئذ طالبا وفدياً متحمسا ، أخاصم سرى باشا بدمى ، لانه لم يكن وفديا . ـ أثبتها لأن لها صلة وراثية بحسين سرى الذى أعرض له اليوم . . من حيث الاعتزاز بعلمه وفنه . . ومباهاته « بالنظافة » فى الأسلحة . فهما تختلف الآراء على « النزعة الحزبية » عند سرى الكبير . وسرى الصغير ، فالنقد يعنيه أن يبرز فى الأب والابن هـذه الميزات : الاعتداد بالعلم ، والكرامة ، والشخصية . . وهى ميزات أشد وضوحاً فى الابن ، منها فى الأب ، ولعلها فى مقدمة العوامل التى جعلت حسين سرى رئيسا للوزراء ، ومكنته من الوقوف على قدميه ، ومواجهة كل الأزمات بشجاعة لا تجارى . . محارباً معظم (المناورات) بصراحة لا عهد للسياسة بها ، حتى إذا ائتمر به بعض من كانوا يشتركون معه فى الحكم ، ليحلوا محله من الرياسة ، اعترته مرارة الشعور بخيبة حكمه عليهم ، أو بحسن ظنه بهم ، فرفع استقالته على طريقة شمشون « علىّ وعلى أعدائى ... » .

لم أكن أعتقد . . .

وللحق أسجل أنى لم أكن أعتقد يوم كان سرى باشا وزيراً أن من الممكن أن يؤلف وزارة . . . و يوفق فى الحكم . . . كنت أعرف أن الحكم فى مصر خاصة ، وفى تلك الظروف على الأخص ، يتطلب ميزات لم يدر بخلدى أن حسين باشا يملك شيئا منها . . . ميزات فى طليعتها : (لين الجانب وسحر الابتسامة ، والبلاغة فى الخطابة ، والطلاقة فى الحديث ، والقدرة على الاقناع والمهارة فى كسب القلوب ، والكثرة فى الأنصار ، والدربة على التكتيك البرلمانى ، وحاسة الشم للاحداث قبل وقوعها ، وللرياح قبل هبوبها ، والتوفيق بين الأمة

والحكومة والأحزاب ومصر والخليفة والجهات العالية. . . الخ الخ) . وكنت أتتبع بدقة حركات سرى باشا ، فيخيل إلى أنه يناقض فى تكوينه هذا كله ... كنت أراه عنيفاً إذا تكلم . . . جندياً إذا مشى . . . ذا صدر كأن الكواء مرَّ عليه هو والقميص بالمكواة بعد أن بلله بمحلول النشاء . . غير موهوب بمواهب الخطباء . . . غير معنى بالنحو والصرف عناية البلغاء . . . يريد دائماً أن يكون مستقيما كأنما ينكر على السياسة مسار بها والتواءاتها . . ومرتفعاتها ومنخفضاتها . . . لا حزب يناصره . . . ولا أنصار أغدق عليهم الفضل فاحسن اصطناعهم فأولوه حباً من القلب . . . ونذروا له الفدائية فى بذل الجهد . . . أقرب باندفاعه إلى الإغضاب منه إلى الإرضاء . . . وإلى الحرص منه إلى السخاء .

وضعت هـــذا القرار — قرار الاستحالة — ووثب سرى باشا إلى الحكم فجأة فدهشت . . وانتظرت . . و بدأت أرقب ، . وأرصد . . وأمحو . . وأثبت . . فاذا جل ما كان فى الذهن قد طار فى الفضاء . . وجل ما كنت أقضى به عليه قد أصبح هباء . . و إذا الرجـل موهوب فى « قالب البساطة » . . محظوظ فى كل خطوة . . ماهر لا يخلو من مكر . . « لفاف » ولـكن « على طريقته » . . لا يتردد وقت اللزوم فى أن يقابل « المقلب بالمقلب » .

وقد قلت فى الفصل الذى نشرته عنـه فى « البلاغ » إن من أعز أمانى أن أرى سرى باشا فى مقاعد الشيوخ يوما ، ولا وزارة فى يده ، لأرى إن كان يحتفظ يومئذ بكل ميزاته ، وتوقعت أن « يأخذ سمته الى آخر المقاعد منضما إلى صفوف الأرستوقراطيين الصامتين الذين حلفوا ألا يتكلموا إلا إن عادوا إلى مقاعد الوزراء » .

هذا ما قلته بنصه فى « البلاغ » وقد حققت لى الأيام عاجلا ما كنت أرجوه للوزير (ولوجه النقد) بعد عمر طويل فى الحكم .

وجاءنا سرى شيخا وانضم فعلا إلى مقاعد الأرستوقراطيين فى الصف

الأخير ، ولـكنه لم يحلف معهم اليمين على أن يعيشوا فى هذه المقاعد صامتين ، بل تكلم فى أكثر من ملاءمة ، وكان الكل — ولا يزالون — يصغون إلى رأيه فى كثير من التوقير ، حافظ ولا يزال يحافظ على حضور الجلسات ، ومن الخير أن نذكر أن الرجل يكاد هو وعبد الفتاح يحيى باشا يؤلفان جبهة لا يشعر الوفد نحوها بمرارة فى الخصومة السياسية ، كما يشعر بها نحو سياسة الآخرين أو الأحزاب الأخر .

وعيب حسين سرى كمتكلم أنه لا يحسن العرض إحسانا بليغا ، يؤثر فى السامعين ، وإن كانت صراحته قد حلت محل البلاغة فى كثير من المواقف فأحدثت هذا التأثير .

وعيب الرجل أيضاً أنه يريد دائماً أن يكون دولة فى ذاته ، فهو لا يصطنع الدعاة القادرين ولا الأنصار المتفانين ، بل يترك للقدر أن يعلو به أو يهبط ، وللظرف أن يأخذ بيده أو يتخلى عنه .

والآن أعود بك إلى التساؤل عن الميزات التى مكنت لحسين سرى من البقاء فى مقاعد الوزراء . البقاء طويلا — وبين العواصف — ولاشك فى أن سرى باشا كان يتمع برضاء مليكه كاملا غير منقوص ، وهذا هو العامل الأول من العوامل التى كفلت له الاستقرار ، ثم هو من أبناء الديموقراطية عقيدة ، ومن أنصار الخليفة سياسة ، ثم هو « نظيف » أو « Correct » ، وهذه النظافة هى سلاحه الأول الذى كان يهزه فى وجوه الخصوم ، فلا يسعهم إلا الكف عن الهجوم ، فى معظم الأحيان ، فان شئت أن تطمئن إلى هذه الناحية كحقيقة أثبتها للتاريخ ، فعد معى إلى إحدى الجلسات التى عرض فيها الاستجواب الخاص بعدم دستورية الاتفاق مع شركة المياه — وهى جلسة ١٠ فبراير سنة ١٩٤١ — ففيها وقف المغفور له الأستاذ يوسف الجندى ، يندد بتساهل الوزارات مع الشركات ، ويعلن أسف المصريين على أن شركات الاحتكار

تسند رياستها إلى رؤساء وزاراتنا ، وعضوية مجالسها إلى كثير من وزرائنا السابقين .

وعلى الرغم من أن هذا الذى قاله الأستاذ الجندى «حقيقة» يقول بها كل مصرى ، فان سرى باشا لم يطق أن تساق هذه الحقيقة على وجه التعميم ، وفى جلسة مشبعة بروح الاتهام للحكام ، حتى لا يظن ظان أن المستجوب يعرّض بسرى باشا ، ومن ثم وقف سرى باشا وقفة المعتد بتاريخه ، وقال بأعلى صوته : « أخشى أن يفهم بعض الشيوخ أن يوسف بك يقصدنى أنا » ووقف فى الحال الأستاذ يوسف وأجاب « حاشا ياباشا . . المسألة واضحة بالبداهة ، ده حتى دولتك لسه رئيس وزاره جديد » وصفق الشيوخ ورضى الرجل النظيف .

عرفت إذن أن «النظافة» هى أحد أسرار نجاح الرجل ، فاعلم إذن أن الصراحة والنشاط من عوامل هذا النجاح أيضاً . فأما الصراحة فسلاح ذو حدين . . . يستخدمه هذا المبارز غير مبال أأصاب به نفسه أم أصاب به غيره ، وفى هذا كما ترى ميزة ونقص ، فقد يندفع الرجل ويدلى بتصريح يعقد الأمور ، وقد يندفع فيعترف بخطأ يكبره الشيوخ فيه فيظفر بالتصفيق . . وهذه الصراحة « المتدفقة » تحمله أحياناً على الإسراف فى حب الحقيقة حتى لا يترك صغيرة تمر بغير تصويب ، كأنه مؤرخ يضع الأمر فى النصاب .

ومن أسلحة سرى باشا أيضاً حماسته الوطنية ، يندفع فيها فيغطى بها على الحماسة التى ألفت المعارضة أن تكون هى صاحبة امتيازها . . . حدث مرة أن طلبت الوزارة إلى البرلمان الموافقة على فرض ضريبة إضافية باسم ضريبة الفلاح قدرها ١٠/. من الضرائب التى يدفعها المواطن ، فثار بعض شيوخ المعارضة وكان أشدهم ثورة شيخاً منياويا — مع الأسف — عرف بالغنى و بالحرص ، وأخرجته القرعة أخيراً من المجلس ، وقد أعيد تعيينه أخيراً أيضا ، فقد أمضى الرجل سنواته الخمس صامتا ، ولم يشأ أن يزدان تاريخه ، إلا بمعارضته هذه الضريبة النبيلة — وهو الأستاذ

محمد مرزوق — وظل يصيح (ولا مليم) وكلما قال الوزير كلاما ، عقب عليه الأستاذ مرزوق هو وحسين بك فوده : (برضه مش حاندفع) وغاظ الموقف رئيس الوزراء ، فوقف محتداً (وهف) الشيوخ خطابا مرتجلا ، يفيض حماسة — لا بلاغة — وكان مما قاله ، ومما لا أنساه له ماحييت ، مامعناه (إن من يسمعكم يخيل إليه أن المطلوب منكم هو نصف ماتملكون . إذن فاستمعوا إلى لغة الأرقام . . عدد كبار الملاك فى مصر ٦٤ ألفاً . . ودول يعنى حضراتكم . . مطلوب منهم أن يدفعوا ١ ٪ مما يدفعونه للحكومة . . . فهل تعلمون ماذا سيصيب كلا منكم . . . إنه ثلاثة قروش) واحتد سرى باشا وصاح بصوته العالى « ثلاثة قروش... يعنى ثمن علبة سجاير من الصنف الواطى تضنون بها على شرف الدفاع عن بلادكم » .

وكان لهذه الحماسة المشبوبة أثرها فسكت المعارضون .

تكتيك الرئيس :

والآن نذكر سرى الوزير ، فنذكر له أنه أجاد فى أمد قصير فن المناورة البرلمانية على الطريقة المصرية طبعاً . ويخيل إلى أن سرى باشا كان إلى ماقبل احتمال المسئولية « رجلا طيبا » يتصور أنه كفء وصريح ونظيف وذو نشاط ووطنية وصدق ، وأن هذه الصفات كافية لجعله « حا كما ممتازاً »

ويخيل إلى أيضاً ، أن المسئولية كانت له نعم البوتقة ، صهرته ثم بلورته ثم صقلته ، فآمن بأن كل مايعرف لايقال ، وأن الحياة النيابية القائمة على الأسس الحزبية ، لها ظاهر غير الباطن ، ولها « تكتيك » خاص ، إذا لم يعرفه الحاكم ويتنبه عليه ، ويدور به حتى يلين له ، أفلت الزمام من يده .

ويخيل إلى أيضاً أن سرى باشا فى آخر عهده إذا قورن بسرى باشا فى بداية العهد ، جاز للنقد أن يقول إنه (تدردح جداً) . .

أدوات ؟

واعتداد سرى باشا بكفايته ، لم يحل دون بحثه وراء الأدوات اللازمة له فى كفاحه البرلمانى . رأى أنه يحكم بغير حزب ، وأن خصومه له بالمرصاد . . . فظل يغير فى وزارته و يبدل ، حتى وفق إلى الجمع بين الحزبين اللذين يكونان أغلبية المجلس المنحل الذى يملك الثقة ، والتفت إلى الشيوخ فانتهز فرصة الاقتراع . . . وملء كل كرسى يخلو . . . بالأكفاء من غير الخصوم . . حتى أصبح له تأييد المستقلين ، وهم يؤلفون أكثر من ثلث المجلس ، فاذا أضفت إليهم ممثلى الأحرار والسعديين كانت الأغلبية معه . . . ولكنها أغلبية متعبة ، لأن المستقلين لا تربطهم رابطة ، ولأن المعارضين جبهة تتجاوز الخمسين ، متكاتفة متماسكة ، إذا أملت عليها رياسة حزبها كلمة «نعم» لم تسمع بينها كلمة « لا » .. تنبه سرى باشا إلى هذه الحقائق كلها ، فأصبح إذا واجهه خطر ، لجأ إلى المثل الذى سقناه ونحن نتحدث عن الأحزاب فى الباب السابق .

وقد عرف سرى باشا كيف يربح بعض عواطف الخصوم عنوة ، فكان يسمى الأستاذ الجندى (صديق سعادة الأستاذ يوسف بيه) فتلطف هذه التسمية حدة النقاش .

ثم يحرص سرى باشا على الروح القومى ولو خاصم فيه أعضاء وزارته الحزبيين ، بل هاجمهم ذات مرة فى التوفيق الذى دعا إليه فى هيئة مكتب المجلس . . و يظهر أن «تكتيك» سرى باشا البرلمانى ، لم يكن يقف عند سور البرلمان ، بل كان يتخطاه إلى كلوب محمد على ، حيث يرضى الغاضب و يلين الجامد و يروض الجامح .

وسرى باشا ذكى و (هضام) يجهل الشىء . . فيصغى إلى مايقال فيه . . و (يهضم) بسرعة مايقال . . ثم يشترك على قدر فى النقاش . . ثم يعنى بعدئذ

بدراسة هذا الشيء ، ليعود فى الجلسة التالية أكثر إلماما به . . ولو كان هذا الشيء قانونيا وفقهيا . . ومن اختصاص بدوى باشا .

سرى باشا . . الخطيب والبرلماني :

وعيب سرى باشا أنه لا يحسن الإلقاء . . فهو خطيب جهورى الصوت . غير مؤثر . . بل يلقى على وتيرة واحدة ، كأن بينه وبين الألفاظ « خناقة » أو عراكا ، وكان فى بداية عهده إن انطلق يتلو جوابا على سؤال . . أخفى الشيوخ ابتساماتهم إزاء سرعة دولته وصوته العالى فى غير داع . و « خناقاته » المتوالية مع الألفاظ . ويظهر أن سرى باشا عرف هذا العيب فى نفسه ، فكان يحاول أن يغض من صوته وأن يتريث .

ولم يدر بخلدى أبداً أن سرى (بتاع نكت) ولكن الحياة البرلمانية أثبتت أنه ميال لهذا النوع . وبمناسبة عيبه فى علو صوته ، أذكر أن أحد الشيوخ قال يعقب على كلمة لأحد الوزراء « ما احناش سامعين » فأجاب سرى باشا (سيبونى أنا عليه وأشوفه يقول مش سامعين وإلا مش طايقين) .

وسرى باشا يرتجل ساعة إن شاء . ولكنه ارتجال أقرب إلى الحديث (المتنحون) منه إلى البيان السليم فى النحو . ولو أنه أكثر من العامية ، لكان أكثر توفيقا فى ارتجاله ويميل أحيانا إلى الضرب على الوتر الحساس من الشيوخ ، ولكنه محروم من البلاغة التى «تعسل» هذا الضرب وتخفيه . فقد أحسن الظن مرة بالأغنياء وزف إليهم - فى سياق الدفاع عن الضرائب الجديدة — بشرى مشروع يرفع مليونا من الجنيهات عن كاهل الفلاح الصغير ، فصاح الأغنياء فيه (واحنا مالنا) ولكنه واصل التغزل فى وصف هذه البشرى . . ولو قال (سنرفع عن كاهلكم) وسكت . . لصفقوا له . . ولو عاد فقال لهم (عن كاهلكم باعتباركم ممثلين للفلاح الصغير وحماة له) لأسقط فى يدهم ، ولم يقدموا على معارضته ، ولكن

فى الرجل جانباً من البساطة يطغى عليه أحياناً ، وجانباً من الطيبة ينسيه أصول المناورة أحياناً .

لا يتردد . . ولكن :

ولسرى باشا ميزة أخرى هائلة ، هى سعة صدره أو ترويضه نفسه على سعة الصدر . . فهو يعرف أن همّ المعارضة أن تهاجم الوزارة ، فاذا ماعرض استجواب أو نوقش خطاب عرش أو سياسة مالية عامة . . جلس صامتاً يتلقى هجمات المعارضين و (شتائمهم) فى ابتسامة ، ويظل يصغى بضع جلسات حتى يفرغ المعارضون ما فى الجعبة ويستريحوا . وبحركة ماكرة بين الرئيسين . . ينتقل رئيس المجلس بشيوخه إلى جدول الأعمال (زى الحلاوة) أحياناً ، أو بمناورة من الرئيس ذى الأنياب أحياناً أُخر ، ولو أن سرى باشا طاوع صراحته واندفاعه وقاوم المعارضين ورد على كل هجوم ، لتعقدت الأمور من غير لزوم .

ولكن يقابل هذا الجانب الماكر من سرى باشا جانب صاخب آخر . . وهو أنه يهاجم الشيخ البليغ إذا عكر ببلاغته الجو ضد الحكومة ، وآمن سرى باشا بأن السر فى التعكير مرده البلاغة لا الإخلاص ، وآنئذ لا يتردد سرى باشا فى تهديد خصمه جهرة بالأسلحة التى يحتفظ بها ، ثم يترك القاعة غاضباً من غير أن يستخدم هذه الأسلحة حتى يترك لخصمه فرصة للاعتذار .

سرى الصغير والكبير :

قلت لك إن سرى باشا استدعانى إليه ، إثر مقالى عنه فاستمع إلى بعض ماجرى بيننا لتعرف بعض حقيقة الرجل .

سألنى سرى باشا (بأه أنت كنت ضد انتخاب والدى وكنت متحمس لوفديتك أوى) وقلت لدولته فى بساطة (جداً . جداً) فقال يذكر الشباب

وحماسته أنه هو أيضاً كان يخاصم أباه يوما . فدهشت . وطلبت إليه أن يقص علىَّ هذه الخصومة ، فقال إنه كان طالباً فى السنترال هو وطراف على..(باشا الآن) وآخر غاب عنى اسمه . . وكان سرى باشا الكبير فى الحكومة القائمة يومئذ . . وكان الطلاب الثلاثة متحمسين لبلادهم ، وثائرين على ماهى فيه ، وعلى الحكومة القائمة بما فيها سرى الكبير ، ويرون وجوب تحرير مصر ، وإلقاء مقاليد الحكم فيها إلى الوطنيين المتطرفين ، وبدأوا يضعون « كشفاً » بمن هم أهل للوزارة فى رأى ثلاثتهم ، وكان أشد الغلاة تطرفا يومئذ هم جماعة الحزب الوطنى وأنصار رأيه ، فوقع اختيار الثلاثة الكرام على سبعة عشر متطرفا ، فى طليعتهم طبعاً محمد بك فريد والشيخ عبد العزيز جاويش وأمثالهما .

وضحك سرى باشا وقال : (إيه فكرك أن السبعتاشر بتوعنا اللى كنا بنشوف إن ما فيش حد غيرهم كفء للوزارة واحنا تلامذة مافيش ولا واحد منهم بقى وزير لغاية النهارده . . وطبعاً فيهم أكفاء وفضلاء . . لكن المهم الصدفة الظريفة)

حكمة الشيوخ :

وتحدثنا عن حماسة الشباب وحكمة الشيوخ ، فأراد سرى باشا وقد ضرب لحماسة الشباب مثلا ، أن يضرب لحكمة الشيوخ مثلا آخر ، فقصَّ على قصة ظريفة خلاصتها أنه كان يوماً سكرتيرا عاماً لوزارة الاشغال وكان (فلان بن فلان) ناظراً للهندسخانة ، وخلا منصب الوكيل المساعد فى الأشغال ، فرشح له الإثنان ، وأصبحا فى هذا الميدان فرسى رهان ، وفلان هذا ابن عم أحد الزعماء فى أحد الأحزاب ، وكانت للحزب يومئذ جريدة ، فرأوا للتغلب على سرى باشا أن يختاروا كاتباً فحلا يهاجم سرى فى هذه الجريدة ، فنشر هذا الكاتب مقالا من الوزن الثقيل تحت عنوان (كفء . . ولكن ! ! !) وحشاه قذفا يقع تحت طائلة

العقاب . . ويعترف سرى باشا أنه كشاب هاج وماج . . وأصر على أن يقدم الكاتب إلى القضاء . . ثم عاد فصارع الشباب فى نفسه ، ورأى أن يعرض الأمر على والده ، ليرى إن كان لكلمتى « حكمة الشيوخ » الوزن الذى يشيدون به ، وعرض المقال على والده فقال له الوالد : (إن كنت عايز نصيحتى . . فخط المقالة دى فى درجك ٣ أيام وعد إليها بعد كده واقرأها مره تانية فإن كنت تشوف إنها تستاهل قضيه فارفعها) ويقول دولة سرى باشا إنه عمل بهذه النصيحة تماما ، وبعد الأيام الثلاثة أخرج المقال وقرأه من جديد . .

وسكت سرى باشا ليشعل سيجارة أخرى ، فسألته متعجلا : ورفعت القضية؟ وأجاب فى بساطة : (لسه . .) ! !

سرى باشا والنقد

وعرضنا للنقد ، فأعرب دولته عن إيمانه بأن لا إصلاح لشىء بغير نقد عف محايد ، وضرب لحيدتى مثلا إبرازى مواهب الأستاذ يوسف الجندى ، وتسميتى إياه ذا الناب الأزرق ، ثم قال سرى باشا إن حبه للنقد لا يقف عند حد . . متى شعر أن الناقد يصدر فى خصومته له عن حسن النية لا عن حزبية ، وإن احترامه النقد يتضاعف إذا كان الناقد بنّاء غير هدام ، ووصف الدواء بعد كشفه عن الداء ، وسيان عنده أوفق الناقد فى الاقتراح الذى يقدمه أم لم يوفق ، لأن مجرد محاولته الإصلاح تجعل من حقه علينا أن نوليه احترامنا .

وسألت سرى باشا : شعورك حقيقة بيكون إيه وأنت بتقرأ الشتائم الموجهة لك ؟ وأجاب « بذمتى بأقرأ الشتائم دى فى هدوء غريب ، كأنى بقراها عن شخص آخر ، لأنى عارف أن حسين سرى مش كده ، ولأن الشتم الحزبى بيتكرر لغاية الانسان ما يألفه ولا يحسش إنه شتيمه » .

وبعـــد ؟

وبعد .. فسرى باشا ليس بالرجل الغنى جدا ، وليس بالرجل الكريم جدا ، نشر عنه مرة أن له فى المنيا مائتى فدان لا أكثر ، وقد ورث عن أبيه عمارة تدر دخلا شهريا قدره ١٥٠ جنيها ، ويملك فى سيدى بشر « ڤيللا » أنيقة ، ويسكن فى القاهرة بالأجرة .

هذا العرض يدل على أنه لم يستغل المناصب التى وليها فى جلب نفع لشخصه

وبعد أيضا ؟

فسرى باشا فى مجموعه يعتبر من رجالنا « الكويسين » من غير شك .

وهو للصحفى كسب كبير ، يتحدث إلى الصحفيين كثيراً ، ويملى كثيرا ، ويجلو الجو دائما ، ولكنه « يطب » أحيانا من فرط إسرافه فى الثقة بمن يألفه ويتودد إليه ، فيفضى له بما لايجوز للسياسى أن يفضى به .

وأنا شخصيا أتوقع لنجمه أن يعود إلى التألق .

٣ — عبد الفتاح بحبى باشا

هذا هو الشيخ الثانى من الشيوخ الثلاثة الذين ولوا رياسة الوزارة ، ويمكنك أن تصف عبد الفتاح باشا — من هذه الناحية — بأنه لعب على مسرح السياسة أدواراً ، وصادف أكثر من عاصفة ، وحملته الظروف — لا الرغبة — على أن يخوض أكثر من معركة ، وخرج من كل هذه المعارك أنيقا رقيقا ، كالعهد به دائما ، من غير أن يعلو سترته غبار .

طويل القامة . مرفوع الهامة . وسيم برغم السن . . على عينيه منظار . .

شيخ منتخب فى سنة ١٩٤٢ عن دائرة قسم ميناء البصل بالاسكندرية وقد ترك الوفد الدائرة له فلم يزاحمه فيها أحد

وفى مشيته نشاط.. ذو شار بين مفتولين ، وكتفين عريضين ، تخطىء إن سميته باعتبار الشوارب أبا زيد الهلالى أو ابن غانم ، وتصيب إن سميته «أبو زيد أتاتورك ، أو ابن غانم ألا فرانسيه » لأن الرجل مثال للرقة والتهذيب فى الحقيقة ، وللارستوقراطية غير المتكلفة فى الظاهر ، أنيق رشيق ! ، رزين رصين ! ، يتدلى منديله الحلو ! ! ! من جيب السترة « رفرافا هفهافا » فأنسى معه عمر صاحب الدولة .. وأكاد أبارح الشرفة لأوجه إليه سؤالا عن عدد العيون الناعسات اللواتى طرفها هذا المنديل .. ثم يردني عن هذا الخيال علمى أن الرجل لم يلحق بتاريخه الخلقى عاب ، ولم يستطع أن يخدش كرامته الشخصية خصم من الكتّاب ، فمحال أن يكون هذا الطراز قد (فات على كوبرى بنها) .. وقد توحى إليك قامته المعتدلة ومجموعته (على بعضها) بأنه چنرال فى جيش ناهض .. بس چنرال تعبان .. أو فريق رقيق .

عبد الفتاح فى دنياه :

ويعتبر عبد الفتاح باشا فى دنياه فى الطليعة من حيث الرضا بما هو كائن ، والتمتع بما هو جائز ، فالرجل كما قلت لك حريص على الكرامة ، رشيق

ولـكن فى وقار ، أنيق ولـكن فى احتشام ، يحيا حياة سهلة لأنه يتجنب التعقيد .. مثر لم يعرف عنه بخل ولا تقتير ، ولـكن الركبان لم يمشوا كذلك بذكر شماله التى لا تعرف ما أعطت يمينه لخدمه أو لحشمه ، بل لعل الرجل مسرف فى الحرص — إذا استثنيت مطلب شخصه وأهل بيته — له من دنياه ابنة واحدة هى الدنيا فى ميزانه . . وهو سعيد ما دامت هى سعيدة ، فاذا توارت ابتسامته الرقيقة يوما فأصدقاؤه يستطيعون أن يحكموا أن انحرافا بسيطاً أصاب قرة عينـــــه . . فى ذلك اليوم .

عبد الفتاح الوزير والسياسى :

وعبد الفتاح باشا كوزير . . صالح وأمين . . ولـكنه ليس من الطراز الذى يحلم باحداث إصـلاح جرىء . ولا يحب أن يتعرض حكمه للنقد ! ! أو يجره أى تصرف إلى الأخذ والرد . . على أن الرجل إذا أحب أخلص فى الحب

وعبد الفتاح باشا كسياسى يعتبر من الطراز «الـكلاسيك» الناعم الوديع ! له أيضاً بعض أنياب المدرسـة القديمة . . أدنى إلى دهاء « الباب العالى » فى الزمان الخالى

ولـكنه دهاء لا خبث فيـــــه . . يحب إذا حكم أن يعطَى الـكرسى « السمباتى » المريح . . فيصرف الشئون فى سكون لا يعكره عليـه نقد كاتب أو خطاب نائب أو مناورة حزب .. فاذا دعا داعى النضال على طريقة الأحزاب والبرلمان .. وكثر القيل والقال .. اعترى الرجل الأنيق .. شىء من « القرف» وآثر الاعتزال .. ونجا بكرامته من المادة التى تـكفل حرية الرأى بالقول والخطابة والرسم والإشارة .. إلى آخر هذه التعبيرات « المودرن » ذات الوزن الثقيل على الرجل « الديليكا » ! ! !

وقد قضت الظروف عليه يوما أن يخوض معتركا لم تلد ولاَّدة له غـير رجل

واحد .. وقضت الظروف على عبد الفتاح باشا أن يخلف هذا الرجل الواحد — صدقى باشا — فى رياسة الوزارة وفى ماذا ؟ وفى زعامة .. حزب الشعب ! وهتفوا للزعيم الجـــديد !! واهتز من دولته الشاربان الرقيقان .. وتراقصت العينان الوديعتان ، واحمر الوجه الحيي ، وتورط الرجل ، ولـكنه ما كاد يترك الحـكم حتى ترك الحزب ، ولجأ إلى الصومعة يلتقط أنفاسه ، ويخزى الشيطان الذى أغراه بالحـكم فى الفترات الحامية .. و باللعب بالنار الموقدة .. ويحدثك خلصاؤه عن سعادة الرجل يومئذ بالقاء هذا العبء عن كاهله و بخروجه من المعترك سليما معافى .. مرفوع الهامة موفور الـكرامة .. ومن يومها وهو مستقل يلعن أبا خاش الحزبية ، وكل طريق تؤدى إلى « مساخر الأحزاب » وله فى أيام « باترسون » موقف يشهد له بالحرص على الـكرامة .

عبـد الفتاح الشيخ :

ونجىء الآن إلى هدف النقد الأساسى .. إلى عبد الفتاح باشا عضواً فى مجلس الشيوخ .

فما هو ؟

هو شيخ الطريقة التى تنادى بأن السكوت من ذهب .. و بأن الـكلام الـكثير من شأن الشباب ، و بأن حكام زمانه تلزمهم كمية من الهيبة والوقار .. تتنافى مع ثرثرة الخطب وصناعة البيان .. وعلى هذا الضوء طال صمت صاحب الدولة ولـكن هل معنى صمته أنه عي لا يحسن الـكلام .. وأن مكانه من النقد البرلماني قريب من مكان الصامتين الذين حدثناك عن كثيرين منهم ؟

كلا . . .

والدليل أن دولة عبد الفتاح باشا تكلم مرة .. وتكلم من فوق المنبر ..

كان الخلاف قد اشتد بين المعارضين والمؤيدين .. فصعد دولته إلى المنبر ،

وبدأ يمشى بالسلام بين المتخاصمين ، ولم يكن خطيبا من النوع الذى يشيع السحر فى السامعين . . ولـكنه كان حلواً فى مخارج الحروف . . أنيقاً فى سوق الكلام . . بطيئا فى إلقائه . . مهيبا فى حركاته . . مؤثراً فيما بدا على دعوته من إخلاص وحرارة . . أدنى إلى الفصحى حينا . . غير متورع عن الدارجة إذا اقتضاها الموقف . . ملقيا كل باله إلى الجوهر والهدف ، لا إلى التزويق البيانى والترف الخطابى . . يومئذ أدركت أن الرجل يستطيع أن يساهم فى الخطب إذا أراد ، وإن كان لايهز من المنابر الأعواد .

ولـكن — هل امتناعه عن الخطب يرجع إلى وقار المدرسة القديمة وحده كما يبدو ؟

أظن لا . .

وأعتقد أن السبب الحقيقى هو عدم استعداد الرجل للنضال . . فالرجل غير صالح للجو البرلمانى الحديث الذى يتطلب طبيعة « الشكل للبيع » وما إليه من من أدوات الدفع والجذب و « العفار » والغبار والمرمطة فى كثير من الأحيان .

وإذا أنت (رقمت) الرجل فى حركاته وسكناته . . خيل إليك أنه متكبر فاذا درسته لم تجد فيه من الـكبرياء غير الجانب الراقى . . الذى يحفظ عليه مايحب لنفسه من المركز الارستوقراطى . يضع يده دائما أو غالبا فى جيب (بنطلونه) . فاذا خرج من القاعة أو دخل إليها أو اجتاز أروقة البرلمان ، أو وقف السعاة والحجاب ، أو انحنى بعض الموظفين ، رأيت من الرجل ردود العظيم (المدردح) الذى يعطى كل ذى حق حقه . فلمن يستحق الإيماءة إيماءة ، ولمن يستأهل الابتسامة ابتسامة ، ولمن هو أهل لرفع اليد يد مرفوعة ، ولمن هو جدير بالمصافحة مصافحة حارة .

وعبد الفتاح باشا — على فـكره — يجد عذراً عن حرصه لأنه « فقير نوعا ! ! » ، له حفنة من العمارات فى الاسكندرية من بينها عمارة تريانو الشهيرة

وله أكثر من خمسمائة فدان تتأرجح بين أبى حمص ودسوق ودمنهور ، وقيل أيضاً إنه يملك خمسة آلاف متر تحمل لقب « القطعة رقم ٤٣ » ويساوى المتر منها خمسين جنيهاً ، وقيل إن لها قصة — وأنا أجهل هذه القصة — وقيل إن دخله الشهرى لايكاد يبلغ الألفين من الجنيهات « يادو بك » !

جهوده فى اللجان :

عرفت إذن أن عبد الفتاح باشا من الشيوخ الصامتين ، وقد نشرت عنه فصلا فى « البلاغ » لم أتحدث فيه عن جهوده فى اللجان ، فكتب إلىَّ صديقى الأستاذ محمد القبانى سكرتير لجنة المالية فى مجلس الشيوخ (والمنتدب الآن مديراً لمراقبة النشر فى وزارة الداخلية) يميط اللثام عن جهود عبد الفتاح باشا فى اللجان وأرى من حق القبانى أن أنشر له الرسالة بنصها قال :

« أخى الأستاذ السوادى .

تحية واحتراما ، و بعد فقد قرأت لك ما كتبته فى بلاغ يوم ٢١ ديسمبر عن حضرة صاحب الدولة عبد الفتاح يحيى باشا عضو مجلس الشيوخ مما وقع تحت بصرك وسمعك ، واعتذرت عن عدم الخوض فى نواحى نشاط الباشا الأخرى لأنها لاتدخل فى علمك .

أما أنا فأرى فى عنقى دينا لهذا الرجل ، و بخاصة بعد أن طلبت إلى قرائك موافاتك بما يعلمون عمن تتناولهم بنقداتك .

وهأنذا ياصديقى أوفى ببعض دينى لعبد الفتاح باشا فأذكر لأخى ، بعد مشاهداتي فى جلسات لجنة الأحكام العرفية التى يرأسها دولته والتى يضفى على اجتماعاتها من وقاره ودقة تفكيره ثوباً قشيباً من المناقشات الهادئة المنتجة ، بعض ما أعرفه عن هذا الرجل .

عبد الفتاح باشا ياصديقى — كما ذكرت — أرستوقراطى المظهر ،

ديمقراطى النزعات ، وهو فى ترفعه عن الصغائر وعزوفه عن المهاترات ، يحول دون الوقوف على حقيقة أمره ، وهو إن كان لدى الناس غنياً بالمال فهو كما عرفته أنا أغنى بالخلق الكريم السمح وطهارة القلب وحسن الطوية ، وطيب السريرة .

كثيراً ما جلس عبد الفتاح باشا فى قاعة اللجنة ينتظر موعد انعقادها ، ويتحدث إلى أصدقائه وزملائه من الأعضاء ، فوالله ماسمعته يوما يذكر أحداً بسوء ، أو يقول كلمة عيب فى انسان ، فاذا تناول الحديث تصرفا يرى فيه جانباً ينتقص سمعة هذا الانسان لايتناول الشخص مطلقاً بل ينصب نقده على العمل نفسه — ولكن فى أدب جم — ولهذا طهرت طويته من الإحن ، وطهر لسانه مما يسىء إلى الغير من لفظ ناب ، أو عبارة تسىء .

وغير هذا ، لقد سمعته ياصديقى يتكلم فى المجلس فأعجبك كلامه ، ولكن تعال معى إلى اجتماعات اللجنة لتسمع المعجب والمطرب من كلام عبد الفتاح باشا ، ولتعلم أن بين كبار رجالنا من يمتازون بحلاوة الأسلوب ودقة التعبير وفصاحة القول ، فهو إذا تكلم ففى تؤدة وفى وقار يزينهما عقل راجح وتفكير عميق ، وإنى لأقسم أننى ما مللت يوما سماع حديث هذا الرجل ، حتى لتجدنى أحرص ما أكون على إثبات أقواله كلمة فكلمة ضنا به وحفظاً له من الضياع

هذه ناحية ، وناحية أخرى للرجل أتحدث إليك عنها ، تلك هى عطفه على من يعملون معه . أذكر أن اجتمعت هيئة لجنتى الأحكام العرفية للمجلسين وعدد أعضائها ثمانية عشر عضواً ، وكان المعروض عليها مشروع أمر عسكرى له خطره ، واستمرت الجلسة ثلاث ساعات شغلت فيها بتدوين المناقشات ، ثم انفض الاجتماع وتقرر استئنافه بعد ظهر اليوم نفسه .

وفى المساء عادت الهيئة للاجتماع واستمر اجتماعها ثلاث ساعات أخر . وفى نهاية الجلسة ، رأى أحد حضرات الأعضاء أن تعود الهيئة للاجتماع فى الصباح التالى . وهنا ، نعم فى تلك اللحظة نظر إلىّ دولة الباشا نظرة لست والله أنساها

أو أنسى ما كان فيها من معانى العطف الأبوى الذى تجلى بأجمل وأكمل صورة ثم طلب دولته أن يكون اجتماع اللجنة بعد يوم حتى تتاح لسكرتيرها فرصة إنجاز محضريها ولكى يجد بعض الراحة من عناء العمل المستمر .

لاتسل ياصديقى عن أثر تلكم الكلمات فى نفسى ، ولاتنس أننى موظف عليه الطاعة والقيام بواجبه مهما يثقل هذا الواجب ، ولكن النفوس الكبيرة التى طبعت على الرفق ، والقلوب الكريمة التى انطوت على الشفقة والرحمة ، هى وحدها التى تحس بما ينال الناس من تعب فتعمل على التخفيف عنهم .

تلك ياصديقى بعض نواحى النبل فى عبد الفتاح باشا ، ولست أحب أن أطغى عليك فاستغل فسح صدرك لى ، كى أطيل الحديث فى الرجل ، والحديث فيه عذب وذو شجون .

لذلك أكتفى بهذا القدر وأرجو لك التوفيق فيما أخذت به نفسك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

أخوك المخلص

محمد القبانى

٣ — على ماهر باشا

على ماهر باشا :

نرسم له هذه الصورة بوصفه عضواً فى الشيوخ ، ومواطنا له علينا ما للمواطنين البارزين فى حدود النيابة من حقوق التحدث عن ميزاتهم ومساوئهم .

لاصلة — إذن — لهذا الفصل بسياسته . . ، فالكلمة فى هذه السياسة من حيث الرشاد أو الضلال ، للغد أولا ، وللتاريخ أخيراً .

ميزاته ومساوئه :

لا يختلف اثنان من الخصوم — بله الأصدقاء — فى أن على ماهر باشا رجل ذكى حاد الذكاء ، مفكر سريع التفكير ، عصبى نارى المزاج ، إذا اقتنع بشىء — أو أراده — اندفع إليه غير مبال ، فاذا رأى مايدعو إلى العدول عنه عدل غير مبال أيضاً ، بل يتهمه بعض خصومه بأنه يضحى خلّص أنصاره — إن كان لا بد من تضحيتهم ليبلغ أهدافه — وهى مدرسة فى السياسة لها أنصارها ، وإن كنت — لحسن الحظ أو لسوئه — من خصوم هذه المدرسة . وعلى ماهر ، رجل موفور الرجولة من حيث إقدامه على جلائل الأمور التى تتهيبها جموع وأحزاب ، ولا يتهيبها وهو الفرد الذى لاحزب له ينصره ، ولا تسير خلفه جموع إلى حيث يسير ، وعلى ماهر رجل ذو ماض — كما يقولون — حفل بالنضال من بدايته ، وأطل من خلاله وسايره ذلك الحلم الذهبى الذى أدركه أوكاد فى آخر أطواره ، وأعنى به الرياسة ، والرياسة دائماً ، فقد طبع الرجل عليها ، فإن تقلدها فى أمر من الأمور ، اندفع فى نطاقها يعمل على تحقيق ما يصبو إليه بجرأة مقطوعة النظير ، ولو أدى هذا الاندفاع إلى إفلات الرياسة من يده ، ومواصلة الكفاح من جديد ... ولعل فى توليه — وهو تلميذ بالمدرسة الخديوية — رياسة « جمعية الهلال والنجمة » التى أسست لتنمية ملكات

شيخ معين فى سنة ١٩٣٦

الخطابة والبحوث عند التلاميذ ، دليل على اقتران تاريخ الرجل بحب السيطرة من قديم . وعلى ماهر رجل منظم من أيام التلمذة أيضاً ، ورجولته نضجت فيه قبل أوانها ، وعاونه على هذا النضج ماقام به من رحلات فى البلاد الأوربية وهو تلميذ .. هناك تفتحت أمام ذلك الشاب آفاق التفكير فى الفارق الكبير بيننا وبين الأوربيين — فكان يدوّن مشاهداته ويطبعها بعد عودته إلى مصر داعياً إلى الإصلاح الاجتماعى... ليس بغريب — إذن — أن يجىء هذا الفتى بعد عشرات الأعوام من تلك الرحلات ، ليحقق لنفسه أو لبلده بعض أحلام ذلك الصبا ، ويكون أول منشىء لوزارة الشئون الاجتماعية فى مصر ، على أن سرعة الرجل فى تحقيق أمانيه كانت تؤدى به إلى القيام بمشروعات يعوزها الاختمار ، وتذهب بذهابه ، فهو مايكاد يتولى الحكم حتى يصدر الأوامر تلو الأوامر ، بعشرات الإصلاحات ، ناسياً أن أداة الحكم فى مصر ، أضعف من أن تضطلع بتحقيق هذه الإصلاحات تحقيقاً دقيقاً قائما على أسس سليمة .

فلو أن الرجل كان زعيما لحزب كبير منظم له شُعَب فى مختلف الأقاليم ، وفيه كفايات ممتازة وإخصائيون وفنيون .. وانتهز فرصة السنوات التى يكون الحكم فيها بعيداً عنه .. وعهد إلى هذه المواهب والكفايات بوضع أسس سليمة لما يرجوه لهذا المجتمع من إصلاحات .. ورتبها ترتيباً راعى فيه مختلف الملابسات السياسية التى لابد للحاكم من مراعاتها .. لو أن الرجل فعل هذا ، ثم ولى الحكم فأصدر أوامر التنفيذ سريعة كعادته ، لاستطاع أن يحدث فى هذا المجتمع انقلابا ، وأن يسجل لمشروعاته بقاء ، ولكن الذى لوحظ عليه ، أنه يظل بعيداً عن الحكم ، مشتغلا بغير هذا الإصلاح ، فاذا جاءه الحكم ، وكان مقتنعاً بصلاحية بعض أصحاب هذه المواهب وإخلاصهم له ، دعاهم إليه ، وطفر بهم إلى كراسى الوزارة ، فوضعهم فجأة ، كما يضع نفسه تماماً ، أمام أكداس غير منظمة من أمانى

طيبة ، ثم ركض بهم ركضاً إلى سباق قد لايكونون مهيئين له ، أو قد يكون ميدانه غير صالح لفوزهم فيه .

ومن أبرز العيوب التى يأخذونها عليه ، أنه كثير الشكوك ، يرفع أنصاره إلى السموات العلا فى لحظات معدودات ، ثم ينقل إليه بعض ما يشككه فيهم ، فيقذف بهم من شاهق ، متأثراً بنارية العاطفة فيه ، و بدقة الحس ، والعصبية المرهفة ، من غير أن يكلف نفسه شيئاً من الريث وشيئاً من البحث ، ولقد عجبت لهذه الطبيعة فيه ، وهو الرجل الذى يعتبر بين عظماء الشرق علماً من الأعلام الذين نفاخر بهم أكثر من أمة ، بل وهو الرجل الذى ولى القضاء حيناً ، وأمسك بميزان العدل طويلا ، وعرك السياسة من صدر شبابه ، وساهم فى الحركة الوطنية مساهمة تفسح له مكانا غير ضيق فى تاريخ مصر الحديث . . عجبت لهذا الرجل يرمَى بهذه التهمة ، فرأيت أن صدمة لابد أن تكون قد أثرت فى على ماهر الطفل ، أو على ماهر الفتى ، أو على ماهر الشاب ، حتى لم يستطع وهو فى مكانه من الرجولة والسلطان ، أن يخلص نفسه من أثرها ، فعدت أبحث فى ذلك الماضى ، فوقعت على بعض الحوادث التى أيدت ماذهبت إليه ، فقد بدأ حياته العملية محامياً ، وجمع فى هذه المحاماة بين الأهلى والمختلط ، وفى تلك الأثناء كان الرجل يحسن الظن بالناس جميعاً ، ولكن الحوادث حملته حملا على أن يستبدل بهذه الثقة ذلك الشك الذى نما فيه وكبر معه ، وأذكر أنى قرأت فى كتاب « الأيام المئة » ما معناه أن محاميا جاءه فى جلسة من الجلسات ، فأبلغه أن التفاهم قد تم بين موكليهما الذين يتكون منهم طرفا الخصومة على التأجيل إلى مابعد فصل الإجازات ، ورجا منه أن يتضامن معه فى طلب هذا التأجيل ، فقبل ثم تبين بعدئذ أن شيئا مما أخبره به زميله لم يكن ، فاستشاط غيظا ، وعاد إلى الزميل يلقى عليه درسا ، و ينتظر منه تعليلا معقولا ، لهذا التصرف غير الشريف ، فاذا الزميل يقول له فى بساطة « الذنب ذنبك — لماذا صدقتنى ؟ » ثم لاحظ أيضا أن بعض زملائه ممن كانوا يخاصمونه

فى بعض القضايا ، كانوا يطلبون التأجيل ، ويمدون أيديهم بأوراق يقولون إنها مستندات تؤيد طلبهم ، ويجابون ، ثم يتبين هو أخيراً أنها ليست أكثر من حيلة خالية من كل صدق وأمانة — وحدث بالفعل بعد أن تنبه لمثل هذه الحيل أن أمسك مرة بيد محام ، وهو يرتكب هذه الخطيئة ، وتبين أن الأوراق بيضاء لاشىء فيها على الإطلاق ، وكان القاضى قد استجاب لمقدم هذه الأوراق ونطق بالتأجيل الذى طلبه ، فانسحب على ماهر صارخاً فى القاعة « أعجب لمحام يكذب وأعجب لقاض يصادق على الكذب » فلم ير القاضى بداً من رفع الجلسة ثم أعادها وفتح باب المرافعة من جديد عادلا عن التأجيل .

أعتقد أن مثل هذه الحوادث قد فتحت عين الرجل على المجتمع المنحل ، الذى يعيش فيه ، فنمت شكوكه فى كل شىء وفى كل شخص ، حتى لقد يحار المرء فى المفاضلة بين ميزات هذا التشكك وعيوبه ، فى تصرفات رجل أصبح عظيما من العظماء ، وسياسيا مطالبا بالتريث فى الحكم على الأشياء والأشخاص .

وعلى ماهر الموظف : لم يكن يوماً موظفاً عادياً ، بل كان يستخدم أقل المناصب وأجلها على سواء ، فى تحقيق مايصبو إليه من رفعة لشخصه ، أو من إصلاح لقومه ، وكان أبداً يميل إلى الخلق فى كل أمر يعرض له ولا يجد فيه سابقة يرجع إليها ، فروح المشرع اقترن فيه بروح الابتكار فى جميع المناصب التى تولاها ، كان قاضياً صغيراً .. يحكم فى شئون الأحداث ، فلم يكن يقنع باصدار الأحكام ، بل كان يجعل الجلسة مسرحا للتحرى والتحقيق والبحث والدرس ، فيطلب إلى كاتب الجلسة إثبات حالات هؤلاء الأحداث وحالات آبائهم — وهل هم متزوجون بأكثر من واحدة — وهل أم الحدث تعيش مع أبيه — ثم أخرج بعد ذلك إحصاء خطيراً يرجع فيه إجرام الأحداث إلى ذلك القلق العائلى ، رجاء إصلاح المجتمع ، مع أنه لو شاء أن يقف عند حدود الوظيفة ، لقنع بتطبيق القانون على كل

حالة تعرض عليه ، ولـكفى نفسه مؤونة تلك البحوث التى لاعلاقة لها بوظيفته من حيث فهمنا للوظائف فى هذا البلد ..

من ماضيه :

ولقد سبق القول أن على ماهر رجل ذو ماض ، وكان بودى أن تنفسح الصفحات لأفصل لك بعض ذلك التاريخ الحافل بالنضال و بالـكفاح ، ولـكنى أقنع بأن أحيلك على كتاب « الأيام المئة » ، لتقرأ فيه جهود الرجل من يوم كان عضوا فى الوفد المصرى إلى سنة ١٩٣٦ ثم عد إلى النتائج التى خرجت بها أنا من هذه الدراسة لعلك تقرنى عليها ، ومع إعجابى الذى لاحد له بعبقرية الرجل ، فإنى أستنتج أنه كان فى كل أطواره رهين رأيه ورهين سرعته ، فـكان يستقيل من الوفد ، ثم يعود إليه ، ثم ينسحب منه ، ثم يعاود اتصاله بسعد ، ثم يمشى فى طليعة المتطرفين حماسة وحمية ، ثم لايلبث أن يناصر المعتدلين ، وقد يكون فى هذا كله مخلصاً موفور الإخلاص ، ولـكنه لايملك أن يساهم فى صفة الثبات عل رأى واحد ، ولعله فى عدم ثباته هذا ، يلتقى مع مايشيع عنه خصومه من عدم تمسكه بأنصاره دائما ، واندفاعه المشبوب إلى كل مايعن له من رأى ، ولو خالف كل الآراء التى سبق له أن تمسك بها — ولعل فى قبوله عضوية حزب الاتحاد بعد ذلك الماضى الحافل بالتطور ، مايجيز لنا أن نحكم على خصومته بأنها تسوغ له فى كثير من الأحيان ، مالاتسوغه الخصومات لبعض الساسة ، أو لعل طموحه إلى الرياسة ، كان يحمله على أن يركب لها هذا المركب الخشن ، ولعل من حقنا أخيرا ، أن نخرج من هذا الماضى بأن طبيعة النضال فى الرجل ، تحمله على الحركة الدائمة ، وسيان عنده أن تقترن الحركة بالبركة أو لاتقترن .

على ماهر البرلمانى :

ونظفر الآن من ذلك الماضى إلى على ماهر كبرلمانى ، فقد رأيته فى الشيوخ رئيساً للوزراء ، وأول حاكم عسكرى فى مصر ، وأعنف خصم للمعارضة الوفدية ، فكانت له مواقف لاتنسى ، مع المغفور له الأستاذ يوسف الجندى ، دلت على أن الرجل يجيد « التكتيك » البرلمانى ، فحين لاحظ أن المغفور له الأستاذ الجندى كان من قوة الحملات بحيث إذا تركت له حريةُ شنّها ، غدا خطراً على أى خصم سياسى ، وأن عظمة يوسف كبرلمانى ، كانت تقوم قبل كل شىء على سيادته على أعصابه ، خيل إلىّ أن على ماهر فكر فى أن يفقد زعيم المعارضة هذه السيادة ، فكان يلجأ إلى مقاطعته دائماً ، غير مبال نصوص اللائحة ولا رجاء الرياسة ، وكانت المقاطعات أدنى إلى الثورة منها إلى الحجة ، فمايكاد يوسف يسوق عبارة ، حتى يهب على ماهر صارخاً فيه ، ومتهجماً على المعارضة بعبارات تثير يوسف ، وتقطع عليه سلسلة تفكيره ، حتى لقد ضاق يوسف بالمقاطعات ذرعاً ، فجلس مرة خلف المنبر ، معلناً أنه لم يعـــد يستطيع الكلام إزاء هذه الطريقة ، وبعد جهد ، استطاع الرئيس أن يأخذ موثقاً عند على ماهر باشا بعدم المقاطعة وبدأ يوسف من جديد ، فلما قارب التوفيق ، هبّ على ماهر مرة أخرى ، فأطار من يوسف ما كان قد أعده لكسب المعركة .

وعلى ماهر ، ليس خطيباً ، ولا يحسن الارتجال مطلقاً ، إلا إذا تكلم باللغة الدارجة ، وكان ثائراً ، فانه حينئذ يتدفق كالسيل ويهدر هديراً ، غير مراع مسئوليته كحاكم ، فاذا ثار معه وزير حقانيته يومئذ مصطفى الشوربجى بك ، فحدّث ولاتخف مبالغة عن مواقف ، تعيد إلى الأذهان مواقف أخر ، حدثنا عنها تاريخ الثورة الفرنسية ، بل حتى يخيل إليك أن الجلسة لايمكن أن تنقضى بغير ضحايا وصرعى . . .

ومن أبرز العيوب البرلمانية (وقد تكون هذه العيوب البرلمانية ميزات وطنية) فى على ماهر أنه لم يكن يراعى أى اعتبار من الاعتبارات التى تحمل كل حاكم من الطراز القديم على مراعاتها على وجه عام ، وفى فترة الحرب على وجه أخص .

أما حين دخل القاعة شيخاً — بعد استقالته من الوزارة — فقد حرص على أن يدخل صامتاً ، وإن كان صمته يجاوز الكلام بلاغة ، فكان لايدخل إلا حين يعرف أن الأنظار متطلعة إليه ، وأن الأنصار حافون من حواليه ، آنئذ كان على ماهر يقصد إلى آخر الصفوف فى مشية الزعيم المعتد ، أو السيد الواثق ، فاذا أخذ مكانه بين الأنصار ، وأخذ يصغى إلى أحدهم أو يرد على أحدهم .. تعمد إيماءات وحركات لافتة للأنظار ، وحافظة عليه مايريد لنفسه من هالة وهيبة ووقار .

على ماهر شكلا :

هذه هى أوجز صورة لعلى ماهر من حيث الموضوع ، أما من حيث الشكل ، فعلى ماهر قصير القامة — ضامر الجسم — حديدى البصر — عابس الوجه — صارم القسمات — سريع الحركة — لامع العينين — قاسى النظرة — تتألف من حركاته شعلة دائمة التوهج — وثورته تتوقعها دائماً ، وفى أيام الحكم كان يعنى بأناقته عناية كبيرة ، حتى لقد كان يخيل إلىّ أن شعر الرأس وحده كان يزاحم الدولة فى أوقات وزيرها الأول ، أما بعد الحكم ، فيظهر أنه كان دائب (القرفان) فلم يكن يبالى الأناقة كثيراً ، على أن الظاهرة التى لايمكن إنكارها ، والتى حالفته إلى النهاية ، أنه كبير التأثير جداً فيمن حوله ، وأنه موفور السيطرة تماماً على خلص أنصاره ، وأنه ذوشخصية تحمل الخصوم والأصدقاء على السواء ، على التطلع إليها فى كثير من التهيب والتوقير ، وأن وفرة نشاطه وكثرة متناقضاته

فسحت مجالا لاختلاف الآراء على الرجال ، فأصبح حديث الكل شأن الرجل العظيم على كل حال وكفى ...

وأخيراً :

فلست أشك — كناقد برلمانى من حقه أن يكوّن مما رأى وشاهد فكرة عن كل شيخ أو نائب — فى أن الشيخ المحترم على ماهر باشا يستطيع أن يلعب فى المستقبل إذا مد الله له فى الأجل دوراً على مسرح السياسة المصرية ، لايلعبه غير العباقرة الموهوبين على مسارح الأمم .

« ج »

الشيوخ

من الوزراء الحاليين

هم أصحاب المعالى :

١ — الأستاذ أحمد حمزه

٢ — صبرى أبو علم باشا

٣ — عبد الواحد الوكيل بك

١ — الأستاذ أحمد حمزه

لابد للناقد المحايد من الشعور بشىء من الحروجة وهو يتناول وزراء حاليين فى هذا الظرف العصيب ، الذى يفرض على الكاتب اعتبارات واجبة المراعاة ، لهذا أوثر أن أتناول هذه الطائفة فى أضيق حيز ممكن ، ومن نواحٍ محدودة ،

وأن أجعل همى فى النظرة التى ألقيها على كل منهم ، الناحية البرلمانية ، وسيان بعد هذا الدستور ، الذى أختاره لنفسى حيال كل وزير ، أن تجىء الكتابة عنه أسطراً معدودات أو صفحات كاملة ، ولا يقل أحد : « لماذا آثرت حسين سرى ومحمد محمود خليل وغيرهما بالإسهاب » فأنا أسهبت فيهم حرصاً منى ، على المستوى الخلقى لنفسى ، وصوناً لكرامتى من أن يقول قائل آخر إن هذا الناقد سخا على حسين سرى يوم كان رئيسا للوزراء ومحمد محمود خليل يوم كان رئيساً للشيوخ ، فلما لم يعدلهما من الأمر شىء ضن عليهما بالسطور ، أما الضن على الوزراء الحاليين فيجعل الميزان فى صالحى على حد تعبير رجال الاقتصاد .

الآن نبدأ وفقاً لترتيب الحروف بالأستاذ أحمد حمزه وزير التموين

معرفة قديمة

جاء الرجل إلى قاعة المجلس شيخاً . قبل أن يجيئها وزيراً ، وإن كانت جيئة « نادية » لم يمض عليها غير أسابيع حتى انتهت به الى أخطر منصب ينوء به أضخم فكر من بين مناصب الدولة ... منصب تموين ستة عشر مليوناً من المواطنين عانوا الغلاء طويلا .

جاء الرجل إلى قاعة الشيوخ ففرحت بمقدمه ، حتى ظن الزملاء أنه من أخلص الأصدقاء ، وأنه « معرفة قديمة جداً » .

الأستاذ أحمد حمزه شيخ منتخب فى سنة ١٩٤٢
عن دائرة قها « قليوبية »

والحق أن لاصلة تربطنى حتى اليوم بهذا الرجل ، وكل ما كان بينى و بينه أنه عضو فى « نادى رمسيس » وأنا « زبون » فى « لبان تريانو » ، والنادى فوق القهوة يضمهما مبنى واحد ، فكنت أراه يومياً ، ولى بين أعضاء النادى أكثر من صديق ، وكنت أعجب بهذا الرجل المحتشم ووقاره وأدبه وتواضعه ، وكلما ازددت استيضاحاً لأمره زاد فى ميزانى قدره .. فقامت صداقة روحية بينى و بينه تشبه التصريح السياسى الذى يوصف بأنه من جانب واحد .

والشيخ المحترم قضى أسابيع المشيخة حتى عين وزيراً فى صمت تام، فليس لنا عليه تعقيب من هذه الناحية إلا أن نضمه إلى جماعة الصامتين فى تلك الفترة

الشيخ شكلا :

والأستاذ أحمد حمزه من حيث الشكل ، فارع العود ، ضامر الجسم ،أقرب إلى كلمة « سمارت » عند الانجليز ، أسمر اللون ، خفيف الدم ، بادى التهذيب، جم الأدب ، واضح التواضع ، تكاد تحسبه من سمرة اللون من شيوخ الصعيد الأعلى ، لايعرف « القنزحة » ولا يدل شكله على أنه – كما هو فى الواقع – ابن سوق وليس فيه من « الفرنجة » ما يشير إلى عبره البحر يوما وما يحملك على التسليم له بانه وزير حقاً .

الشيخ موضوعاً :

أما الشيخ من حيث الموضوع ، فشىء مختلف جداً ، طلب العلم فى انجلترا ليكون مهندساً ، ولكنه لم يتم تعليمه ، واجتذبته الأعمال الحرة ، فخاض غمارها خوضاً مشرفاً ، واستطاع أخيراً أن يشق طريقه ، موفور الكرامة مرفوع الهامة بين جماعات الأجانب من أصحاب المشاريع .

حدثنى صديق له قال :

دع أحمد حمزه صاحب وابورات الثلج المعروفة فى « غمره» ودع أحمد حمزه التاجر الكبير ، ودع أحمد حمزه المزارع الموفق ، وابحث عن أحمد حمزه « ملك الزهور والروائح » تضع يدك على أحمد حمزه بحقيقته المستورة ، وأعصابه غير المنظورة .. فقد أمضى بضع سنوات فى زراعته الأصناف التى يتطلبها مشروعه ، ويرعاها فى الصبح والمساء ، برغم أعماله التى لاتحصى ، فلما نمت وترعرعت ، استقدم للمشروع خبيراً من أوروبا، ليستخرج له الروائح، واستجلب الآلات وأقام المصانع ، و بعد أن دفع « السارحة والمروحة » فى هذا المشروع الدقيق ، أرسل المستخرج من عيناته إلى المعامل الأوربية ، فاذا هو أمام الخيبة وجها لوجه ، وقيل له إن هذا الذى أنتجتَه غير صالح ، وأسقط فى يد الرجل ، فهل تدرى أن أحدا من خلص أصدقائه لم يسمع بشىء من أنباء هذه الكارثة ؟ وظل أحمد حمزه بابتسامته ووده ، هو أحمد حمزه قبل مصابه وكارثته ، حتى قيض الله له شركة صفت أعمالها ، وكانت لديها الآلات الصالحة والخبير الأوحد ، فتقدمتْ إليه معجبة بثباته تعرض عليه خبيرها وآلاتها ، وشاء الله فأبد له من الفشل نجاحاً ، ودر عليه ، المشروع ربحاً لايقدر .

ظلموه !

وليس من شك فى أن رئيس الوزارة الحالية قد أولاه ثقته كاملة ، وارتفع به من هدوئه وصفائه ، إلى دست الوزارة دفعة واحدة ، حتى ظن قراء الصحف يوم ذكر اسمه بين من أسمتهم هذه الصحف «نجوم لامعة» وكانوا مرشحين للوزارة ، أن هناك خطأ مطبعياً ، وأن اسماعيل بك حمزه المحامى لابد أن يكون هو المعنى .

لم يدر إذن بخلد أحد أن أحمد حمزه يمكن أن يكون وزيراً ، بل لم يدر بخلده هو

أيضاً شيء من هذا ، فلما فوتح فيه من النحاس باشا ، اعتذر الرجل عن عدم استطاعته تصور القبول ، وظل على إبائه حتى بكى بين يدى النحاس ، ولكن النحاس أصر ، فقبل أحمد حمزه على الرغم منه .

وظلموه أيضاً :

وبان الظلم مرة أخرى بعد أن ولى الرجل منصب وزير التموين ، وليه بين العواصف والأعاصير ، وبين صراخ الجائعين وجشع الطاحنين والخابزين ، وثار الشيوخ والنواب ، فقدموا الاستجواب فى إثر الاستجواب ، وسأل أحمد حمزه نفسه : « ما ذنبى أنا لكى أكون هدفاً لكل هذا ؟ » ولم يجد جواباً شافياً .

ولى الرجل وزارة التموين ، فنقص وزنه وبهت لونه وضعفت صحته ، لأنه عكف على دراسة هذه المشكلات العويصة ، راح يطوف بنفسه المخابز والمطاحن ، ويلتفت حوله فلا يجد لوزارته ميزانية ، ولا يجد من حوله موظفين ؛ كأنما الأقدار قد ائتمرت به ، فرفعته إلى كرسى الوزارة ، ليكون كبش الفداء فى مشكلة التموين .

ولكن الرجل صبر وصابر ، وكافح وناضل ، وانتهى به تهيبه منبر البرلمان ، إلى ذلك البيان الذى أعده وألقاه ، فانتقل النواب بعده إلى جدول الأعمال .

ولعله أول وزير لم تغير الوزارة من مظهره شيئاً ، فهو أبداً منزو عن الأنظار ، وأبداً مغرق فى السكون ، فإن رأيته فى مكتبه ، رأيت شعلة تتقد نشاطاً ، ووزيراً يتقد ذكاء ووفاء ، ورأيت النظافة والنزاهة اللتين يؤثرانهما الإنجليز على العبقرية والنبوغ .

وأحمد حمزه كصديق ، يضرب به فى الوفاء المثل ، وهو لهذا وفىّ لحزبه ، وفىّ لوطنه ، وفىّ لعمله ، صادق لم يعرف الكذب فى حياته ، ولم تستطع الأسواق أن تغير من أخلاقه .

هو شيخ صالح للّجان الفنية ، وهو وزير صالح لإدارة وزارته ، ولكنه ، ليس بالخطيب الذى يهز أعواد المنابر ، وليس بالبرلمانى الذى يداور ويناور ، هذه ميزاته فاحكم أنت له أو عليه .

٢٠ — صبرى أبو علم باشا

صبرى أبو علم باشا وزير العدل ، أحد الوزراء الذين يصح تسميتهم « وزراء الشباب » برغم اجتيازهم تلك السن التى اصطلح الناس على تسمية أبنائها وحدهم شبانا .

شيخ منتخب فى سنة ١٩٤٢ عن قسم شبرا بمحافظة مصر

وصبرى أحد أعضاء الوفد البارزين النابهين ، وفيه مما نسميه « العبقرية » لمحات غير خافية ، بل فيه من الميزات والمواهب ، مايجيز للناقد أن يخلع عليها من التقريظ قدراً غير هين ، ونكنى أطوى هذا كله حتى لا أتهم بالإسراف فى تقريظ أحد الوزراء .

أقنع إذن بأن أقدم لك صبرى البرلمانى ، ولا أحسب أحداً فى مصر يجهل صبرى المحامى ، لأن صبرى المحامى عرفته المحاكم وعرفه التشريع وعرفه النبوغ من عشرات السنين ، وقد قص علىّ الأستاذ عبد الحميد عبد الحق أنه كان شريكا لصبرى وللمغفور له يوسف الجندى فى مكتب ضم ثلاثتهم فى سنة ١٩٢٦ وكان فى العتبة ، وأن مرضاً انتاب عبد الحميد فترك لهما المكتب ، ولكنهما جاءاه فى الشهر التالى ، يصران على أن يكون له الثلث دائماً من صافى إيراد المكتب ، وقدما له

أربعة ومائة جنيه هى قيمة هذا الثلث ، وكانت « خناقة » بين الفريقين ، هو لايرى حقاً له فى المبلغ ، وهما يريان حقه ثابتاً وفى غير حاجة إلى دليل .

من هذه الحادثة ترى لوناً خلقياً للرجال الثلاثة الذين عرفتهم البلاد مجاهدين قدامى يتقدمون الصفوف ، فأصبح أحدهم زعيما للمعارضة فى مجلس النواب الفائت ، وثانيهم زعيما للمعارضة فى مجلس الشيوخ ، وثالثهم هو صبرى أبو علم بطل هذا الفصل .

ندع إذن صبرى المحامى ، ونقدم لك صبرى البرلمانى وصبرى الوزير .

ومجلس النواب عرف صبرى من قديم ، ولكنى أحدثك عنه كعضو فى الشيوخ ، فاز فى هذا العام بهذه العضوية بالترشيح عن قسم شبرا ، فقاعة الشيوخ لم تشهده إلا وزيراً شيخاً لاشيخاً فقط ..

صبرى شكلا :

وصبرى باشا شكلا ، قصير القامة ، ملىء الجسم ، عامر الصوت ، فيه صلصلة مغرية للأسماع ، ولكن عيبها قلة المرونة فيها ، بحيث لايقوى صاحبها على تلوينها رفعاً وخفضاً ، وإحزاناً وإبهاجا ، وفقا لتعاليم فن الإلقاء الخطابى أو المسرحى .

وصبرى واسع العينين ، وسيم إلى حد ، أنيق فى غير إفراط ، أقرب إلى الوثب فى الخطو ، يبتسم ولا يضحك ، وإن ضحك لايقهقه ، أقرب إلى الجد منه إلى المزاح ، وأقرب إلى الترفع منه إلى التواضع ، لاعوج فى وضع الطربوش ولا « حفلطة » فهو إما أن يضعه فوق رأسه عاديا ، أو يزيحه إلى الخلف « على الطريقة البلدية » .

محامى الوزارة :

أما من حيث الموضوع ففى وسعك أن تسميه « محامى الوزارة » .

هو خطيب من غير شك ، وخطيب مفوه ، وعباراته جزلة ، وتعبيراته فخمة ،

ولغته سليمة ، أوتى طلاقة وأوتى سلاسة ، وأوتى قوة فى الحجة ، وجرأة فى الهجوم ، وعفة فى اختيار التعبير .

كل هذا صحيح لاشك فيه ، وكله يعد ميزات له ، ولكن عيبه أنه محام باللحم والدم ، أكثر منه برلمانيا مناوراً .. محام من الصنف الذى ينتصر لرأيه بأية طريقة ، وبأى تخريج ، لايعنيه أن يقابل مذهبه بهز الرءوس أو ابتسامات الشفاه ، مادام هو يكثر من استخدام المصطلحات الوطنية ، ومادام التصفيق من المؤيدين مكفولا له .

وكنت أتمنى أن أشهد صبرى فى صفوف المعارضة التى تعتبر امتحانا طيبا لمواهب البرلمانيين الذين يؤلفون الأقلية ، ويقاومون كثرة المؤيدين ، ولكن صبرى لم يكن عضواً فى مجلس الشيوخ قبل الانتخابات الأخيرة ، ولم يكن كذلك عضواً فى مجلس النواب السابق .

صبرى الوزير :

وصبرى الوزير رجل نابه وشغال ، وأقرب من سواه إلى العدالة ، ولعله الوزير الأوحد الذى بدأ يعمم طريقة الامتحان بين المتقدمين لوظائف النيابة والقضاء ، وساهم بشخصه فى المرور على لجان الامتحان ومناقشة الممتحنين ، وهو من أنصار استقلال القضاء ، ومن أنصار التسامى بمستوى القضاة ، ومن أنصار التنقيح والتعديل فى كثير من القوانين ، وعندى أنه وزير صالح لمنصبه .

ويبدو أنه يريد فى هذا العام أن يسجل لنفسه تسمية « محامى الوزارة » حقاً ، فقد ألقى حفنة من الخطب وحفنة من البيانات ، رد بها عن مختلف الوزارات ، فكان بضعة وزراء فى وزير واحد ، وكان يبدو متمكنا إلى حد كبير فى كثير من الموضوعات ، ولكنه يأخذ الأمور بأكثر مما يلزم لها من روح الجد ، وتعوزه المرونة فى المناورات البرلمانية ، كأن يبتسم لمعارضه مثلا فيسكته بابتسامة ، أو يستدرج

خصومه السياسيين إلى فخ برلمانى يقعون فيه . . مثل هذه « التكتيكات » التى ارتفعت بالمغفور له يوسف الجندى إلى ذروة المجد البرلمانى ، لايحسنها صبرى باشا الخطيب المدره ، والأديب المطلع ، والوزير النابه ، ونظن فى هذا القدر الكفاية .

٣ - عبد الواحد الوكيل بك

عبد الواحد الوكيل بك ! ! !

كنت أتصوره من كثرة بحوثه وعمق دراساته وعنايته بالمجتمع ، شابا ممشوقا رشيقاً ، أقرب إلى النحافة منه إلى البدانة ، وإلى التفرنج منه إلى المحافظة ، وإلى الأناقة منه إلى « الأحمدية » .

عبد الواحد الوكيل بك شيخ معين فى سنة ١٩٤٢

كنت صديقاً له فى دولة الفكر ، أتتبع باهتمام محاضراته ، وأطالع بعناية نتائج دراساته ، وأحفظ فى مكتبى كثيراً من تقاريره عن رحلاته فى البلقان ، وعن مشروعاته لمصر ، وعن أمانيه للمجتمع ، وعن نشاطه يوم ولى تفتيش صحة مصر ، فاشاع فى البدالين والقصابين والبائعين ذعراً ورعباً ، وطارد الغشاشين بغير رحمة ، وذاد عن صحة الشعب باتلافه المواد الغذائية التى عشنا على سمومها طويلا ، من غير أن نتنبه على الغرائب التى كشف نشاط هذا الرجل عنها .

كنت أتصور هذا الرجل هكذا ، حتى رأيته لأول مرة ، فرأيت رجلا كهلا فى

السن ، قصيرا فى القامة ، بدينا فى الجسم ، خفيفاً فى الدم ، تعجب له كيف يثب هنا وهناك ، وكيف لاتعوقه حرارة الصيف عن ذلك النشاط المتلاحق ، والدراسات المتتابعة ، والاضطلاع بعبء التعليم لطلاب الطب ، فوق أعمـــاله المصلحية وإصلاحاته الاجتماعية .

عبد الواحد الشيخ :

وعبد الواحد الشيخ .. هو الشيخ عبد الواحد.. بساطة فى الجلسة..و بساطة فى الشخصية . . تلوح الطيبة على قسماته ، بل تلوح السذاجة على كل حركاته ، قضى حياته طبيباً وقضى حياته موظفا .. واختير فجأة وزيراً .

ومن عجب — ولاعهد للرجل بالوزارات — أنه أحد أفذاذ قليلين قوبل تعيينهم بارتياح من الجمهور ، ولم يخطر ببال أحد شىء من تلك الاتهامات ، التى يعقب بها الناس على تعيين كل وزير لم يكن مرشحاً للوزارة ، أو لم يكن بارزاً بين الساسة ، فما هو السبب ؟

السبب تناهى فى البساطة ..

عبد الواحد الوكيل عرفه الناس مصلحا وكفئا ، والناس فى حاجة إلى المصلح الكفء ، واشتهرت مؤلفاته بينهم ، فرأوه لايفكر إلا فيهم ، وفى صالحهم ، فكان ملء القلوب منهم ، من غير حاجة إلى أن يعرفوه ، أو إلى أن يعرفهم ، فلما ولى وزارة الصحة فى البلد المريض ، كان لزاما أن يقابل تعيينه بالرضى والترحيب.

وعبد الواحد الوكيل كشيخ ليس برلمانياً .

إنه طبيب...وندر بين الأطباء الخطيب المدره أو السياسى الماهر أو الحزبى الماكر ... إلا من أوتى مواهب خاصة وهم قلة لايجاوزون أصابع اليد .

لاتنتظر إذن من الرجل المعنى بالعلم والبحث ، مهارة فى السياسة أو مناورات تحت القبة .

هو يجيب على سؤالك فى لغة « مش بطاله » و بعبارات طلية ، و إن كانت غير رنانة ، وفى وسعه طبعاً أن يناقش أعضاء البرلمان فى حدود اختصاصه ، ولكن بالذمة والصراحة ، لا بالحزبية ولا بالسياسة .

سئل فى اليوم الثالث والعشرين من هذا الشهر (يونيه) وفى أثناء نظر ميزانية الصحة فى مجلس النواب ، عن حكمة تعيين طبيب بدلا من مهندس فى وكالة الشئون القروية ، فقال فى بساطة « أنا ولو أنى مش قانونى أوى لكن أظن ده من اختصاص السلطة التنفيذية » فكأنما قال بهذا الجواب إن السائل لاحق له طبقا لنص الدستور على الفصل بين السلطات فى توجيه السؤال ، ولكنه استدرك قائلا « لكن مع ذلك أحب أن أطمئن النائب على أن الطبيب والمهندس صنوان متلازمان فى هذه الوكالة ، ولا ضير أن يكون أحدهما اليوم رئيساً وغدا مرءوسا » ثم أوضح علة التعيين ، ومن غير تزويق ، فاعلن السائل أنه اقتنع بجواب الوزير ، فإذا علمت أن السائل وجه سؤاله فى كثير من العنف ومن التحدى ، أدركت مدى ما تفعله صراحة الوزير المسئول ، فى إقناع السائل الثائر ، إذا جاء الجواب صريحاً لا تزويق فيه .

عبد الواحد الباحث :

وعبد الواحد الوكيل حاصل على « دبلوم الصحة العامة ودبلوم الطب والصحة فى المناطق الحارة من جامعة كمبردج فى انجلترا ودكتواره الصحة العامة من الجامعة المصرية » فهو « زحمة » فى الكفايات كما تراه ، ولكن هذه « الزحمة » لا تعنينى قدر عنايتى بعبد الواحد صديق القرية المصرية .

إنه رجل يحمل رسالة ويؤمن بها ويصر على أدائها .

هو مؤمن — خطأ أو صوابا — بأن إصلاح القرية المصرية هو العلاج الوحيد لإصلاح هذا الشعب لأن أغلبية الشعب الساحقة هم من سكان القرى

وهم الجهلاء والفقراء والمرضى ، فالذى يحررهم من ربقة الجهل والفقر والمرض ، يحرر مصر كلها ويخلقها خلقاً جديداً .

وعلى هدى هذا الإيمان يكافح هذا الرجل ، وقد نذر نفسه للاصلاح ، وقنع به عوضاً عن الزوجة والولد ، فلم يتزوج حتى اليوم ، وأحسبه قد بلغ الخمسين وجاوزها .

والرجل ليس غريباً عن البرلمان فى تفكيره ، وإن كان جديداً عليه بتعيينه ألقى مرة محاضرة عن « المرافق العامة فى القرية المصرية » فى المؤتمر السنوى التاسع للجمعية الطبية المصرية فاستهلها بقوله : « تصايحت أصوات كثيرة فى دار النيابة وخارجها ، يعارض أصحابها ما اعزمته الحكومة من إنشاء القرى النموذجية على نطاق واسع لإيواء الفلاحين ، كما تصايحت أصوات قوية أخرى تندد بهذا الرأى الذى من شأنه أهمال القرية المصرية وتركها فى حالتها الراهنة التى هى أسوأ حال » .

هذه النبذة تدل على أنه كان يرجو من الحياة البرلمانية الانتصار للقرية ، فلعله وقد أصبح عضوا فى الشيوخ وفى الوزارة ، محدث فى المجال القروى انقلابا نتطلع إليه نحن أبناء القرى بكثير من اللهفة [1] .

وللرجل آراء جريئة ، منها أنه أعلن فى محاضراته أنه لا يوجد طبيب صحى فى بلادنا ، يستطيع أن يجزم أى نوع من المراحيض القروية أكثر صلاحية من سواه صحياً واقتصادياً ؛ أو ما إذا كان الأوفق للفلاح ايجاد زريبه لجاموسته وحماره ، فى منزله ذاته ، فيصير فى القرية زرائب بعدد منازلها ، أو تنشأ للحيوانات حظائر خاصة بمنأى ومعزل عن القرية ، منعا من شيوع القذارة والذباب والروائح الكريهة فى أرجائها .

أسوق هذه العبارة لتفهم منها أن عبد الواحد الوكيل ذو عمق فى البحوث

---

(١) إقر البرلمان بعد صدور الطبعة الأولى مشروع إصلاح القرية للوزير

وله آراؤه فى تخطيط القرى والمياه الصالحة للشرب ، وفى طرق تصريف الفضلات وفى كل ما يجهله الآخرون أو الأكثرون .

والنقد البرلمانى لايتطلع — وهو يستقبل الشيخ المحترم فى قاعة الشيوخ — إلى شيخ سياسى ذى ناب، أوخال من الأنياب، فما أكثر أولئك وهؤلاء ، وما أشدنا زهدا فى أولئك وهؤلاء ، وإنما نتطلع إليه مصلحاً اجتماعياً يواصل الإصلاح ، ويغذى اللجان ، ويبدى الآراء ، ويؤمن بالرسالة .

«د»

الشيوخ

من الوزراء السابقين

هم أصحاب المعالى والسعادة :

١ — أحمد على باشا

٢ — أحمد لطفى السيد باشا

٣ — أحمد محمد خشبه باشا

٤ — أحمد مدحت يكن باشا

٥ — توفيق دوس باشا

٦ — جعفر ولى باشا

٧ — حافظ حسن باشا

٨ — حسن صادق باشا

٩ — صليب سامى باشا

١٠ — عبد الحميد بدوى باشا

١١ — عبد الحميد سليمان باشا

١٢ — عبد العزيز فهمى باشا

١٣ — عبد القوى أحمد باشا

١٤ — عبد المجيد ابراهيم صالح باشا

١٥ — على حسين باشا

١٦ — كامل ابراهيم بك

١٧ — محمد بهى الدين بركات باشا

١٨ — محمد توفيق رفعت باشا

١٩ — محمد حافظ رمضان باشا

٢٠ — محمد حسين هيكل باشا

٢١ — محمد حلمى عيسى باشا

٢٢ — محمد شفيق باشا

٢٣ — محمد على علوبه باشا

٢٤ — محمد نجيب الغرابلى باشا

٢٥ — محمود شكرى باشا

٢٦ — محمود غالب باشا

٢٧ — مصطفى الشوربجى بك

١ — أحمد على باشا

أحمد على باشا الوكيل السابق لمجلس الشيوخ ، أحد الذين ابطل تعيينهم بمرسوم ، فهو الآن ليس بشيخ .

وهو رجل طيب ، ومن حيث الشكل « مش أد كده » فلا يغضبه أن رسامنا لم يظفر بوجه معاليه يوماً ، فلم يلتقط لهذا الوجه رسماً .

أحمد باشا وزير سابق، ولكنه لم يكن نابه الشأن، ولم يسمع أحد أنه أحدث فى وزارة الحقانية انقلاباً ، أوفى أوساط القضاء تجديداً ، بل مرت الفترات التى ولى فيها بعض الوزارات ، وخرج منها ، والرأى العام لايعرف عنه ، إلا أنه «نمرة» من «النمر» أو مستوزرا من المستوزرين ، الذين كانوا يوضعون فوق الرف ، حتى يقع عليهم اختيار رؤساء الوزارات ، ليملأوا بهم كراسى شاغرة يعوزها الوزراء « الموافقون » .

وأنا كفرد من أبناء هذه الأمة، لم يجل بخاطرى أن أحمد على باشا يمكن أن يكون شيئاً أسمى من هذا .. حتى عرفته فى السنوات الأخيرة شيخاً من شيوخ الأمة ووكيلا أول لمجلس الشيوخ .

أحمد على شكلا :

وألقيت عليه النظرة التى ألفتُ أن أعْبر بها الشيخ لأول وهلة ، فعجبت للرجل كيف كان وزيراً، وخيل إلىَّ أن شكله لايرشحه لأكثر من رئيس صيارفة ، أو كبير قساوسة ، ولا أقول — تأدبا — كبير مرابين !!!

وضاعف عجبى أن ينتخب وكيلا للمجلس .

وظللت أحدق فى ظهره المحدودب ، وياقته البيضاء ، ذات النشاء فى الصيف وفى الشتاء ، وفى « سهتنته » العجيبة وعوده الأعجف .

وأخيراً لمحت فى عينيه بريقا يحملنى على معاودة التفكير فى ذكائه ، فقررت أن أنتظر، حتى يتخلى محمد بك محمود خليل عن الجلسة يوماً ، ويرأسها هذا الرجل فأضع قرارى .

وكيـــل :

وولى أحمد على الرياسة ، فرأيت عجبا ...

رأيت ذكاء متقداً ، ورأيت أعصاباً تحالف أعصاب حلفائنا حقاً ، ورأيت إلماماً بما ظهر وما استتر من أحكام الدستور وروحه ، ومن نصوص اللائحة ومقاصدها ، ورأيت حرصاً على المساواة بين الشيوخ بغير تفريق ، ورأيت صرامة فى تطبيق النصوص بغير رحمة ، ورأيت سعة صدر تحتضن لويس فانوس كما تحتضن يوسف الجندى فى غير مبالاة بالفارق بين كثرة كلام الأول وقوة عارضة الثانى .

كان الرجل قاضيا ودستوريا وموظفا إداريا ولكنه لم يكن برلمانيا .

لايعنيه نظام الأحزاب ولايتهيب الكثرة ، ولايخاف القلة ، بل يطبق اللائحة

وعندى أن أحمد على يعتبر أصلح وأعدل رئيس فى أيام السلام والهدوء ، لترويض الشيوخ على احترام الأحكام وتوقير النصوص، ولكنه لايُرضى حزبا إذا تفاقم الخلاف بين الأحزاب ، وكان لابد من أن يميل مع أولئك مرة ، ومع هؤلاء مرتين ... ليحفظ التوازن بينهم ويدرأ العواصف عنهم .

هذا هو أحمد على الوكيل والرئيس بالنيابة .

أحمد على شيخا :

أما أحمد على كشيخ فقد سمعته يتكلم مرتين من المنبر .

وهو ليس بخطيب مؤثر ، وعبارته عادية لاجزالة فيها ، ولكنه يعبر فى بساطة ويسر عن كل مايريده ، ويدلل بالمنطق وبالقانون ، ولم أره يوما ينتصر على الطريقة الحزبية لحزب بعينه .

هذا هو أحمد على باشا فى أوجز صورة له .

٢ — أحمد لطفى السيد باشا

ويجىء الآن دور الفيلسوف الكبير أحمد لطفى السيد باشا .

وهو رجل زاهد فى الشهرة بعد أن شبع منها ، فلا محل لأن أكثر من التحدث إليك عنه ، ولا أحسب أحداً فى مصر يجهل من هو أحمد لطفى السيد الذى أسمته المجلات فى أكثر من مناسبة « أحمد باشا أرسطاطاليس » إشارة إلى ترجمته أرسطو .

عين شيخا بعد أن ترك منصب مدير الجامعة ثم أبطل تعيينه بمرسوم ولم يعد ضمن من عادوا

وكيف يُجهل رجل عاصر السياسة نصف قرن من الزمن ، وكان صاحب « الجريدة » فى زمانها ، فتخرج على يديه جيل كامل ، من بينهم اليوم وزراء ذوو شأن ؟

وعندى أن من سخرية الأقدار أن يعيش أحمد لطفى السيد ، حتى يرى مصر وقد تناسته ، والسياسة وقد تخطته ، والحديث وقد أضرب عن أن يعرض له بخير أو بشر .

لا أتحدث إذن عن ماضى الرجل ، لأن الحديث عنه ذو شجون كما يقولون

وهو يحملنى على أن أثير أكثر من ذكرى، وأنبش أكفاناً لا ينبغى أن تنبش .

أريد أن أعبر هذا الماضى كله عبراً ، لأحدثك عن أحمد لطفى السيد فى نواح محدودة ، قد يطيب لى شخصياً شىء من الحديث عنها .

ليس ذا همة :

وعندى أن ضعف الهمة فى أحمد لطفى السيد ، هو الذى جنى عليه كسياسى ، و «ضعف الهمة» كلمتان قد تعطيان غير المعنى المستور الذى أريده منهما ، فالرجل قادر من غير شك ، وعالم من غير شك ، وعامر من غير شك ، ولكنه فيلسوف قبل كل شىء .. «يقرفه» أقل شىء فلا يجد « للقرف » الوطنى أو الاجتماعى علاجاً ، غير الترفع وإيثار السلامة ، والترفع فى زماننا هذا يسمونه الكبرياء ، وإيثار السلامة فى زمن النضال المادى ، يرادف من غير شك «ضعف الهمة» .

قعد — إذن — ضعف الهمة بالفيلسوف الأكبر ، فقنع من حاضره بماضيه ، يمده بالشهرة كلما أعوزته ، ولكن شيئاً واحداً حرص عليه — فى الحرم المعد له — وإن كان قد تهاون فيه عند ما عاد إلى السياسة وزيراً .

هذا الشىء هو حرية الفكر وأقداسها ، وقد حرص على هذه الحرية وذاد عنها فى الحرم المعد لها ، وأعنى به الجامعة المصرية ، يوم حملت الحزبية حلمى عيسى باشا على العبث بهذا الاستقلال ، وغضب الدكتور طه حسين فتضامن معه لطفى السيد ، وكان لهما موقف يذكر بالحمد حقاً .

ولكن حرية الفكر لحقها كثير من الغبن فى النضال الحزبى ، يوم ولى لطفى السيد وزارة المعارف مرة ، ويوم عين وزير دولة مرة ، فكان يقر تصرف وزارته الحزبية التى لم تخل تصرفاتها طبعاً من مصادرة لهذه الحرية .

لطفى الأخلاقى :

ولطفى السيد فى حرصه على أقداس حرية الرأى، ليس مفكراً فحسب ، بل هو أخلاقى أيضا ، وإهانة هذه الأقداس ، إهانة لأسمى مبادىء الأخلاق .

ولطفى أخلاقى من صباه و « من بيته » وله فى هذا المجال أحاديث تشبه الأقاصيص .

وهو جم الأدب من صغره ، رقيق مهذب ، وفىّ للأصدقاء ، قص علىّ أحد معارفه يوما ، أنه شهد بعينيه حادثا له لم ينسه .

كان القاص ضابطا فى النقطة التى تتبعها بلد أحمد لطفى السيد ، وكان لطفى السيد يومئذ وكيل نيابة ، وكان والده يجلس فى صدارة القوم يتحدث إليهم ، وهو خالع نعليه (مركوبه) ومتربع فى جلسته ، فلما فرغ من حديثه ، وهمّ بالنهوض ، أسرع « لطفى بك وكيل النيابة » إلى « مركوب » والده حين لاحظ أنه « مقلوب الوضع » فأعاده إلى وضعه وقدمه إلى أبيه فانتعله .

هذا الروح الشرقى الذى « يترفع » عن الأخذ به فى أيامنا خادم . . كان هو الروح الذى نُشِّىء عليه لطفى ، وحمله وهو وكيل نيابة على أن يفعل ما فعل بين جموع الأهلين .

لطفى المترفع :

وترفع لطفى الذى حسبه الناس كبرياء ، أبعد ما يكون عن الكبرياء ، وحسبك أن تصافحه فيقبل عليك فى ابتسامة وحرارة وأدب ، ولا يمد يده إليك إلا فى انحناءة رقيقة .

إنه ترفع الرجل يريد ألاّ يقرب صَغاراً ، ويتحفظ فى كل شىء ، حتى يخيل إليك — من فرط تحفظه — أنه أخو كبرياء .

لطفى السيد شيخا :

عين أحمد لطفى السيد باشا عضوا فى الشيوخ ، فرأيت فى تعيينه كسبا لاشك فيه للحياة البرلمانية ، وارتقبت بذاهب الصبر مقدمه .

وأقبل الشيخ فى بذلة كحلية اللون تقترن فيه أناقة الهندام برشاقة الخطى ، و يتدلى المنديل الحريرى الأبيض فى كبرياء أيضا ! ! من جيب سترته ، وقد أمسك الشيخ مسبحة من الكهرمان يعبث بحباتها ، وأحسن الشيوخ استقباله ، فبدأ يحييهم و يصافحهم فى أدب وتواضع ، وأخذ مكانه من المقاعد الخلفية بين « التخاين » طبعا .

وتكلم الشيخ مرة واحدة ، كان فيها المنطقى والقانونى والفقيه الدستورى ، وكانت عباراته مرتبة ، وأدلته قوية ، وصوته صافياً ، ونبراته رائقة ، وكان موضوع كلمته تفسيرا دستوريا لخلاف قام بين الحكومة والمعارضة .

أما بعد ذلك اليوم فقد التزم الصمت ، وأبلغ صمت له كان يومَ . . قدمت الوزارة مشروعات خاصة بالتعليم ، وصال فى « الجامعيات » وجال من يعرف ومن لا يعرف ، وأستاذ الجيل ومدير الجامعة الأول ، يرسل إلى فضاء القاعة ابتسامة فلسفية غامضة .

مدرسة قديمة :

على أنى لاحظت وأنا أطالع نتاج لطفى السيد باشا ، أنه محق فى انزوائه ككاتب ، فأسلوبه على الرغم من سمو تفكيره أصبح اليوم أسلوباً قديماً ، لا أحسبه يقوى على المقاومة فى زحمة الأساليب الحديثة التى تدعو إلى التجديد أو تلوكه على الأقل .

وخير مايذكر عن الرجل أنه صاحب رسالة أداها لبلده ، ثم اعتزل الجهاد وآثر السلامة .

حيـــاته الخاصة :

ولا أريد أن أتناول بالبسط كل ما ترامى إلىّ عن حياته الخاصة ، ولكنى أقول على الجملة لا على التفصيل ، إن الرجل نسبياً له مكان الصدارة أو يكاد بين عظمائنا . . فهو مثرٍ وغير بخيل ، وقد فقد زوجته من قديم ، فوفى لها بأن عاش بغير زوجة ، يعطف على ذوى قرباه ، ويحيا حياة ناعمة أنيقة ، فان نشب به الحنين يوماً إلى لون من ألوان البهجة ، فإن أحدا لم يقل أبدا إنه رأى لطفى السيد يجهر بمتعة ، وليس بممكن هذا الجهر لرجل يعتبر الكرامة حجراً أساسياً فى بناء الرجولة .

٣ — أحمد محمد خشبه باشا

فى آخر جلسة من آخر دورة لمجلس النواب المنحل ، دعانى زعيم المعارضة فيه يومئذ الأستاذ عبد الحميد عبد الحق إلى تناول فنجان من القهوة فى غرفة « زعيم المعارضة » فى المجلس ، فوجدت من ضيوفه فيها أحمد محمد خشبه باشا — وكان يومئذ عضواً فى وزارة سرى باشا — وشهد « السهراية » معنا عبد المجيد إبراهيم صالح باشا وعبد المجيد بك الرمالى والأستاذ حسن الجداوى والزميلان كامل الشناوى وأحمد حسن ، وكانت هذه أول مرة أجلس فيها إلى خشبه باشا .

وجرى بين الجماعة حديث طويل ومن تلك الساعة عرفت بعض ما ينبغى أن يعرف من شخصية خشبه باشا .

ظـــاهرة :

ويبدو أنها ظاهرة تكاد تكون كالحقيقة ثباتاً . . هى أن جمهرة الشيوخ الذين يعينون وزراء ، يصمتون إذا ما بارحوا كراسى الوزارة ، وعادوا إلى

كراسى الشيوخ ، فقد حضرت خشبه باشا وزيراً فى أكثر من وزارة ، ورأيته مجيبا على الأسئلة ، ومستجوَبا من الشيوخ ، ومشتركا فى نقاش مشروعات القوانين ، ووزيراً للعدل ووزيراً للمواصلات ، أما فى الفترات التى كان فيها شيخا وشيخا فقط ، فقد كان ينقل اسمه من جدول الوزراء المشتغلين بالكلام إلى قائمة الشيوخ غير المشتغلين به ، شأنه شأن الجمهرة من أصحاب هذه الظاهرة .

احمد خشبه باشا شيخ معين فى سنة ١٩٣٦

شخصيـة :

وخشبه باشا ضامر العود لا « فتونة » فيه ولا فتوة ، بل هو رجل متعب يمشى الهوينا ، مشية قد تظن معها أنه معجب بنفسه أو مستخف بغيره ، ولكنه نوع من الاعتداد بالشخصية والاحتفاظ بالكرامة — على طريقة « التبختر » فى صعيدنا — تدعمه سلسلة الساعة يعبث بها ماشيا ، فاذا جلس التف منه الساق بالساق و « زحلق » الطربوش إلى الخلف .

وخشبه باشا يصغى إلى النقاش إصغاء تاما تحسبه معه « سارحا » وما هو « بسارح » ويتكلم دائما ببطء تحسبه معه حليما ، وما هو بالحليم على طول الخط ، لأن أقل « نكشة » يخيل معها للباشا أن فيها مساسا بكرامته ، تثير أعصابه

وتثب بعروق الوجه و « يتنرفز » الوزير فى رده ، ويبدو حرص الصعيد على الكرامة فى أوضح صورة .

طريقتـــه :

وخشبه باشا مشتغل بالأدب العربى ، مبشر به ، رافع لرايته ، منكر للجانب الأكبر من الأدب الغربى ، مشبع فى عباراته بمختارات من أدب القرآن وأدب الحديث وأدب العرب . خاض المجتمعون فى غرفة زعيم المعارضـــة فى مجلس النواب السابق فى الحرب المدمرة ووسائلها الحديثة ، فراح خشبه باشا يذكر بالخير حروب العرب . بل جرى على لسانه — وإن كنت لا أذكر الحديث بنصه — تلك التى يسمونها « حرب البسوس » و « حواديت . . كليله ودمنه » فترحمنا على كليب وناقته ، والسيد شتربه « الحوار » .

ولخشبه باشا طرائف تذكر ، ومصطلحات تتداول ، منهـــا أن معاليه كان إذا اشتد الخلاف فى أثناء نقاش استجواب بينه وبين زعيم المعارضة ، وغضب هذا وضرب المائدة بيديه ، رد خشبه باشا قائلا « إن الله مع الصابرين . . سيأتى الجواب » وقد أسرف معاليه مرة فى هذه العبارة حتى انتهى النقاش ، وظلت أسئلة المرحوم الجندى بغير أجوبة ، فطالب بها ، فقال خشبه باشا ، وهو يبارح المنبر إيذانا بأنه قال كل ماعنده : « إن الله مع الصابرين » ورد الأستاذ الجندى غاضباً : « مع الصابرين لامتى ؟ لغاية مايتخنقوا ويموتوا » وضج الشيوخ بالضحك ، وعاد المرح إلى القاعة .

وخشبه باشا غير لَسِنٍ فى الخطابة ، ولكنه سليم العبارة ، حريص ، على قدر الإمكان ، على تعاليم أبى الأسود وقوانين الصرف ، أما من حيث هو منازل برلمانى ، فما أبعده عن البراعة فيما نسميه « التكتيك الحزبى » .

ويكثر معاليه حين الإصغاء إلى من يستجوبه من هز رأسه حتى تظنه

موافقا ، على كلام خصمه ، فاذا جاء دور خشبه باشا فى الرد ، تبين أنه لم يكن موافقا وأن هزّ الرأس منه « لازمة أسيوطية » لاينافسه فيها غير البيه البسيونى !!

ويقول عارفو الباشا إنه رجـل طيب و « حركاته » فى المجلس تؤيد هذا القول ، وإجاباته على المسائل الفقهية ، تدل على أنه فقيه فى القانون ، وإن كنا لا نحشر أنفسنا فى زمرة من لهم حق الحـكم على مثل هذه المسائل .

وأخـــيراً :

وأخيراً فهاهو ذا خشبه باشا يعود إلى القاعة شيخاً فلا نسمع له حساً . . . فلننتظر حتى يعود إلى الحكم وزيراً ، ليؤكد لنا من جديد أن الله مع الصابرين !

٤ — احمد مدحت يكن باشا

فى ٨ من مارس سنة ١٩١٩ وعلى أثر تقديم الوفد المصرى مذكرة ببرنامجه إلى سفراء الدول، يطالب فيها باستقلال مصر ، ذعر الإنجليز ، وقبضوا على رئيس الوفد — سعد زغلول — وثلاثة من إعضائه — اسماعيل صدقى ومحمد محمود وحمد الباسل — ونفوهم إلى مالطه ، فغضبت الأمة، فأطلق سراح المعتقلين، وأجيز لهم السفر إلى باريس لحضور مؤتمر فرساى،وألفت الوزارة الرشدية الرابعة، فاختير أحمد مدحت يكن باشا وزيراً للزراعة فيها ، ولما لم تتمكن الوزارة من إجابة مطالب الوطنيين المصريين، والاعتراف بسعد ورفاقه ممثلين للأمة ، تذرع رئيسها بضعف صحته بعد اثنى عشر يوما من تشكيلها ، وقدم استقالته ، فكانت مدة ولاية أحمد مدحت يكن لوزارة الزراعة هى هذه الأيام المعدودات ، ولما ولى عدلى يكن باشا الوزاة فى ١٧ من مارس سنة ١٩٢١ أسند إلى مدحت باشا وزارة الأوقاف ، وفى ٣١ من اكتوبر سنة ١٩٢٩ أسند إليه عدلى يكن وزارة الخارجية .

نخرج من هذه النبذة بأن مدحت يكن باشا وزير من قديم ، ومن بداية العهد الذى نهضت مصر فيـــه تطالب بحقوقها ، وفى خلال الفترة التى اختلف فيهـا رجالات مصر ، وتطاحنوا حزبياً أعنف تطاحن ، فهل الرجل من طراز هؤلاء المتطاحنين ؟ وهل هو سياسى قدير ذو أنياب رشحته للوزارة من تلك الأيام الخوالى ؟

مدحت يكن باشا وقد أبطل تعيينه المرسوم الأخير

الجواب بالنفى ، أو قل — على الأقل — إن أحداً منا نحن أبناء هذه الأيام ، لم يسمع شيئاً عن كفاية هذا الرجل ، وأغلب الظن أنه رجل وقور من بيت كبير ، يعنى رؤساء وزارات تلك العهود بأن يملأوا بمثل وجاهته ووقاره كراسى الوزارة ، ولا يجد هو وأمثاله أية غضاضة فى الاستجابة ، شأنه فى السياسة كشأنه فى الاقتصاد ، حين رأى زعيم مصر الاقتصادى المغفور له طلعت حرب ، أن يستعين بمدحت يكن فى رياسة مجلس إدارة بنك مصر ، فظل فيه السنوات الطوال ، يملأ الكرسى بوجاهة لابجدارة ، فلما سحب الكرسى منه عاد إلى بيته ، يحيى ذكريات البقية الباقية من عهد الأتراك المتمصرين أو المصريين المستتركين.

مدحت يكن شيخاً :

فهل كان مدحت باشا فى الشيوخ غيره فى البنك وغيره فى مناصب الوزارة ؟

كلا . . هو فى المجلس كما كان دائماً « عضواً شرفياً » إن صح هذا التعبير ، لم يتكلم يوما — ولا يستطيع كلاما — وكل السنوات التى سلخهـا تحت القبة شيخاً ، كان يجىء فيها من بيته إلى القاعة ، ليدخلها صامتاً ، ثم يعود إلى بيته سالماً.

والشيخ شكلا :

والشيخ يعتبر من أولئك الذين يملأون الكف حجما ، قصير نحيل ، كأنما كان جسمه هو المعنى من قول الشاعر « لو توكأت عليه لانهدم » يلبس طربوشه مضغوطاً فوق رأسه ، وفى وجهه مايشير إلى وسامة ماضيه ، و إلى جمال ذهبت به السنون ...

على أن الشيخ مهذب مسرف فى التهذيب ، رقيق موضوعا كرقته شكلا ، محبوب من الجميع ، لا أحسبه ألحق أذى فى حياته بأحد ، معقول الثراء ، له من دنياه ابنة واحدة عزيزة عليه معبودة منه ، هى عقيلة النبيل عباس حليم ، يعيش معها ومع صهره فى قصره الفاخر عيشة هادئة .

ويخيل إلىّ أن السن تقدمت بالرجل ... مد الله له فى الأجل .

٥ — توفيق دوس باشا

توفيق دوس باشا !!

سمعت باسمه وأنا طالب فى القسم الثانوى مرتين ، مرة بمناسبة اختياره عضوا فى لجنة الدستور ، وأخرى بمناسبة ندبه (وكان محاميا) ضمن المستشارين الفنيين للوفد الرسمى أو (العدلى) الذى سافر إلى لندن للمفاوضة ، فاذا علمت أنه لم يكن — كجمهرة عظماء مصر يومئذ — عضوا فى الوفد المصرى ، أدركت أنه أعرق الأحياء فى الانضمام لكل جبهة تناوىء الوفد منذ قام ، أو تختلف — على الأقل — فى الرأى معه .

ولست أدرى إن كان توفيق دوس قد أحسن اختيار المعسكر الذى انحاز إليه أو أساء الاختيار ، ولكن الذى أعلمه أن توفيق كان جريئاً من يوم ظهوره

على مسرح السياسة ، ولم يحاول البتة أن يربح رضاء الرأى العام

وقد رددت جنبات البلاد اسم المحامى الشاب «شيخ الآن» توفيق دوس بك « باشا الآن » منذ عشرين عاما ، يوم اجتمعت لجنة وضع المبادىء العامة للدستور المصرى برياسة حسين رشدى باشا ، وعرضوا للمادة الثالثة التى نصت على أن المصريين لدى القانون سواء ، وهم متساوون فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية ، وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامه ، لاتمييز بينهم فى ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين ، فوقف توفيق دوس يقترح « أن يوضع للأقليات نظام يضمن تمثيلها فى مجلس النواب بنسبة تتفق مع عدد هذه الأقليات » .

عين توفيق دوس باشا
بمرسوم فى فبراير الماضى عضوا فى مجلس الشيوخ

أحدث توفيق بهذا الاقتراح ضجة تردد صداها فى طول البلاد وعرضها ، وصوّر توفيق فى خلالها أسوأ صورة ، وساعد على سوء التصوير أن الوفد كان معبود الجماهير ، وتوفيق لم يكن وفديا ، وأن الأقباط الوفديين خذلوه ، وأنكروا عليه هذا التفريق ، وجادلوه فيه على صفحات الصحف ، وكان توفيق فى نظر الجميع زعيما للخوارج .

وأشهد أنى وقد مضى على الحادث عشرون عاما — لا أزال غير قادر على الحكم على نية الرجل فيه ، وأنا أكتب لك الآن هذا الفصل وبين يدى محاضر لجنة الدستور ، وذلك الجدل الرائع البديع الذى جرى بين توفيق دوس

وعبد الحميد بدوى فيظفر الإثنان باعجابى ، ولكنى أجد نفسى بعد هذا الإعجاب كله حيث كنت ، من عجزى عن الحكم على نية الرجل .

نعم ليس فى وسعى أن أعتقد أن مصريا نابها كتوفيق ، كان يريد أن « يهدم القومية المصرية التى حافظت عليها الأمة بهدر دمائها » كما جاء فى البرقية التى احتج فيها الأستاذ وديع صليب المحامى بالمنصورة يومئذ على توفيق ، ولكن تاريخ توفيق بعدئذ لم يكن دستوريا سليما حتى أعتقد أن الرجل كان بريئا ... وخير ما استرحت إليه نوعا أن الرجل كان مسوقا فى موقفه بما حسبه صالحا لطائفته ، ولكن هذه الراحة لم تلبث أن اكتنفها شىء من الغموض ، حين قرأت لتوفيق قوله للجنة عن مسألة الأقليات ، إنها سيئة الحظ فى جميع درجاتها ولما كان سوء الحظ فى طرحها « أننى أنا الذى طرحتها وأنا أحد أفراد تلك الأقليات . كان من الطبيعى أن يتبادر إلى الذهن أنى طرحتها لمصلحة الأقباط خاصة » .

لم أجد إزاء هذا الغموض إلا أن أقنع بالإشارة إلى ذلك الموقف التاريخى لأثب منه إلى سواه .

توفيق وتاريخه :

نعم أتخطى عشر سنين أو أقل ، لأشير إلى الدور الخطير الذى لعبه توفيق يوم أسند إليه صدقى باشا فى سنة ١٩٣٠ وزارة المواصلات ، واشتغل توفيق مفتياً لصاحب الانقلاب ، يحرم الحلال ويحل الحرام ، بمذكرات وأسانيد يقف المفكر أمامها مبهوتاً .

وأتخطى ذلك العهد أيضاً إلى توفيق نائبا جريئاً فى مجلس النواب الفائت ، وقد اكتمل له النضج ، وصال تحت القبة وجال ، وعلى مرمى أمتار منه « أبو السباع » العبقرى ! ! !

وأخيراً أصل بك إلى توفيق عضواً فى مجلس الشيوخ القائم .

وليس من شك فى أن توفيق باشا استطاع فى هذه الأعوام العشرين أن يجمع ثروة طائلة ، من حقه كمحام كبير أن يقول إنه جمعها من عرق الجبين .. ولكنى لا أدرى لماذا لا يصدق المواطنون هذا القول ؟ ولماذا يلغطون كثيراً بأقوال أخرَ ؟ أفليست شطارة من محام قديم قادر أن ينتهز كل فرصة للغنى مادام الرأى العام لم يحطه بشىء من العطف فى كل أطوار حياته ؟ ومن ذا الذى يحرم على رجل نابه وذى ناب كتوفيق ، أن يعقد الصفقات التجارية وأن ينافس الأجانب فى الكسب وأن يغدو هو أخيراً نصف مليونير ؟ وأن يصبح شرفا لمصر عندما يشار بالبنان إلى ذلك المبنى الهائل الضخم القائم على ناصية شارع سليمان باشا فى القاهرة ، ويسأل السائل « لمن هذا الملك العريض » فيجيب المجيب « لتوفيق دوس المصرى » ؟

توفيق شكلا :

وتوفيق شكلا لا تحسبه شيخاً . الدنياله قد «زهزهت» والبهجة قد توافرت ، والصحة قد كملت ، والنجاح حليف مشروعاته ، وأبناؤه موفقون ، وحفلاته « المثمرة» لا تنقطع ، فما الذى يحول دون دوام الشباب ؟

لقد أقبل الرجل على قاعة الشيوخ مزهوا بكهولته الفتية ، وفى صدره العريض رشقت وردة فاتنة ، فرأيت أن أشير إليها ، وأنا أخلص لقراء « البلاغ » الجلسات فتخلى الشيخ عنها وحرمنا منها .

وتوفيق دوس أنيق الزى . . باسم الثغر . . لطيف فى مجموعه .

توفيق موضوعاً :

أما توفيق موضوعاً . . وتوفيق خطيباً . . وتوفيق بليغاً . وتوفيق مدافعاً . .

وتوفيق مهاجماً . . فأمر يعرفه أهل الرأى جميعاً ولا يختلف عليه اثنان .

ومن عجب وقد أبطل تعيين شقيقه وهيب ، وعين هو فحل محله ، أن من العسير أن نفرق بين الاثنين ، وكلاهما ألثغ فى الراء لثغة خفيفة وظريفة ، وكلاهما ينفرد بايماءات خاصة كأن معلما تعهدهما القاء وطبعهما بطابعه ، فان سألتنى تعريفا ، فقصارای أن أقول لك إن توفيق أروع خطابة من وهيب ، وإن وهيب أبرع فى « التكتيك البرلمانى » من توفيق .

وليذهب الماضى على كل حال بكل ما حمل . . وليثق القراء بأن كفاية توفيق نافعة فى مجلس الشيوخ ، وسادة نقصا غير هين ، وهو الآن مستقل ، وقد أثبت منذ عين ، أنه يدافع عما يعتقد أنه الحق ، بقطع النظر عن الجبهة التى تنتفع بدفاعه ، فهو قد يغضب الحكومة يوما ، كما حدث فى خطابه التاريخى الذى ألقاه فى شأن البحث الدستورى حول سلطة الحاكم العسكرى والحصانة البرلمانية ، وقد يرضى الحكومة بعدئذ كما حدث فى البحث فى دستورية المرسوم الأخير الذى عين توفيق بمقتضاه .

أريد أن أقول إن وجود توفيق فى مجلس الشيوخ ، كسب لا شك فيه للحياة البرلمانية فى مصر .

٦ — جعفر ولى باشا

جعفر ولى باشا غريب كوزير : أقبلت عليه الوزارة بشهية . . ثم أدبرت عنه فى غير رحمة . ولعلك لا تجد تعليلا للاقبال المتواصل وللادبار المتواصل ، إلا أن زمان الأصدقاء الذين كانوا يؤلفون الوزارات ، ويثقون بالرجل ، قد ولى بتوليهم عن هذه الدنيا ففى ٩ من ابريل سنة ١٩١٩ وقع اختيار حسين رشدى على جعفر وزيرا

للأوقاف وفى ١٧ من مارس سنة ١٩٢١ وقع اختيار عدلى يكن على جعفر وزيراً للمعارف ، وفى أول مارس سنة ١٩٢٢ وقع اختيار عبد الخالق ثروت على جعفر وزيراً للاوقاف وفى ١٥ من مارس سنة ١٩٢٣ وقع اختيار يحيى ابراهيم على جعفر وزيراً للمعارف وفى ١٩ من يوليه سنة ١٩٢٨ وقع اختيار محمد محمود على جعفر وزيراً للاوقاف. ومن ذلك اليوم لم يقع اختيار أحد على جعفر كأنما هو جعفر البرمكى و كأنما لحقه طرف من نكبة البرامكه .

جعفر ولى باشا شيخ معين سنة ١٩٣٦

شخصية جعفر:

والآن أقف أمام شخصية الرجل، فأنت فى الحق إزاء شخصية ظريفة محبوبة ، هو رجل فارع العود ضامره ، رياضى التكوين، مستترك اللون ، لايخلو من وسامة برغم السن . . وهو أحد الشيوخ الصامتين على طريقة العظماء (إللى عيب يتكلموا) مع أن الرجل فى طليعة المحدثين فى مصر هدوء القاء ، وحسن انتقاء ، وحلاوة تعبير ، وسعة اطلاع ، وصدق رواية ، فاذا كانت أعواد المنابر لم تشهدله بالخطابة ففى وسعه أن يرتقيها ، وأن يسوق الرأى فى قالب حديث ساحر ، ولكنه لم يفعل .

وما دام الرجل صامتاً فى القاعة ، فمن حقه علينا أن نقدمه إلى قرائنا حتى لا يحسب بعضهم أن هذا الصمت عن عى فى الكلام أو عن خواء فى الشخصية .

تاريخـــه :

وجعفر ولى من أصل تركى فهو على القياس ارستقراطى النشأة ، وإن كان أصدقاؤه يؤكدون أنه ديموقراطى النزعة .

لاأعرف شيئاً عن طفولته ونشأته ، وإن كنت أعرف أنه كان نابغة من أيام تلمذته، وكان مثل عبد الحميد بدوى أول فرقته ، وكان معروفاً بقوة حافظته، بحيث يجوز لك القول إنه أحـد أفراد قلائل اعتبروا بسبب هذه الحافظة مراجع فى الأدب العربى موثوقا بهـا ، فالرجل من الصغر يستظهر عن قلب جل ماطالع — وإنه لـكثير — من الشعر والنثر .

شغف حباً بالأدب من أيام التلمذة .. فتوفر على الحفظ ثم الحفظ ثم الحفظ .. حتى غدا موسوعة لايدرى إلا الله أين طرفاها أو مداها ، وشغف حباً بالألعاب الرياضية من أيام التلمذة أيضاً .. ولايزال أباً لهذه الألعاب يدير الأندية أو يرعاها ، ويبذل للترقى بها من وقته مالا يبذل أب للترقى بأبنائه .

عرف من الصغر (بغيات) أو (هويات) ثلاث : الأدب والألعـاب الرياضية والشطرنج . وكلها تدفع بصاحبها إلى غمار المجتمع ، وقد أصبح الرجل بفضلها اجتماعياً معروفاً اتخذ (قهوة جراسمو) من أيام التلمذة ندوة له ، وخالط فيها كثيرين من البارزين . وعده (شمپيونات الشطرنج) فيها من خيرة اللاعبين .

ومما يروى عنه أنه ثالث ثلاثة كانوا يكرون ويفرون فى ميدان الشطرنج، وإن كان الاثنان الآخران أستاذين له فيها .. أحدهما كان رجلا إنجليزياً يدرس اللغة الانجليزية فى مدرسة الأقباط الـكبرى يومئذ ، وكان الآخر درويشاً تركياً فى تـكية المولوية ، كل ماله من الدروشة ، الزى المولوى و (الراتب) المخصص له، أما شخصيته فـكانت قوية قبل أن (يتدروش) وكان من أسرة تركية كبيرة .. وكان الرجلان فرسى رهان فى اللعبة، وكان جعفر الشاب الصغير صديقاً لهما يعنيه أن يدرس

حقائق الأجناس عليهما ، ليقص على إخوانه طريقة كل منهما ..

فالإنجليزى كان يمشى وئيداً .. ويشيع فى الجو برودا .. فالبيدق عنده بيدق لا أكثر .. والفيل بالفيل .. حتى إذا قارب النهاية ترقى بقطعة واحدة على غفلة من صاحبه ، فكسب الإنجليزى شوطه فى يسر وعلى مهل .. أما التركى فكان أكثر مهارة وأشد مغامرة .. يعد العدة لإحدى المغامرات ، فإما اكتسح خصمه — وندر الاكتساح — وإما فشلت المغامرة وكثر الفشل .

كان جعفر ولى يُعنى بمثل هذه الدراسة ، فاذا لاحظت هذه الصداقة بينه طالبا وبين ذلك الرجل الإنجليزى مدرسا ، فلا تعجب لثقة الإنجليز بعد تلك الفترة بسنين بأخلاق جعفر حين تخرج واشتغل فى النيابة ، فوقع عليه اختيارهم ليكون سكرتيراً لمستشار الداخلية الإنجليزى الذى كان الحاكم بأمره يومئذ ، فلما نشبت الحرب الكبرى وكثرت اعتقالات الأتراك ، كان المفهوم أن يبعد جعفر عن منصبه — إذا أعفى من الاعتقال — ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، وظل الرجل فى المنصب الدقيق وفى الظرف العصيب ، تنتهى إليه هزائم الأتراك فيبكى بالدموع ، ويطلب إليه أقارب الأتراك المعتقلين أن يقوم بدور الوسيط فى إخلاء سبيلهم ، فيأبى أن يأتى أمراً يثير أية ريبة ، وبهذا الحرص استطاع جعفر أن يعبر ...

وكيل فوزير :

وفى أثناء الحرب خلا منصب وكيل وزارة الداخلية ، فرشح له اثنان : المغفور له محمد محمود باشا وكان يومئذ مديراً ، وجعفر ولى باشا ... ثم وقع اختيار الإنجليز على جعفر فأسند إليه المنصب ، ومرت الأيام ، وقامت الثورة ، ولا أعرف لجعفر باشا حظا فيها ولا نصيبا منها ، بل أعرف على النقيض أن الفرقة حين دبت بين الصفوف ، تجلت عاطفة جعفر مع المعسكر الذى خاصم سعداً ، فلما ألف رشدى وزارة سنة ١٩١٩ اختاره وزيراً كما سبق القول .

مفارقات

وكما جمع جعفر فى حياته الأدبية بين العمق فى العربية والإنجليزية . . جمع كذلك فى حياته الشخصية بين البيت الاوربى والبيئة الإسلامية ، فقديماً تزوج سيدة أجنبية زواجا قام على العاطفة ، وواءم صلاته يومئذ بالبيئات الأوربية ، وعاش معها حتى قضت . . وحديثا تزوج من كريمة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، فعاد بيته إلى جو العروبة والإسلام لحما ودما . . ونثرا وشعرا .

وجعفر غاية فى الأدب الخلقى وفى التهذيب السلوكى ، وإن شئت فاعتبره (چنتلمان) قادراً على أن يظفر باحترامك إذا لم يظفر بحبك .

والنتيجة

والنتيجة التى نخرج بها عن سعادة الشيخ المحترم جعفر ولى باشا ، أنه شخصية قوية فى ذاتها ، ولكنها لاتضفى ظلالها أو لا تملى تأثيرها على الجماهير ، لأنه رجل يحب السلامة ويؤثر الصفاء ، ويُفهم من ضعف ثروته نظافة يده ، ولو شاء لأثرى ، والحق أن مصر تفيد منه خارج قاعة البرلمان ، أكثر مما تفيد داخل القاعة .

٧ — حافظ حسن باشا

وهل سمعت أنت الشىء الكثير عن حافظ حسن باشا ، حتى تطالبنى أنا بالشىء الكثير عن الرجل ؟ إنه أشد صمتاً من الصامتين جميعاً ، وأكبر سناً — فى الظاهر على الأقل — من أن تسميه شيخاً .

هو شىء متعب — وأنت حر فى كسر العين أو فتحها — يجىء إلى القاعة وينصرف عنها ، فيذكرنا دائماً بعصر الانتقال الذى نعيش فيه ، حيث تتجمع الأجيال فى جيل ، وأحدق فى الشيخ ، فلا أرى فى تقاطيعه ، مايدل على أنه استمتع

بالوسامة يوما فأرثى له شابا ورجلا . . . وأرثى له كهلا وشيخا . . وأكاد أجزم بأن الحكم لم يعرفه يوما .

أكاد أجزم بهذا ، ولكنى لا ألبث أن أعود إلى الماضى والدراسات ، فيطالعنى اسم حافظ حسن مذكورا أومنشورا ، وأهتدى إليه مجلوا ومزهوا ، مزهوا بعضوية لجنة الدستور من عشرين عاما ، وبمناقشاته الطيبة فى لجنة وضع المبادىء العامة ، ومجلوا فى تاريخ الوزارات أيضاً ، فقد كان وزيرا للأشغال فى وزارة يحيى ابراهيم فى سنة ١٩٢٣ ، وللمعارف فى وزارة عدلى يكن فى سنة ١٩٢٩ ، وللزراعة فى وزارة إسماعيل صدقى سنة ١٩٣٠ ، ومن يدرى ! ! فقد يكون الرجل كفئا ونحن غير دارين ، وقد يكون مربيا مقطوع النظير ، ونحن « مش عارفين » وقد يكون سياسياً ذا مخالب ، بدليل اشتراكه فى وزارة صدقى ، ولكن مالى أناوهذه المباحث المضنية ، وقد عين شيخا فى ٨ من مايو سنة ١٩٣٦ فسلخ تحت منظار نقدى بضع سنين ، لم يجد فى خلالها ما يثير شهيته إلى إلقاء كلمة أو إبداء رأى ؟ وكذلك لم يثر شكله شهية رسامنا إلى التقاط رسم له ! !

الرجل يؤثر الراحة .. فليتركه النقد مستريحا .. وإن كان قد شغل كرسيا

٨ — حسن صادق باشا

والآن يجىء دور حسن صادق باشا وزير الدفاع السابق . . .

وحسن صادق شخصية لا يعرفها رجل الشارع ، بل لعل جمهرة المثقفين لا يعرفون عنه أكثر من اسمه الذى قرنته الصحف بالوظائف الفنية التى وليها ، وقرنته أخيراً بالوزارات التى تنقل بينها ، بعدأن أحسن دولة سرى باشا باختياره ، فكان دعامة قوية وخفية من دعامات الحكم فى العهد الأخير . ومن حق أن آسف — كنا قد حر — على حرمان مجلس الشيوخ من وجود هذا الرجل فيه ، بعدأن

أبطل تعيينه ضمن من أسقط عضويتهم مرسوم فبراير الماضى ، وأتصور مدى هذا الحرمان عندما أفكر فى مشكلة چيولوچية أو غير چيولوچية تعرض يوماً للجان المختصة ، فنفتقد العالم الفذ والباحث المتمكن حسن صـــادق ولا نجد له بين الشيوخ مكانا .

كان عضوا معينا
وأبطل تعيينه بمرسوم ولم يجدد

حسن صادق . . شكلا

وصلتى بالرجل هى نفس الصلة بينى فى المجلس ناقداً يطل على الشيوخ من شرفة الصحافة ، وبينه وزيراً لا أكثر . . يجىء إلى القـــاعة أنيقاً غير متزمت ولا متكلف . . يتقدم سترته منديل هفاف رفراف ، يطل من الجيب فى جرأة الشباب . . ويستوقف الأنظار بجمال الشكل وحسن الذوق .

وحسن صادق . . من جهة الشكل وسط بين الطول والقصر . . ملىء الجسم . . عريض مابين الـكتفين واسع العينين . مبسوط الأسارير . . وسيم الطلعة . . طويل مقياس الطربوش . . صارخ الحمرة فى اللون أشبه بطربوش الجندى . . رياضى الجسم . . يخيل إليك أنه لايجاوز الأربعين بل لايدركها ، فاذا عرفت أنه جاوز الخمسين ولاحظت فيه هذه الفتوة — وأنا أسميه بلغة أولاد البلد صَبْوَة بين الوزراء — تتردد فى أن تقول (عين الحسود فيها عود) و (صلاة النبى أحسن)

وقد حاولت من يوم اختاره حسين سرى باشـــا وزيراً للمالية فى نوفمبر سنة ١٩٤٠ وأصبح يتردد على مجلس الشيوخ، أن أبحث عبثاً عن بذلاته القديمة . . فلما أعيانى البحث ، قررت أن الأمر لايعدو حالة من حالتين: فاما أن عند الرجل

عدداً كبيراً من البذلات ، وحرصاً هائلا عليها بحيث تبدو دائما كأنها مرسلة من (الترزى) فى يومها ، و إما أن الرجل بالغ من الأناقة و (اللارجبه) حداً يخلع معه كل مايخيل إليه (أنه غير جديد) على غيره ليرتدى جديداً . و بالإيجاز يمكنك أن تقول إن الرجل دائماً (لامع) ودائما (شـــباب) . . فى ساحته تلتقى الغضارة بالنضارة .

حسن صادق . . موضوعاً

أما حسن صادق موضوعاً : فلاشىء عندى عن صباه إلا أنه تلقى العلم فى انجلترا ، ووجدت التربية الإنجليزية فى استعداده التربة الصالحة لبـــذر بذور الاستقامة و (الجنتلمانية) فيها فنمت وترعرعت وعاد الينا مصرياً صميما . . طاهر الذيل . . نظيف الخلق . . مؤمناً بأن أقصر الطرق خط مستقيم بين نقطتين . . لايطوى ولا ينطوى . ولا يعرف الـكذب ولا المحاباة . . ولا الجبن ولا التردد . . وآثر أن يصون هذه الأقداس كلها فى وظيفة فنية إذا لم تثب به يوماً إلى الصدارة كما تثب العبقرية بالعباقرة ، فلا أقل من أن تحفظ عليه الـكرامة . . وتجنبه مواطن الزلل الحزبى ، فالتحق بمصلحة المناجم ، لأنه عاد عالما بالچيولوچيا مهيئاً لخدمة بلاده عن طريق إسعادها باخراج ما حوت طبقات الأرض فيها من غالى كنوزها .

ومضى حسن صادق إلى غايته موظفاً فى المناجم ، فأستاذاً للچيولوچيـــا فى «المهندسخانة» وقيل إنه عمل فترة أستاذاً فى كلية العلوم ، وظل يترقى حتى عين مديراً لمصلحة المناجم ، فمديراً لها ولمصلحة المساحة معاً ، فوكيلا لوزارة المالية ، وطارت شهرته كرجل موفور الـكفاية جم النشاط ، إلى أن ولى سرى باشا الحـكم ، وبحث عن الدعامات القوية والفنية ، فدعا حسن صادق إلى مبارحة حجرة الوكيل فى هذه الوزارة الخطيرة إلى مكتب الوزير الخطير ، فملأه الرجل ، فلما توفى وزير الدفاع صالح يونس باشا ، أراد سرى باشا أن يزيد وزارته قوة فجاء بعبد الحميد بدوى وزيراً

للمالية ، وانتقل بحسن صادق وزيراً للدفاع ، فرأيناه فى وزارة المدفع والدبابة والطيارة مثالا للنشاط يشهد كل احتفال ، ويخطب فى أفواج الخريجين من أركان الحرب ، ويطوف بمختلف أسلحة الجيش دارساً فاحصاً فى غير ضجة ولا جلبة

وتخلل هذا كله جهد له فى المجمع العلمى المصرى . . وكان له نصيبه فى تأليف الاتحاد المصرى الإنجليزى . . . حتى اختير مرة لرياسته ، فعمل على توطيد أواصر التعاون بين الحليفتين طويلا . . وإن كان قد لاح له أخيراً أن مهمته انتهت أو كادت ، فآثر الاعتزال فى بيته .

وحسن صادق رياضى التكوين لا جسما فقط كما أشرت ، بل خلقا أيضاً . . وهو جاد المظهر إذا نظرت إليه مثلى من الشرفة ، فاذا استقبلك فى مكتبه ، لم يشعرك أبداً بما ألفناه فى مصر من (رسمية الوزير) وتزمته . .

عيـــوبه :

وقد أردت أن أبحث عن عيوب الرجل فلم أجد غير عيب (العناد) فيه . . ولكنه عيب يحتاج إلى دليل . . عيب سجلته عليه الصحافة (بالسماع) وآن للصحافة أن تعرف وجه الحق فى الحادث . . ولها بعدئذ أن تصر على أن الرجل عنيد . . فيكون للنقد من إصرارها مادة . . أولها أن تبرىء ذمة الوزير فيظل النقد غير عاثر للرجل على عيب .

حدث مرة أن كتبت إحدى المجلات الأسبوعية المعروفة ، تصف حفلة راقصة ، قالت إنها أقيمت فى بيت حسن صادق ، والتفت فيها الساق بالساق ، إلى آخر هذا المساق . . فغضب الرجل لهذا الاختلاق . . وقيل — ولا يزال إلى اليوم يقال — إن الوزير أصر على معاقبة المجلة برغم تكذيبها الخبر فى أحد أعدادها بعد أن تبينت أن الحفلة أقيمت فى بيت كبير آخر ، وأن الأمر اختلط عليها ، وقيل — ولا يزال إلى اليوم يقال — إن الوسطاء ، ومنهم الوزراء ، حاولوا عبثا

أن يثنوا حسن صادق عن المطالبة بالمعاقبة ، فأصر عليها وهدد بالاستقالة ، وأحدث أزمة وزارية فى وقت عصيب ، فلم يسع سرى باشا بوصفه حاكما عسكريا إلا أن يصادر أحد أعداد المجلة ترضية للوزير .

ولقد حدثنى صحفى — نقلا عن الوزير — أنه حين اطلع على هذا الخبر ، اتصل تليفونياً بصاحب المجلة فلم يجده ، فكلف الوزير نفسه بالبحث عن شقيق صاحب المجلة حتى عرف أنه فى رأس البر ، فاتصل به وطلب إليه تكذيب الخبر ، فوعده بهذا ، ولكن العدد التالى صدر وليس به تكذيب ، فغضب الوزير وعد الإهانة مقصودة ومستمرة ، وكتب إلى سرى باشا خطاباً بالتفاصيل ، وطالب باتخاذ الاجراءات الرسمية لإحقاق الحق ، وأصر على اتخاذها فاتخذت ، فاذا كانت المجلة قد كذبت الخبر فى عدد آخر بعد أن عرفت أن هناك إجراءات رسمية تتخذ ، فالوزير يرى نفسه محقا فى طلبه ، ولا يرى فى إحقاق الحق سبباً لاتهامه بضيق الصدر أو بصلابة الرأى .

ذلك هو ما قيل بين الصحفيين ، وهذا ماد فع به الوزير . . ونحن نسجل الحادث على وجهيه إنصافا لطرفيه . . فاذا عده أحد بعدئذ عيباً ، فأنا لا أعرف للرجل غيره .

حسن صادق . . شيخاً ووزيراً :

أما حسن صادق شيخاً فقط ، فلا حديث لى عنه لأنه لم يشتغل بالمشيخة بل عين فيها وهو وزير. أما حسن صادق الوزير ، فلم يكن فى عمله محل امتعاض الشيوخ ، فلم يضايقوه بالاستجوابات ، ولم يحتج للدفاع ، فلم نعرف له يوما موقفاً يحكم منه له أو عليه كمدافع .

١٠ — صليب سامى باشا

صليب سامى باشا هو وزير الخارجية فى وزارة سرى باشا . . . والرجل « المبروك » الذي دل على أن فيه لله أشياء ... فما كادوا يغضبونه بسبب تصرفه فى قطع علاقات مصر بحكومة ڤيشى، وما كاد هو يغضب لكرامته ويلزم داره للسبب التقليدى الذى ينتقل مابين انحراف الصحة والتوعك!! حتى نفذ سره « الباتع » إلى الوزارة السرية كلها ، فاستقالت ولحقت به ولزم كل وزير داره أيضا .

صليب سامى باشا
شيخ معين فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٤٠

وهو كوزير، صامت مسالم ، إذا وجه إليه سؤال أجاب ، ولم يحدث أن وجه إليه استجواب فعرفنا من الجواب الفارق بين الحمل الوديع والأسد المهيب، ولكنه عاد أخيراً شيخا وطلب مرة إرجاء التعديل الذى كان يراد إدخاله على قانون التسجيل ، وأحسن التدليل فى تعبير عادى لا امتياز فيه ، فأجله الشيوخ واستجابوا له ، وعرفنا أن فى وسع الرجل أن يتكلم .

قصير نوعا . . بَدين جداً . . عادى المنظر فى شىء من الهيبة . . لايفارق المنظار عينيه ، ولا يكثر من الحديث إلى جيرانه من الوزراء . مؤدب مهذب.. يقولون إنه معسول اللفظ محبوب .

كان وهيب دوس بك يحمل ذات مرة على الوزارة فغضب صليب باشا، فثار وهو جالس فى مكانه ، وصاح فى وهيب (جايب الكلام ده منين . . الدستور عكس كده) وتحمس غالب باشا فانضم إلى صليب باشا . . واستمر الاثنان يقاطعان وهيباً .. غالب فى حدة واضحة وعصبية . . وصليب فى هدوء غاضب أشد رهبة . . ومن هذه اللمحة أدركت أن صليب باشا (مش شويه) وعنيت بدراسته وسؤال أصدقائه عنه وعما هو .

كل مايعرفه الناس عن صليب باشا أنه كان محامياً وكان مستشاراً ملكيا وكان وزيراً للحربية وغيرها .

وأنا — باعتبارى من هؤلاء الناس — كنت مثلهم لاأعرف عن الرجل شيئا ، وكانت الابتسامة تعلو شفتى ، كلما شاهدت صليب باشا بنصه وفصه..وذكرته وزيراً للحربية فى وقت يحسن أن يتولاها جندى فتى ، ذو همة ونشاط . وذو إلمام كاف بالدبابة والطيارة .. والمدفع والسيارة ..

وأخيراً بحثت عنه كما قلت لك ، فاهتديت إلى أن الرجل «مش شويه» .

سيرته وأسرته :

وصليب باشا ولد فى القاهرة، ونشأ فى دمنهور حيث كانت تقيم أسرته، وكان والده « باشكاتبا » لمديرية الغربية فرئيسا فى الدومين ، ومن هنا تعرف أن الرجل بالنسبة للاقباط يعتبر من أبناء البيوتات ، فاذا عرفت أنهم كانوا يملكون ألفا وخمسمائة فدان ، عرفت مكان الأسرة من اليسار .

وكنا نسمع باسم صليب سامى المحامى، وكان أكثرنا اتصالا بالمجتمع يسمع أنه محام كبير، أما المحامون والقضاة فكانوا يعرفون أنه مولع بالبحوث القانونية ، وكانوا يعتبرونه من الأفذاذ فى هذا المجال ، ويقول لك ذوو قرباه إنه جمع من

عمله كمحام ثروة طائلة ، إذا أضيفت لميراثه أخلى له المثرون مكاناً مرموقا بينهم فهل الرجل الآن غنى ؟

كلا . . .

فان سألت لماذا ؟ ففى الجواب كشف عن بعض الجوانب .

صليب باشا متلاف بلغة المتزمتين ، ومبذر بلغة الدين ، و « لارچ » بلغة العصريين و « فنجرى » بلغة أولاد البلد ، وهو ارستقراطى الطبقة ، رفيع المستوى كلف بالأسفار ، مستقيم الخلق . ولكنه لا يبخل على نفسه أو على أسرته بشيء . . يحب أولاده حباً غير عادى . . ويوليهم من « الإعزاز » و « الفخفخة » مايستنفد الكثير من المال ، وبين هذا كله ذهبت ثروته كلها أو جلها — لست أدرى — يحيا حياة أوربية ، وله عقيلة من الطراز الممتاز ، خلقت لتكون عقيلة لوزير خارجية ، وشاء القدر أن يتقلد زوجها هذا المنصب ، فكانت هى هذه العقيلة التى تعتبر فى الحفلات الراقية من الطبقة رقم ١ مع أنها أسيوطية المنبت ومن (بيت ويصا) . وهى تخطب بالفرنسية بطلاقة . . ولها فى النهضة النسائية نصيب .

قلت لك إنه معسول اللفظ ، فلتعلم أيضاً أنه ذكى وبعيد النظر . . أوتى مرصداً « لدنيًا » أو « إلهيا » يعرف به الريح قبل هبوبها ، فيدفع بسفينته فى هدوء إلى حيث تهب الريح طيبة رخاء . بعيد النظر . . كثير « الحذر » لا تعرف عنه الحركة الوطنية مواقف مشهودة . لونه السياسى دستورى ، وفى لحزب الأحرار « من زمان » ولا أظنه كذلك الآن .

فان سألت عنه أبناء طائفته ، أجمعوا على أنه « مغرم بعدم مساعدة الطائفة » أو « ذوى القربى » حتى لا يتهم بالمحاباة ، وهو رجل يؤثر حب السلامة ، ويترفع عن الدنايا .

وأحسب أن فى هذا الإيجاز — لوزير لا يخوض غمار الجماهير . . ولا يعرف عنه الشىء الكثير — الكفاية وزيادة .

١١ — عبد الحميد بدوى باشا

قصير ملىء . . وهادىء ووديع . . ومتزن ووقور . . ولعبد الحميد ابتسامة ذات ألوان . . ولفتة ذات اعتداد . . وله شخصية الرجل الجذاب . . لولبى العبارة . . بنتقى ألفاظه بحيث تفسر فى وقت اللزوم ألف تفسير ، ويتجه بها إن شاء إلى الشمال وإن شاء إلى اليمين . . منطق التفكير . . قوى الدليل . . واسع الاطلاع . . .

فقيه عالمى رفع رأس مصر دائماً ، واعتبر فى مؤتمر مونترو فقيهاً عالمياً أيضاً ، ثم أخطأ وقبل الوزارة أخيراً . . الوزارة التى رفضها كثيراً . . فكان قبولها شؤما عليه . فقدها . . وفقد رياسة لجنة القضايا . . وفقد عضوية الشيوخ . . فأحاطوا كرامته بالقيل والقال ، ونسبوا إليه الكثير من المفتريات ، وتوارى الرجل إلى حين ، ولكنى من المؤمنين بأن عبد الحميد بدوى لا يموت هو الآخر .

يتتبع فى يقظة كل ما ينشر فى السياسة الداخلية .

عبد الحميد بدوى نابغة إن شئت ، وعبقرى إن شئت . . وهو مواطن يعتز بكفايته الوطن . . بل لعله أحد أفذاذ مصر الذين يحق لها كأمة أن تباهى بهم الأمم . . ونحسبنا قد باهينا هذه الأمم . . وهذا شىء يطول فيه الحديث ، فلندعه لنعود إلى عبد الحميد باشا بدوى عضو الشيوخ الذى أسقط عنه المرسوم الأخير عضويته ، ويحز فى نفسى ألا يعود الشيخ إلى القاعة .

وعبد الحميد نابغة من أيام التلمذة . . كان دائماً أول فرقته وكان دائماً أول الشهادات العامة . . وكان وسيما جداً فى صغره ، ولكنه مع الوسامة كان معروفاً

بالرجولة المبكرة فى سلوكه وفى خلقه ، وكان الاعتداد طابعاً له من أيام فتوته وشبابه . . فلما تخرج من الحقـــوق ، كان المرحوم ثروت باشا معجباً بعبد الحميد إعجاباً غير عادى ، فاختاره لسلك النيابات ، فلما قدم المرحوم عبد العزيز بك جاويش للمحاكمة وكان محاميه المرحوم اسماعيل بك الشيمى ، اختير عبد الحميـــد بدوى الشاب الصغير لمقاومة المحامى الـكبير ، فكان هذا أول موقف رائع لعبد الحميد تلألأ فيه نجمه وأضاء .

شيخ معين أبطل تعيينه بمرسوم

مشروع ملنر :

وحدث أن أعلنت الجامعة القديمة عن أول بعثة لها ، فتقدم عبد الحميد بدوى والمرحوم السيد كامل إليها ، فوقع الاختيار على السيد كامل ، فرأى الشيخ على يوسف صاحب المؤيد أن يتحدث عن عبد الحميد ، وكتب عنه يجلو مواهبه ، ويرفع النابغة الفتى إلى مصاف العباقرة ، وعادت الحـكومة ، فاختارت عبد الحميد فى بعثة لهـا ، وتشبث ثروت باشا ببقائه إلى جانبه حباً له وضناً به ، فرفض عبد الحميد وسافر وحصل على الدكتوراه ، وعاد فألحقه ثروت باشا وكان نائباً عمومياً بمكتبه ، وظل عبد الحميد يتدرج فى مناصب القضاء حتى إذا كانت سنة ١٩٢٠ وكان عبد الحميد وكيلا لمحـكمة طنطا وقاطعت الأمة مشروع ملنر ، تصدى ثلاثة للترويج له وهم : عبد الحميد بدوى ، وعبد الحميد باشا مصطفى ، ولبيب باشا عطيه وتصدى للرد عليهم المرحوم عبد القادر باشا حمزه فى جريدة الأهالى ، وشهدت مصر يومئذ أروع معارك

المنطق والقانون بينه و بين ثلاثتهم. فلما صرح سعد باشا أن المشروع حماية بالثلث، كتب عبد القادر باشا مقالا خاصاً بالفرسان الثلاثة وراح (يشخلعهم) جهرة مؤيدا بتصريح الزعيم الأكبر .

بقية التاريخ :

وألف المرحوم عدلى يكن باشا وزارته ، وكان ثروت باشا وزيرا للداخلية فاختير عبد الحميد بدوى سكرتيراً عاماً لمجلس الوزراء ، ثم اختير عضواً فى لجنة الثلاثين لوضع الدستور، فكان أبرز عضو فيها، مع أنه أصغر الأعضاء سناً، وفى النقاش الذى دار حول تمثيل الأقليات صفحات خالدة من عبقرية عبد الحميد بدوى الفقيه الدستورى الشاب فى ذلك الحين ، وسافر عبد الحميد بدوى فى وفد عدلى الرسمى مستشاراً له ، ثم نقل إلى قلم القضايا بعدئذ مستشاراً ملكياً ليكون أول مصرى يحل محل مستشارين عالميين أجانب ، فلما جاءت مسألة التعويضات أيام وزارة يحيى باشا ، واستقال مسيو كازولى رئيس لجنة القضايا ، حل عبد الحميد كمصرى محل هذا الرجل العالمى ، والمعاصرون يعرفون تاريخ عبد الحميد من ذلك اليوم إلى أن رأس لجنة قضايا الحكومة.. وكيف تقلبت على مصر وزارات وعهود وحزبيات وأعاجيب ، من غير أن تستطيع حكومة واحدة أن تستغنى عن عبد الحميد .. و (مصنع العبقرية) الذى كان يصنع فيه الفتاوى حتى لقب حيناً (مفتى الدولة) أو (المفتى الأكبر) أو ما إلى هذه التسميات التى لجأت إليها الصحف والمجلات.. وطالما عرضت عليه المناصب الوزارية فأباها ، حتى قبل الوزارة فى عهد دولة سرى باشا إلى آخر مايعرفه القراء .

مزايا وعيوب :

وعندى أن من عيوب عبد الحميد بدوى اعتداده بنفسه اعتداداً غير عادى أتاح للخصوم فرص الهجوم .

وهذا العيب فى عبد الحميد طبيعى جداً بالنسبة لكفايته الممتازة ، فهو مفكر (ارستقراطى) يرى لعبقرى مثله من الحقوق ما ليس لسواه من الساسة الفارغين الذين عاشوا على حسابه ، فاذا كان عبد الحميد قد أسرف فى الاعتداد فى موازيننا ، فهو محق إلى حد كبير فى ميزان نفسه .

عبد الحميد الشيخ :

ولكى أمشى بك إلى النهاية عبر تاريخ حافل ، أقنع بأن أحدثك عن عبد الحميد الوزير الشيخ ، لاعن عبد الحميد الشيخ فقط ، لأنه بعد استقالته من الوزارة ظل صامتا ، وكان يجىء إلى الجلسة ضاحكا ، فيدخل إليها رشيقاً خفيفاً ، ويذرع القاعة بنظرة المعتد الباسم ، ثم يأخذ فى الصف الأخير مكانه ، ويصطخب الجدل الفقهى بين شيوخ غير فقهاء ، ويظل الفقيه الأكبر متطلعاً إليهم فى ابتسامة الأستاذ .

أما عبد الحميد الوزير الشيخ فكان هائلا . . فى الفقه وفى الدستور . . وفى الحوار والخطب الطوال . . وفى المال والاقتصاد . . وكانت يده دائماً تمسك بالمنظار لتضعه مكان الآخر ، حين يخلعه إذا أحوجه الأمر إلى قراءة . . وكان حلوا فى مخارج الألفاظ . . ساحر الجرس . صاحب عبارة منتقاه . . هادئا فى الإلقاء . . مركزاً فى التفكير . . قويا فى المنطق . لاتخرجه مقاطعات المعارضة عن وقاره ، ولا تفقده السيادة على أعصابه . . وكانت له طريقة (شيطانية) فى إنقاذ الحكومة من المواقف الحرجة إذا ماتلبد حولها الجو واكفهر . . . كان عبد الحميد بدوى يطلب الكلمة ويسوق دائماً الجمل الشرطية ، لينتظر المستمعون الأجوبة عليها . . ثم يأتي بجمل اعتراضية تصرف الأذهان عن الأجوبة المرتقبة . . ويظل الخطيب اللعوب ينتقل بالشيوخ من ميدان إلى ميدان . . حتى تتعب أعصابهم ، ويطلبوا التأجيل لجلسة أخرى . . فيذهب الجو الخانق بدداً وينقذ موقف الوزارة من ذلك الحرج .

عبد الحميد الشخص :

أما عبد الحميد الشخص فأقرب إلى الفنان فى ذوقه العام ، ولا يحرم على نفسه متع الحياة .

و بعد — فقد أحاطوا اسم الرجل أخـــيراً بالـكثير من القال والقيل ، وسيحكم التاريخ غداً وأرجو أن يجىء حكمه فى صالح الرجل ، لأن مصر فى حاجة إلى تبرئة الأكفاء الممتازين .

١١ — عبد الحميد سليمان باشا

عبد الحميد سليمان وزير سابق معروف ، ورئيس للجنة المالية فى مجلس الشيوخ .

أردت أن أكتب عنه فلم أجد عندى رسما له . . فعهدت إلى صديقى الأستاذ القبانى رئيس سكرتيرية هذه اللجنة المالية أن يجيئنى من عبد الحميد باشا بصورة فوتوغرافيـــة من صوره يعتمد رسامنا عليها فى تخطيط رسم كاريكاتورى منها .

وجاءتنى صورة فخمة التقطنا منها الرسم الذى تراه .

صورة رجل وجيه وسيم . . تغرى بصاحبها كل ذات رأس « ناشف » بل هى صورة شاب فى الأربعين أنيق رزين ، تستوقفك منه مفارق الشعر البديع وجمال النظرة الهادئة ، والوجه الملىء الارستوقراطى . . والجبين اللامع الواسع . فتسأل : « من هذا المليونير الشاب أو من هذا الأمير الرجل ؟ »

الرحمة يارب السماء ! !

إن هذه الصورة ترضى صاحبها زوجاً لها حسناءُ مدللة فى العشرين من عمرها وتستطيع أن تجد فى ناظريها العميقين مبعث مناجاة صامتة تلهب فيها كثيرا من الشعور ، بل تحملها إن كانت أديبة على ما يسمونه « الشعر المنثور »

فهل هذا هو عبدالحميد سليمان رئيس لجنة المالية فى مجلس الشيوخ ؟

كلا ...

إن هذه الصورة أعرفها أو يخيل إلى أنى أعرفها .. أوساق القدر إلى مامكن لى من معرفتها .

ففى صباح يوم بعد تسلمى الصـــورة بأيام طاب للأهرام أن (تخض) الناس بعنوان رهيب هو : (أول غارة نهارية على القـــاهرة — طائرة للأعـــداء تقـذف ٩ قنابل على أحيائهـا — قتل ١٤ نفسا وجرح ٢٥ آخرين) وبعـــد أن ابتلعت « ريقى » واستردت أنفاسى واكتشفت فى إحـدى الزوايا بالبنط الصغير الماكر عبارة (فى الأهرام منذ ٢٥ سنة) بدأت أقرأ تلك النبذة من تاريخ الحرب الـكبرى فقرأت ضمنها مايأتى :

كان شيخا ابطل تعيينه بمرسوم
ثم جدد بمرسوم ٢٩ مارس سنة ١٩٤٢

« ومما يذكر أن صاحب العزة عبد الحميد سليمان بك (باشا) مدير أعمال الرى الملحق بتفتيش رى الجيزة نجا من الغارة بأعجوبة ، إذ كان فى أثناء سقوط إحدى القنابل يدخل مكتبا من المكاتب فى حين كان يخرج منه إلى الشارع شخص آخر فأصيب هذا الشخص بشظية ومات » .

ولست أدرى — ياأخى — لماذا قر فى ذهنى ورسخ فى نفسى أن الصورة

التى أرسلها إلىَّ عبد الحميد باشا من أيام ، هى الصورة التى التقطت للاستاذ عبد الحميد بك سليمان ابتهاجا بنجاته من الغارة النهارية (بتاعة الأهرام) التى وقعت قبل خمسة وعشرين من الأعوام .

لا أدرى لماذا ! أما صورة عبدالحميد باشا الحالى فاليك بعض وصفها .

عبد الحميد باشا فى القاعة :

رجل صامت لاهو بالطويل ولا بالقصير ، لاعيب فى تكوين وجهه غير جمود فى نظراته وفى حركات عضلاته ، ويضع إحدى يديه فى جيب (بنطلونه) دائما فيلفت النظر إليه ، وينبه الناظر إلى أن مرضا ما ، يحمله على هذا الوضع... يدخل القاعة على مهل كالمتعب ، ويأخذ مكانه من أرائك المدخل يستريح فيها .. وإذا أردت أن تحاسبه كشيخ على مايبدو منه فى القاعة ، فانت مضطر إلى إضافته إلى قائمة الصامتين ، وإذا أجهدت ذاكرتك — كناقد — لتذكر له كلاما قاله يوما ما فانك لاتذكر له غير موقف واحد .. أنزل فيه « شيلة عبد الحميد بك أباظه » يوم أراد أن يدافع عن شركات النقل ضد إيراد الدولة ، وراح يضفى الثناء على عبد الحميد سليمان يوم كان مديراً للسكك الحديدية وينسب إليه مقالا بعينه فى كتاب ذهبى لمؤتمر عقد فى عهده .. ليخرج أباظه من هذا التخدير بما يعزز موقفه ، ساعتئذ ثار عبدالحميد سليمان الذى لايثور .. وكانت كل ثورته أنه قال فى حزم رائع غير مجرى السفينة ، وغير مهاب الريح وغير طبيعة الجو : « هذا الذى يذكره حضرة الشيخ المحترم غير صحيح ولم يحصل » وبهت الذى كان يخطب وانتهت الحملة إلى الفشل .

هذا هو عبد الحميد سليمان فى القاعة .

عبد الحميد فى خارج القاعة :

أما عبد الحميد سليمان فى خارج القاعة وفى داخل المجلس وفى غرفات اللجان ، فركن من أركان الحياة البرلمانية ، وقلب من قلوبها النابضة .

التقيت به مرة فى مكتب رئيس الشيوخ السابق ، فعلمت منه أن لديه أعمالا فى الاسكندرية ، وأنه كان يجىء كل يوم محتملا — برغم مرضه — متاعب السكة الحديدية ، ليرأس لجنتى المالية والزراعة ، لأن البلد فى حاجة إلى الانتهاء من مشروع قانون تحديد المساحة . « وحرام التأخير والتهاون فى الواجب » .

وطاب لى أن أدرس من عارفيه جهوده ومميزاته فعرفت عجباً . . عرفت أن هذا الرجل دماغ « مافيش منه » إذا دعا داعى المال والاقتصاد . . وأنه رجل أرقام وحقائق وهدوء .

رأى خبير فيه

ولى صديق خبير به . . سألته رأيه فيه ، فكتب إلى رسالة نشرتها له فى «البلاغ» جاء فيها أنه منتج فى غير ضجة ، وملم بفروع النشاط الحكومى ، واضح الأسلوب مركز العبارة ، لطيف المعشر ، جلو الدعابة ، يدير جلسات لجنة المالية فى حذق ولباقة ، فان عورض دار دورة ماهرة فاذا بمعارضه محصور لا يكاد يخرج من دائرة تفكير الرئيس و إذا الأمر فائز بالاجماع . . إلى آخر ما جاء فى رسالة الصديق

رأى النقـــد :

وأعتقد أن هذا الخبير مسرف فى التقدير مصيب فى الكثير .

وليس لى أن أحكم على الشيخ من ناحية كونه (متكلما من الطراز الأول) و إن كان حديثه العادى هادئاً ورزيناً ومعقولا و (مش بطال) وكونه يتجنب الإحراج دليل على أنه أخو اعتدال ، ولا يستطيع — أو لا يريد — أن ينافس الحزبيين فيما نسميه (التكتيك) لأن الكر والفر فى الميدان الحزبى ، يستلزمان

الافتنان فى إحراج الخصوم . ويمكنك إذن أن تسمى عبد الحميد سليمان (الرجل الشغال) المفيد النافع . لا البرلمانى الذى يصلح لمجلس مؤلف من أحزاب وشيع

وعبد الحميد باشا — على فكرة — من أنصار « القرش الأبيض . . » إلى حد غير هين ، ولا يذكره موظفو السكة الحديد بالخير ولا أدرى لماذا أولا أريد أن أدرى أو أن كل ما أدريه أن هؤلاء الموظفين احتفلوا به قبل أن يعرفوه فقال أبلغهم من قصيدة له يحييه :

أتاكِ اليمن معْ عبد الحميد فيا بشراك يا سكك الحديد ! ! !

١٣ — عبد القوى احمد باشا

وأنا إذ أواجه بريشة النقد شخصية وزير الوقاية الأسبق أشعر بالكثير من الحروجة ، وأخشى ألا يفهمنى الكثير من القراء ، لأنى هنا للتصوير والتحليل وللنقد والتسجيل ، وليس من مهمتى أن أسرف فى الثناء ، فإذا اعترضتنى شخصية غنية بالمحاسن « فقط لا غير » . . ضايقنى منها هذا الغنى . . ورحت أجهد النفس فى البحث عن نقائصها . . حتى أقدم « معادلتى » إنسانية معقولة قائلا لنفسى : إن (س + ص) إذا كانت تساوى رقماً . . فمحال أن أعرف قيمة الـ (س) من قيمة الـ (ص) إلا إذا عرفت أن (س + ص) تساوى رقماً آخر . .

عبد القوى أحمد باشا
شيخ معين فى ١٣ ديسمبر سنة ١٩٣٩

هذا هو أسلوبى الرياضى فى النقد البرلمانى . . فما يكون حالى إذا اعتزمت

الكتابة عن رجل أحبه وأجله . ثم خفت أن يحجب الإجلال والحب منى ، بعض الحق عنى . . مع أنى أحب الحق أكثر منه . . فاتجهت إلى عارفيه أسألهم مستحلفاً . . أو أستحلفهم سائلا . . أن يذكروا كل ما يعرفونه عن الرجل . . فلا يذكر أحدهم إلا محاسن جدداً ؟

أفما يغدو موقف كهذا مبعثاً لضيق الناقد وغضبة النقد ؟

بلى . . إنه لكذلك . . وبلى إنه لموقفى إزاء عبد القوى أحمد .

ولكنى سأحاول جهدى أن أعثر على بعض الجوانب الضعيفة فى هذه الشخصية القوية . .

عبد القوى . . شكلا :

نعم شكلا . . لاموضوعا ، ففى الموضوع قد تصرع قوة الرجل محاولة النقد . أما فى « الشكل » فقد يجد النقد سبيله إلى اللذع واللدغ . .

تستقبل الرجل بنظرة شاملة فتجده فلاحا لاجمال فيه . . وتتصوره ريفياً علموه فتعلم وهذبوه فتهذب ، ونشّأوه على الكرامة فبالغ فى الاعتداد بها وفى الثقة بقيمتها . . فأعطى نفسه مشية توائمها ، فطبعت المشية جسمه بطابعها « فتقنفد » قليلا جداً عند أعلى الكتفين ، وبان عليه — وعلى الرغم من أدبه الجم إذا تكلم أو سلم — كأنه من فرط الثقة والاعتداد غير مبال شيئاً أوشخصاً ، نظيف الزى ، محتشمه ، وإن كانت الصداقة لا تربط بينه وبين الأناقة .

فلاح السحنة كما قلت لك . . لاهو بالضامر ولا هو بالملىء . . ولا هو بالفارع ولا هو بالقصير . . يميل مخروط وجهه إلى الطول . . وإن كانت لعينيه من الفصاحة فى التعبير عن المعاني ، ما للسانه فوق أعواد المنابر من قدرة على بسط القضايا . . ولوجهه من البشاشة إذا ما بسط أساريره . . ما لابتسامته من حلاوة تغنى عن الجمال . .

عبد القوى . . موضوعا :

ولقد ، والله ، شعرت بالحيرة وأنا أمسك القلم ، وأحاول الكتابة وأسائل النفس عن نقطة الابتداء فى هذه الشخصية . . ثم اهتديت أخيراً إلى حل متواضع أنقذ به النفس من الحيرة ، فأرتد بك معى إلى الوراء سبعة عشر عاما ، لترانى طالباً أنفر من أن يقال عنى يومئذ « طالب بكالوريا صغير » وأحاول أن يفهم الناس أنى « كاتب نحرير وأديب كبير » فأسأل الصحب بعض البيانات عن بعض عظماء الشباب أو الرجال . لأحدث غير الصحاب بما علمت من الصحاب . . فأسمع كثيراً اسم عبد القوى أفندى أحمد الوطنى الثائر . . فيمن أسمع من أسماء من سبقوا الثورة وغذوها من فتيان الحزب الوطنى . . ثم أسمع كثيراً أصدقاء يختلفون فى عبد القوى (أفندى) أحمد هذا . . وهل كان محقاً فى مناصرته المرحوم أمين الرافعى فى نظرية (تعديل الأساس) أو كان غير محق . وآنصت إلى الأنصار والخصوم . . ثم أكون الرأى .

عبد القوى . . القديم :

فما كان الرأى الذى كونته عن « عبد القوى . . القديم » ؟ كان رأيى فيه — أنا الوفدى المتطرف يومئذ — أنه قد يكون مخطئا فى معارضته « سعداً » ومناصرته « أمينا » ، ولكنه لابد أن يكون — على كل حال — لرأيه مخلصاً ، وفى شخصه شجاعا ، وفى الصفتين الكفاية وزيادة .

وأنا لم أشهد الثورة فى القاهرة ، ولكنى سمعت بعد ذلك من صديقى الأستاذ على راضى — أحد أعضاء لجنة الطلبة يومئذ والمدرس الحالى بمدارس النهضة المصرية الثانوية — أنه كان ضمن المظاهرة التى هاجمت إدارة جريدة الأخبار . . فى ميدان الأزهار . . وقذف بعض أفرادها دار الجريدة بالطوب والأحجار . . فتهشم زجاج غرفة أمين بك الرافعى . . فخرج ساعتئذ من هذه الغرفة عبد القوى

أفندى أحمد المهندس .. وصديق أمين .. وواجه وحده — وفى حديقة الدار — هذه المظاهرة الصاخبة المجنونة .. معرضا نفسه لأحجارها الغاضبة .. وصاح فى هذا الجيش الجرار من الشباب المشبوب .. بما معناه (اضربونى أنا ولا تضربوا أمينا ، وها هو ذا صدرى أفتدى به رأيى . لأنى أول مؤيد لأمين فيما ينادى به من رأى) .

عبد القوى .. المهندس :

وعرف الناس بعدئذ أو عرفت أنا كما يعرف الناس عن بعد المهندس المعروف عبد القوى أحمد ، وقيل لنا إنه مهندس كفء وقدير .. وإنه أديب وخطيب .. وما كان يعنينا وقد بعد عهدنا بالمبالاة أن نبالى هذى الصفات . ومرت السنون .

مرت السنون ولكنها زودتنا بجديد .. فقرأنا وسمعنا عن مشادات هائلة قامت بين كبار المهندسين حول مشروعات النيل ، وأن خلافا قام على مشروع إقامة خزان مكوار أو سنار .. وقيل لنا إن عبد القوى أحمد كان فى طليعة الجبهة الوطنية التى تذود عن حقوق مصر فى هذا الجدل .

سمعنا هذا كله وقرأنا الكثير عن هذا كله .. ثم لم نر أنفسنا أهلا للحكم على جدل فنى .. فمضى الجدل عنا أو مضينا نحن عن الجدل .

وتغيرت الأيام ، ونشطت مواكب الطبل والزمر بين فيالق الأحزاب ، فنسى كل شىء ولم تعد البلاد مشتغلة بشىء إلا بخصومة هذه الأحزاب ..

عبد القوى .. فى السودان :

وأخيراً بدأ اسم عبد القوى يظهر على الشاشة .. مهندساً مقيما لخزان جبل الأولياء . وبدأت تترامى إلينا الأنباء فيرقى الاسم فى الفضاء .. مفتشاً عاما للرى

المصرى فى السودان .. وحوله هالة من ساطع الأنباء . . وأخيراً استقر الاسم فى صفحة السماء لامعا وضاء . . إذ استقر صاحبه فجأة فوق كرسى من كراسى الوزراء .. وعين الوزير الجديد عضواً فى الشيوخ . وسافر إلى السودان وخطب ونثر .. واعتلى منبر الشيوخ والنواب فرأينا بأعيننا وسمعناه بآذاننا .

صفات ومواهب :

وعلى هذا الضوء أقدم لك الآن حشداً من مواهبه وصفاته عرفناه فى خدمة الوطن والتاج .

عبد القوى أحمد خطيب وأديب وكاتب ومحدث .

هذا أولا من حيث المواهب .

أما من حيث الصفات ، فهو ذكى وجرىء و « شغال » ومتواضع وكفء ونزيه ومستقيم ، ورب عائلة بالمعنى الصحيح ، ومقدر لكرامته ، ومخلص لأصدقائه ووطنى فى نزعته ، وقارىء ممتاز ، ومن أنصار البساطة ، ومن المعتزين بالمصرية فى جميع مظاهرها .

هذه هى صفاته ومواهبه بالجملة . . والإجمال دائما غير شاف ولا كاف . . فلأسق لك بعض الوقائع وأدع لك النتائج .

كبير المهندسين :

فى سنة ١٩١٤ تخرج عبد القوى من « المهندسخانة » وعين مهندساً فى الأوقاف ، ولم يكن محسوبا على عظيم ، ولا قريباً لوزير ، بل كان مواطنا من ملايين المواطنين ، فكان عليه أن يروح فى غمرة الخاضعين لسلطان «الروتين» ناظراً إلى تراب الميرى نظرة العابد القانت إلى الحى القيوم .. فهل حدث هذا ؟

كلا . . بل حدث أن رقى عبد القوى فى شهور إلى مهندس أول ..

برغم ظروف تلك الحرب الكبرى وطول لسان هذا المهندس الثائر ..

رقى — إذن — إعجابا به ، بل ظفر به اعترافا بكفايته .. وكان عليه بعدئذ أن يقبل يديه ظهراً لبطن وأن يحمد الله على ما أتاه .. وأن تغريه الطفرة بالزلفى لمن فى يديه أن يضاعف له الطفرات .. فهل حدث هذا ؟

كلا أيضاً .. بل حدث النقيض .. حدث أن استقال عبد القوى فى سنة ١٩١٨ ليعمل حراً ، وليحطم القيد الذى تضعه « فلوس الميرى » فى أيدى الأحرار .. و (القيد لو كان الجمان مفضضاً لم يحمل) كما يقول شوقى ..

واشتغل عبد القوى خبيرا مهندساً .. ثم عرفنا سبب النزعة إلى التحرر .. يوم اندفع إلى الحركة الوطنية واندمج فى الصف الأول بين المجاهدين ، وعانى من الاضطهاد ماعاناه زعماء الثائرين .

أقرف .. أم ماذا ؟

وقد ألمعنا إلى مواقف عبد القوى فى تأييده أمين الرافعى وفى اختلافه فى الرأى مع سعد .

وهنا تعترضنى نقطة غامضة فأنا أعرف أنه اختير فى ٦ يونيه سنة ١٩٢١ سكرتيراً فنياً للوفد الرسمى الذى ألف برياسة عدلى يكن باشا ، وأعرف أنه عين فى ٢٢ من أبريل سنة ١٩٢٣ موظفاً حكومياً أو قل على التحديد وكيلا لهندسة رى (المنيا) .. ومن يومها امتثل للوظيفة الحكومية .

فما معنى هذا ؟ أفكان من أنصار عدلى رأياً فقبل أن يعمل معه .. أم حمله العناد على أن يخدم خصوم سعد برغم اعتدالهم و برغم تطرف عبد القوى ؟ وهل كان « القرف » قد اعتراه فقرر أن يترك جو الكفاح الوطنى الحر ليخدم بلاده بطريق الوظيفة ؟ أم أغرته الوطنية فركن إليها و (ساق) فيها وكان المرجو أن يظل رافعاً راية الجهاد ، خطيباً فوق كل منبر ؟ أم تراه — وهو المعتد بالكرامة —

رأى أن من العسير عليه أن يخضع لزعامة تفرض سلطانها على الأنصار بغير قيد ولاشرط نخرج على هذه الزعامة ؟ أم تراه وهو الرجل المفكر قد ضاق ذرعاً — بعد ركود العاصفة — ببعض الأساليب السياسية ، فلم يطق أن يرى المجد فى القول بأن ١ + ١ = ٧٩ فعاد إلى فنه يرعى به النيل الجميل من المنبع إلى المصب ؟ كل هذه أسئلة تشوب تاريخ الرجل .

برلمانيات :

وأنا كناقد برلمانى أعجبت بمواقف الرجل فوق منبر الشيوخ من أول يوم عين فيه وزيراً . وكدت أدهش للرجل يقتحم المجلس الموقر لأول مرة غير هياب ولا متردد . . فلما راجعت تاريخه لم أجده غريباً عن المجلس ففى ١٩٢٦ عين مديراً لمكتب وزير الأشغال فى الشئون البرلمانية . . ومن هنا عرفت صلته بهذه الشئون .

يحكى أن . .

ويحكى أو حكى لى موظف كبير ومسئول . . قال إن السودانيين يعرفون عن الرجل أكثر مما يعرف أهل أسيوط . . بل أهله فى المنوفية . وإن هؤلاء السودانيين إذا كانوا قد أولوا عبد القوى حباً يشبه « العبادة » وإذا كانوا يذكرون لك عهده بالخير ، ويتذاكرون شخصه بالدمع ويحبون مصر لأنها أنجبته فانهم محقون .

قال هذا الموظف الكبير إن عبد القوى دعى يوماً إلى شهود حفلة فى سراى الحاكم العام ، وكان يرى نفسه ممثلا لمصر فى هذه الحفلة ، فرأى أن يدخل من الباب المخصص للحاكم العام ، وهو يشبه هنا الباب الملكى ، ولما لم تكن التقاليد قد جرت على أن لايدخل من هذا الباب غير الحاكم العام ، فقد وقف الحراس فى وجه

السيارة ، فأمر عبد القوى سائقه بالعودة ، فاتصل الخبر بالحاكم العام ، واتصل معاليه بعبد القوى (بك) تليفونياً ، و بعد نقاش أوفد الحاكم العام ياوره ليحمل إلى الموظف المصرى ذى الكرامة اعتذاراً رقيقاً ، وليرافقه إلى الحفلة ، فأبى عبد القوى إلا أن يجلس الياور إلى يساره وكان التقليد يجرى بأن يجلس ياور الحاكم العام إلى اليمين .

وذاع النبأ ، وتباهى به السودانيون ، وخفقت راية مصر فوق رءوسهم عالية .. وخفقت قلوبهم بين جنوبهم مباهية .

وقد يكون ثمت تحريف فى سرد الواقعة . ولكنها — على كل حال — سليمة فى جوهرها . فخذ منها أنت مايطيب لك .

عبد القوى . . . كخطيب :

وكنت أحدث صديق الأمير الاى عبد الحميد كمال بك — وكان يومئذ مندوباً للعمل فى وزارة الوقاية — عن رأيى فى عبد القوى كبرلماني وخطيب ، وكنت أذكر له — ككاتب أو كناقد — رأيى الفنى فى العبارات التى يرسلها عبد القوى من خلف منبر الشيوخ كأنها معدة ومنتقاة وماهى بالمعدة ولا بالمنتقاة ولكنها جزالة الخطيب . . ومواهبه . . . فلما لاحظ الصديق أن كل إيضاحى بنحصر فى علمى (البلاغة والفصاحة) وأنى — على غير عادتى — لا أعطى الجانب السيكولوچى الحظ الأوفى من ملحوظاتى . . قال الصديق ما معناه (أنا رجل عسكرى وما أعرفش فى الأدب كتير . . . لكن أعتقد أنى شفت عبد القوى فى أبلغ خطب ألقاها فى حياته) .

— فين ؟

— «فى عمال اسكندرية لما حصلت فيها مصايب الغارات ورحنا ، كان الوزير ده يخطب فى مئات العمال وينزل لمستوى تفكيرهم . . كأنه واحد منهم . .

ويثير فيهم وطنيتهم ونخوتهم : فينسوا الجوع والعطش والخطر والقنابل وكل شيء في الدنيا ويدونا شغل لسه فى حياتى ماشفتش عمال يدوه . . أنا اشتغلت مع وزراء كتار زى ما أنت عارف . . وأنا أقسم لك بشرفى العسكرى أن ده أول وزير مايكتفيش بالاشراف على العمل بنفسه زى الكويس فينا ياموظفين . . بل يضع يده فى العمل زى العامل . . وما اقدرش أقول أكتر من كده واسأل العمال يحكولك » .

ماذا نستنتج :

هو إذن خطيب من الطراز الممتاز : ففى مجلس الشيوخ يستخدم روعة البيان فى استهواء الشيوخ ، وتحت القنابل وفوق الأنقاض ينزل إلى مستوى العمال فى مخاطبة العمال . . فهل ترانا بعد فى حاجة إلى دليل جديد ؟

خطر لى أن أراجع خطبه فى السودان لعلى أجد جديداً . . فعدت إلى وصف الرحلة من جديد . . ووقفت

رأيته خطيباً فى كل حفل تقريباً أقيم لوزراء مصر فى القطر الشقيق فما رأيت له خطبة شابهت أختاً لها . . أو خالفت مقتضى الحال كما يقول رجال البيان .

من عيوبه :

وما دمت أمزج هنا بين عبدالقوى الشيخ وعبد القوى الشخص وعبدالقوى الوزير ، فمن الخير أن أذكر لك بهذه الملاءمة أن الرجل سليم الأعصاب وهادىء التفكير وأن هذه الميزة تفيده كثيراً .

يصعد إلى المنبر فى المجلس . . فان كان الجو عاصفاً . . والمعارضة هائصة . وقف أمام المنبر رابط الجأش . . . وأرسل إلى المعارضين نظرة التحدى والثقة

صامتة . . وترك للرئيس مهمة دق الجرس وطرق الشاكوش .. ويظل عبدالقوى هكذا حتى يعود الصمت إلى الشفاه . . والتدبر إلى الرءوس . . وفى هذا الجو الموقر . يبدأ كلامه .. وهى طريقة تفيد الشيخ كوزير وخطيب .

وقيل لى إنه فى مكتبه هادىء . . لايوقع أمراً إلا بعد التفكير ... فان وقعه فمحال أن يتراجع عنه أو يتهاون فيه ، وهذا العناد منه أعده من مساوئه .. فبعض العارفين يؤكدون لك أن أمر عبد القوى لابد أن ينفذ ولو ثبت له أنه خطأ .

والحمد لله الذى لايحمد على المكروه سواه . . لقد وجدنا للرجل عيباً . . و « بس » . .

وعبد القوى رجل ذو شخصية وكرامة وفيه اعتداد وفيه عناد .. ولا يعرف الملق . . كل هذا صحيح .. فكيف تسنى له أن يكتسب ثقة رؤساء الوزارات الذين توالوا على الحكم أخيراً من محمد محمود إلى على ماهر إلى حسين سرى مع وجود الفوارق بينهم بل مع وجود « الحواجز » بين «بعضهم ؟» لست أدرى !

تواضع :

أفنى عبد القوى قواه . . حتى أقام للوقاية كيانا . . ولم يكن بها إلى عهد قريب غير بضعة من الموظفين « المنتدبين » ولم يكن لها اعتماد . . ولم يكن فى القاهرة غير حفنة المخابىء « الفلصو » .. واستطاع عبد القوى برغم هذا «الفقر» أن يصل بالبلاد إلى مستوى طيب . . ولقيت الرجل أخيرا . . وحسبته مشمراً عن الساعد . . ساردا فى فخار معجزات جهوده . . ذاكرا بالمباهاة ماصنع للاسكندرية والاسماعيلية والقاهرة وبور سعيد . . فهل تدرى ماذا قال لى ؟

قال فى بساطة :

—أظن يافلان أننى استطعت برغم العقبات أن أعطى البلد وزارة بانت خطوطها ومعالمها بعض الشيء وهذا فضل من الله إذا لاحظت أننا لسنا خبراء .

أحاديث وتأشيرات :

وعبد القوى الوزير كثير التحدث إلى الصحافة لأنه نصير لها ومؤمن بها ، وكان قديماً — وأيام الرافعى — قائمـــاً قاعدا بين أبطالها . . . ولـكنه يؤثر التعميم . . . حتى لايقال عنه إنه اختص جريدة ، فكان لهذا يكثر من دعوة الصحفيين إلى اجتماعات يتحدث إليهم فيها بما يريد أن يتحدث به . . ولعل ميله إلى الخطابة هو بعض دوافعه إلى هذا التقليد .

وتأشيراته كوزير غريبة جداً ، وأحسبك تعرف أن جمهرة الوزراء ميالون إلى الإيجاز وتـكفى كلمة « نظر » أو « موافق » أو « مرفوض » إلى آخر هذه النغمة المشتركة الموروثة ، أما عبد القوى فكان يؤشر على التقرير بتقرير مماثل ، وقل أن نجد له ورقة لايدرسها ولا يوقع عليها برأيه فيهـا مبسوطا فى سطور ، وشاغلا من الورقة الحيز الـكبير ، فهو بين دراســة الأوراق يجمع بين الوزير الخطير والموظف الصغير .

البساطة :

وقد حدثتك عن بساطته ، وأضيف إليها أنه مع موظفيه خارج المـكتب يتبسط معهم ويداعبهم حتى يدمجهم فى جو مشبع بالـدماقة ، ولـكن فى وقار وأدب ، أما فى زياراته لبلده ، فقد قال لى عارفوه إنه لايدع بيتاً بغير زيارة ، وقال لى هومرة إن جلسته هناك من البساطة بحيث لا يفرق فى التحدث إلى أهل بلده بين الحفاة منهم و بين أى كبير يكون ضمن زائريه ، وإنهم يشكون إليه أمرهم و بثهم بنفس البساطة التى يتبعها بعضهم مع بعض .

وأخيرا :

وأخيرا فهذه أوجز صورة لعبد القوى الشيخ والشخص والوزير ، متداخلة

الألوان .. لافارق فيها بينه فى المكتب أو بينه فى البرلمان . وقد اتهم فى الدور الذى قام به بين سرى باشا وعلى ماهر باشا بأنه أحدث بعدم وضوحه شيئاً من سوء التفاهم ، ولم يشأ الرجل أن يتكلم حتى لايزيد الخلاف تفاقماً ، فهل كان سموءلياً فى اختياره الصمت . أم هو أخطأ فرأى أن فى الصمت خير علاج لهذا الخطأ ؟ « برضه » لست أدرى .

عبد العزيز فهمى باشا

شيخ القضاة وكبيرهم . .

والبقية الباقية من جيل جليل انطوى بساطه أو كاد .

وثالث ثلاثة ذهبوا فى ١٣ من نوفمبر سنة ١٩١٨ إلى السير ونجت عميد بريطانيا الظافرة يومئذ للمطالبة باستقلال مصر .

وعضو الوفد المصرى فى تأليفه الأول .

وعضو بارز فى لجنة الثلاثين التى وضعت لمصر دستورها القائم .

وأحد مؤسسى حزب الأحرار الدستوريين .

والخطيب النارى فى سرادقاتهم التاريخية التى هاجموا سعدا فيها .

ورئيس محكمة النقض الذى انفرد بمبادىء جريئة وضعته فى مصاف المشرعين العالميين .

والرجل الذى اعتزل القضاء والسياسة حينا ، فالتزم قريته يقيم فيها المساجد والمدارس ، ويعلم الجاهل ، ويطبب المريض ، حتى لم يعد فى هذه القرية أمىٌّ واحد ، ولم يرتدِ الرجل فى أثناء وجوده فيها غير الجلباب والعباءة مستجيباً لدعوة الطبيعة خصما لدوداً لتعاليم المدنية .

وخليفة محمد محمود فى رياسة حزب الأحرار بعد أن اشتد بينهم الخلاف وكثر الطامعون فى الرياسة فلم يجدوا حلا إلا إخراج هذا الرجل من عزلته وإقناعه بعد جهد جهيد بأن يرأسهم .

وعضو مجلس الشيوخ .

والغاضب على رياسة الحزب والمستقيل من عضوية الشيوخ .

هذا هو عبد العزيز فهمى . : الذى يتعذر على النقد أن يتجاهله ولو شاء الناقد .

علينا — إذن — أن نقول شيئا ، وأن يجىء الشىء موجزاً ، لأن إتاحة الحرية الكاملة للقلم الناقد فى مثل هذه الخصومة لاتقف به عند حد . .

عين شيخا واستقال من المجلس من تلقاء نفسه

شكلا وموضوعاً :

والرجل من حيث الشكل والموضوع ليس بالرجل العادى .

هو ضامر العود ناحل الجسم ، احدودب الظهر منه بفعل السنين ، وابيض الشعر من أثرها ، ومن أثر الكفاح وكثرة التفكير ، لايعرف زيه الأناقة ، ولا تعرف مشيته غير « الهرولة » . .

عصبى فى حركاته ، نارى فى مزاجه ، شاب فى عواطفه ، مندفع إن هو هاجم أو دافع .

وعيبه إذا هو تكلم ألا يعرف لكلامه « محطا » بلغة الغناء ، أو « محطة » بلغة

المواصلات ، ولا أقول « ثرثار » لأن هذا الوصف ليس صادقا تماماً ، وينافى التوقير اللازم للرجل .

ويحار النقد حقاً إذا تناول « العصبية » فى عبدالعزيز القاضى وفى عبدالعزيز السياسى ، وإن كان لا يحار عندما يعرض لها فى عبد العزيز الحزبي ، وفى عبد العزيز الوطنى ، وفى عبد العزيز المصلح ، لأن الحزبية تثير الخصومة والجدة فيها ، ولأن الوطنية تضرم نار الحماسة وتحمل على التعبير الثورى ، ولأن الاصلاح يستلزم الغيرة المشبوبة عليه ضد من يناوئه ، أما القضاء فيقتضى سعة الصدر وأما السياسة فتحتم السيادة على الأعصاب .

يحار النقد ولكنه لايلبث أن يتحرر من هذه الحيرة بعد شىء من التأمل ، لأن الحيرة إنما تقوم على أساس المقاييس العادية التى تفرق بين القضاء والسياسة والحزبية والوطنية والاصلاح ، أما عبد العزيز فهى فله من العبقرية شذوذها الذى لايعترف بالمقاييس التى نعرفها ، والدليل على هذا الشذوذ جمعه بين روح القاضى ، وعداء الحزبى ، وحماسة الوطنى ، وغيرة المصلح ، ودهاء السياسى .

عيوبه وميزاته :

ولهذا تنهار الحدود بين الميزات والعيوب فى هذا الرجل غير المحدود .

خذ « الصراحة » مثلا . . هو رجل صريح إلى أقصى حد ، والصراحة فيه كوطنى وكمصلح وكقاض ، ولكنها خصمه اللدود كحزبى وكسياسى ، وطالما سببت له الكثير من المتاعب ، ولعلها من أهم العوامل فى فشله بين ساسة هذا العصر ، وقد تقدمهم وكان كبيرهم وكان من حقه أن يلجأوا إليه جميعاً كلما حزب الأمر شأن زعماء الهند إزاء زعيمهم غاندى

وخذ « الاندفاع » مثلا . . قد ينصره حيناً فى دفاع أو هجوم ؛ ولكنه يخذله كثيراً بل يمكن منه الخصوم . . هو أحد الثلاثة الذين طالبوا باستقلال

مصر، وهو أحد ثلاثين وضعوا لمصر الدستور، ولكنه غضب أخيراً على ما يجرى فى السياسة المصرية ومن الساسة المصريين فلم يتحرج عن الجهر بآراء عدت اعتداء على الحياة الدستورية والنيابية . . وكانت « شطحة » أثارت « بهدلة » أورثته « قرفا » فأصر على اعتزال السياسة محتمياً بالمرض .

وعندى أن التاريخ سيتعب كثيراً فى دراسة هذه الشخصية، قبل أن يوفق فى التفريق بين المساوىء فيه والميزات ، فقد أرسل — مثلا — إلى رئيس الشيوخ السابق استقالته ، فرأى الرئيس مجاملة للحزب الذى يرأسه عبد العزيز ، والذى كان مشتركا فى الحكم ، أن يثنى الرجل عن عزمه ، فأبى أن ينثنى، وأبى رئيس الشيوخ أن يعرض الاستقالة على المجلس زمناً طويلا ، فأصر عبد العزيز على ألا يتقاضى مكافأته لأنه لا يؤدى مقابلا لها — يعنى عملا فى المجلس بصفته عضواً فيه — مع أن البدراوى باشا المليونير لو تغيب عن المجلس دورتين لما فكر فى التنازل عن قرش من حقه ، بل إن رئيس الشيوخ السابق — وهو مليونير أيضاً — لم يفكر حتى الآن فى الاستقالة من المجلس ، ولم يشهد له جلسة من يوم عينوا رئيساً آخر بدلا منه[1]، وهو يجمع فى بساطة بين الغضب من ساسة لم يرعوا مقامه ، ولم يحفظوا جميله ، والمكافأة يقبضها مادام القانون يسوغ له قبضها .

عضو الشيوخ :

أما عبد العزيز فهمى عضو الشيوخ فى الفترة التى شهد جلسات المجلس فيها ، فكان برغم الشيخوخة شيخاً عاملا حقاً وذا نشاط ملحوظ وغيرة مشبوبة ، كان لا يدع مجالا للقول إلا « انفلت » إلى المنبر فإذا به قد لهث من فرط التعب ، ولكن حب الكلام يجدد قوة الرجل فينطلق يتكلم ، ويتكلم فى ثقة الأستاذ يحاضر طلابه ، وإن كان يثير بطريقته تمرد الطلاب .. فالرجل ثقيل السمع فلا يحسن سماع مايوجه إليه من اعتراضات ، ولا يبالى ملحوظات الرياسة

(١) بعد صدور الطبعة الأولى شهد الرئيس السابق إحدى جلسات المجلس

من خلفه ودقات أجراسها وشاكوشها ، حتى يضطر الرئيس إلى « الشخط » فيعز على عبد العزيز أن يعامل بهذه الطريقة فيغضب ويبارح المنبر .

على أن وجوده فى المجلس كان كسبا لاشك فيه للحياة البرلمانية ، وإن كانت سنه وأمراضه قد جعلت هذا الكسب محدوداً .

وبعد ! فها هو ذا قد اعتزل السياسة ! فليهنأ بالراحة وليتقبل تحية النقد البرلمانى ، نرسلها إليه راجين للمجاهد القديم حياة هادئة مباركة .

١٤ — عبد المجيد إبراهيم صالح باشا

وثب من عين أو « محام مختلط » غير مشتغل يقضى أوقاته قضاء «ديموقراطيا» فى بار اللواء وما إليه ، إلى مدير مكتب المغفور له محمد محمود باشا . . إلى وزير لا يرى ما يحول بين الحكم و بين قضائه السهرة ديموقراطية أيضا مع أصدقائه مصطفى أمين وعلى أمين وكامل الشناوى فى بوفيه جريدة « الأهرام » الغراء

وأنا لا صلة لى بالرجل ، وقد عرفنى به يوما معالى الأستاذ عبد الحميد عبد الحق فى غرفة زعامة المعارضة فى مجلس النواب السابق ، فقدمنى إليه قائلا له « أنت ماتعرفشى إن السوادى جريبى - أى — قريبى » وسارع الشناوى إلى تقديمى له بالميزات التى يعتقد أننى « أحتكرها » وأجاب الرجل فيما يشبه « السرحان » «أيوَه . . أيوَه .. » فأدركت أنه يجاملنى أكثر مما يعرفنى . . فلم أباله يومئذ . . ولم تحملنى جلسة ذلك اليوم على أن أباليه بعدئذ .

ومضت الأيام وكل ماله فى نفسى فضيلة « ارتكبها » . . وأقول ارتكبها لأنها عدت ذنبا عليه عند الموظفين ، وفخراً له عند المواطنين ، وحيرة لى كنا قد أجهل حقيقة صاحبها . . وأعنى بهذه « الفضيلة » أو « النبالة » أو « المأثرة » أو « الموقف الطيب » أنه قبل وظيفة مدير مكتب رئيس الوزراء وقريبه

محمد محمود باشا ثم أعلن عبد المجيد أنه متنازل للدولة عن مرتب هذه الوظيفة ثم انطلقت الصحف تدعو لهذا التنازل على صورة حملتنى على الاعتقاد بأن الدعاية هى المقصودة ، ولو أنى لا أتهم الرجل بهذا المقصد ، وأقنع باتهام نفسى بأنى إلى اليوم لا أعرف إن كان دافع الرجل إلى هذا الصنيع الحسن ، حب الدعاية أوحب الوطن ، وأسوأ الفرضين لا ينفى حسن الصنيع على كل حال .

والمدة القصيرة التى اشتغل فيها وزيراً لم تبرز به ولم يبرز بها ، ولم يصطدم يوماً بمستجوبين فنعرف قدرته على رد الهجوم أو على حسن الدفاع ، فلما جاء أخيراً إلى قاعة الشيوخ شيخاً ، كان قد استقر فى ذهنى أن هـــذا الرجل « الوجيه » شكلا ، لا رجاء فيـــه « موضوعاً » ثم دارت الأيام دورتها فإذا الرجل يثبت أن فى القاعة شيوخا وأن بين الصامتين من يحسن الكلام ، وأن الحكم على الأشخاص بظواهر الأشخاص لا يصادف السلامة دائماً .

انتخب شيخا فى ٢٦ مارس الماضى عن دائرة البدارى وقد اخطأنا فى الطبعة الأولى وقلنا إنه شيخ معين

نعم شهدته متكلما فى الجلسة التاريخية التى استغلها خصوم رئيس الشيوخ السابق للإساءة إليه ؛ شهدته ذائداً عن حرية الرأى بإيمان رائع ، وعن حصانة الشيوخ بإخلاص وحرارة ، ورأيته يتخير لنفسه طريقة ترضى حماسة المتطرفين ولا تغضب الوزراء ، أعلن أنه لا يدافع عن شخص بعينه ، ولكنه يرى أقداس الرأى وحرية الشيوخ محوطة بغبار وغموض ، وأنه لا يعتقد أبداً أن رئيس الوزراء الذى عاش للدفاع عن الحريات ، ينتهك منها الحرمات ، فهو إذن — يتجه إليه راجياً منه أن

يتكلم ويوضح هذا الغامض — وهو إذ يتقدم إليه بهذا المطلب فإنما يناشده الحق والضمير ، ويناشده ماضيه الطاهر الطويل .

وظل الرجل يدور بحرارة حول هذا المعنى ، حتى صفق له جمهرة الشيوخ ، فعرفت من ذلك اليوم أن فى وسعه أن يخاصم الصمت والصامتين .

وتغلب على الرجل صبغة الصراحة ، ويعنى كثيراً — على مايبدو — بأقوال المجلات ، حتى لقد رد على بعضها أكثر من مرة ، وكتب فى بعضها أكثر من مرة . وهو من ناحية الأسلوب أدنى إلى الكتاب منه إلى الوزراء .

وكثيراً ماذكر عنه أنه بين أعضاء حزب الأحرار يعتبر فى طليعة المشاغبين ، ولكن الحوادث أثبتت أنه فى طليعة الداعين إلى الوحدة ، وقد كان رسول السلام بين الوفد وحزبى السعديين والأحرار ، حين حاول المحاولون أن يتفق المختلفون على توزيع الدوائر قبيل الانتخابات .

الشيخ شكلا :

هذا هو الشيخ موضوعاً فى أضيق دائرة وأوجز وصف ، أما الشيخ شكلا فشىء هائل ، عملاق قدمه فى الأرض ورأسه فى السماء ، ملىء ممشوق منتفخ الوجه والعينين ، لا كلفة بين صدره وقميصه : هذا كواه الكواء وهذا كوته إرادة الله الذى يبدع الخلائق ، أنيق غاية فى الأناقة ، معروف بحسن اختيار ربطات العنق ومناديل الإعلان !!! يمسك فى يده مسبحة خضراء ذات حبات كبيرات لافتات . . تخاله جندياً من القامة ، وتعرفه عيناً من المشية ، ويبدو أن الرجل «صاحب مزاج» وأنه يحيا حياة ناعمة ، له من ثرائه مايكفل له النعومة فيها ، وله من « مزاجه » هذا مايجعله صديقاً للارستوقراطيين والديموقراطيين على السواء .

١٥ — على حسين باشا

على حسين باشا :

أظنك تذكره ، وتذكر أنه كان وزيرا للأوقاف فى الوزارة النحاسية فى سنة ١٩٣٦ وكان وزيرا للأوقاف أيضاً فى الوزارة النحاسية الحالية ، ثم استقال منها لضعف صحته قانعاً بعضوية الشيوخ .

شيخ معين فى ٢٩ مارس الماضى

وعلى حسين قاض قبل كل شىء ، ولا أحسبه يربح من السياسة كثيراً ، ولا أحسب السياسة تربح منه كثيرا أيضاً .

ماضيه :

وللرجل ماضيه فى القضاء ، يحدثك عن النظافة والنزاهة فيه جميع القضاة وجميع المحامين .

وكان دائما — وبرغم ما عرف عنه من طيبة — يؤمن بأن فى القصاص حياة ، وبأن العقوبة الرادعة هى أداة الاصلاح الحق ، فكأن المشرع حين جعل للعقوبة حداً أدنى وحدا أقصى ، وترك حرية التنقل بين الحدين للقاضى وضميره وتقديره ، إنما اختار قاضينا فى الأغلب الأعم للحد الأقصى فى الحكم .

قص علىَّ صديقى الأستاذ مرشد أمين المحامى أنه ترافع بعد تخرجه من قبل خمسة عشر عاماً خلت ، فى أول جناية وكل فيها ، أمام دائرة على حسين فى محكمة

أسيوط ، وكانت هناك دائرتان الأولى يرأسها على حسين والثانية يرأسها صالح حقى ، وكان على حسين « بعبعاً » لطلاب البراءة من المحامين ، فكانوا يدعون الله دائماً أن تكون دائرة « حقى » من نصيبهم ، فلما ترافع الصديق أمام على حسين ، وكانت القضية قتل عمد توافرت فيها الأدلة ضد المتهم ، وتوافرت أيضا الظروف المخففة التى تدعو إلى الرأفة ، وقضى على حسين على المتهم بعشر سنين ، صفق الجمهور وأقبل المحامون على محامى المتهم مهنئين برغم السنين العشر ، لأنهم كانوا من المؤمنين أن على حسين « سيهف » المسكين شيئا أشد بكثير من السنوات العشر .

هذا هو على حسين القاضى . . تكمله إذا أنت أضفت إليه ماعرف به من رزانة واتزان وحسن إدراك .

حاضره :

أما على حسين المجاهد فرجل مسالم .

وأما على حسين الوزير الحاكم ، فرجل نزيه لايعرف أحد أنه حاد عن حق ، وهو فى حذره من الأخطاء يبالغ حتى يضن بتوقيع القرارات متى كان فى توقيع الوكيل مايغنى عن توقيعه ، وحسبك أن تستمع إلى بعض موظفى الأوقاف ، وهم يؤكدون لك أن على حسين باشا فى الشهرين اللذين ولى فيهما أمر الأوقاف فى الوزارة الحالية ، لم يوقع قراراً واحداً ولم يكافىء أحداً ولم يعاقب أحداً .

الشيخ شكلا :

أما الشيخ شكلا فرجل جاوز السبعين على مايبدو ، وكان فى أيام الوزارة متعبا فعلا ، وبانت عليه الراحة بعدها ، وهو حتى اليوم من الشيوخ الصامتين ، وفى الوزارة كان صامتا أيضا ، ولكنى أتوقع أن يتكلم إن حدث مايدعو إلى التكلم

فالذى ولى أمر القضاء والاستشارة والاستئناف ، وتكلم قرابة أربعين عاما ، لا يرده عن الكلام إلا الضعف فى الصحة ، أو انعدام الحافز ، أو إيثار السلام .

١٦ — كامل بك إبراهيم

والآن يجىء دور صاحب العزة كامل بك ابراهيم

والرجل كما ترى فى الصورة شيخ يدور حول السبعين .. أقرب فى السحنة إلى « الفلاحين الصميمين » أو إلى الفراعنة الأقدمين ، وفى الهدوء إلى « الناس الطيبين » . . أشيب شعر الرأس والشارب . . ولكن هذا الشارب ينحدر بنفسه يمنة ويسرة إلى زاويتى الفم كأنما يمشى إلى مستقر له . . فيه كثير من حب السلامة . . ورضا القناعة .

عين شيخا فى ٨ مايو سنة ١٩٣٦

وكامل بك إبراهيم — برغم هذه السبعين — فى صحة لا بأس بها ، عريض المنكبين نوعا . . نظيف الزى فى غير أناقة . . حريص على اقتران النشاء بالياقة . ضارب اللون إلى السمرة النحاسية . لعينيه صفاء وفيهما يقظة . . بادى الجد . قل أن يبتسم وقل أيضاً أن يعبس .

ماضيه :

لا أعرف من ماضيه غير مايعرفه جماعة مواطنيه .. كان قاضيا . . وكان

مستشاراً فى محكمة الاستئناف . . وكان وكيلا لها . . وعين وزيراً للخارجية ووزيراً للزراعة فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٤ فى وزارة توفيق نسيم الأخيرة .. وعين عضواً فى الشيوخ ولا يزال عضواً فيه .. على أن للرجل فى كتاب الوطنية صفحة مجلوة تحمل طابع البقاء للصنيع إذا ذكر الصنيع .. وتحمل طابع الفخار لبنيه وذراريه إذا فاخر الذرارى يوماً والأحفاد بصفحات الأجداد . . ذلكم هو موقف كامل بك إبراهيم المستشار حين كان عضواً فى الدائرة التى فصلت فى قضايا الاغتيالات السياسية .. وحاكمت ابنين من أعز أبناء مصر عليها وأبرهم بها.. ونعنى بهما أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى .. ففى تلك القضية تجلت شجاعة المستشارين المصريين كامل بك ابراهيم وعلى بك عزت فخالفا الرئيس (كرشو) واضطراه إلى النطق بحكم البراءة .. وحدث بعدئذ ما حدث من كرشو مما ندعه للتاريخ .

الشيخ كامل :

أما كامل بك إبراهيم العضو فى الشيوخ ، فقد عاصرناه فى القاعة بضع سنين ، وعرفنا أثره فى اللجان من مختلف التقارير ، وشهدنا وقفاته فوق المنبر كمقرر ومتحدث .

والرجل ليس بخطيب إذا أنت تطلعت إلى الخطابة كفن من الفنون ، له فى الإلقاء مبادىء وقواعد .. وله فى الوقفة والنظرة أصول وتعاليم ..أما إن شئت أن تعرض للرجل كشيخ يؤدى واجبه . . فهو حريص على هذا الواجب . . يتكلم فيحسن التعبير عما يريد فى هدوء .. وإذا كان مقرراً يصر على أن يرد فى منطق قوى — ولكنه منطق خال من تأثير الخطيب — وفى اتزان يكسبه كثيراً من الاحترام — ولكنه احترام خال من الرهبة والجلال — فهو مدافع من الصنف غير الساخن ولا يصلح البتة مهاجماً . . وعدم صلاحيته للهجوم تستتبع عدم صلاحيته للحزبية ، وماتنطوى عليه من نضال يشبه القتال .. ومن كروفر . .

ومما يثبت إيثار الرجل للسلامة أنه كان يوماً معدوداً وفدياً ، ولكن الفرصة ما كادت تلوح للعودة بنفسه إلى طائفة المستقلين حتى عاد فى ليونة ونعومة ، وأخذ مكانه بين صفوفهم .

وكامل بك من حيث (الطائفية) حريص على (مصلحة الطائفة) إذا مست .. أو خيل إليه أنها توشك أن تمس . فإذا ظلت سليمة ، فهو لا يحاول أن يطلب المزيد لها ، حتى لا يعرض كرامته لقيل وقال ..

وهذه الملحوظة يثبتها له النقد .. لأن الشيخ عباس الجمل عرض مرة لأشياء خاصة بالأحوال الشخصية لغير المسلمين : فغضب كامل ابراهيم .. و « استأسد واستنسر » . . ورجا فى حدة « هى الأولى من نوعها » أن يحرص كل شيخ على الود القائم بين المواطنين . . فوقف الشيخ عباس الجمل وأعاد الأمور إلى نصابها مؤكداً لكامل أن هذا الخاطر الذى تسرب إليه لم يجل بخاطره . . فشكر كامل بك للشيخ عباس تصريحه وعاوده الرضا .

فى اللجان :

أما كامل إبراهيم فى اللجان فذو نتاج وأخو واجب ، وهو حريص على شهود الجلسات وعلى الإدلاء برأيه فى المناقشات ، ويكثر دائماً أن يختار مقرراً لحيدته فى عرض الآراء ، ولأمانته على هذا العرض فى كثير من الهدوء .

النتيجـــة :

ونخرج من هذا كله بأن كامل إبراهيم شخصية منتجة فى غير امتياز ، ملىء بالمعرفة ، لاشطط عنده ، ولا إسراف فى طبعه ، ولا حدة فى إلقائه ، ولكنه على هذه الميزات « رجل طيب » لا يرهب جانبه .. وشيخ مسالم يرجى نفعه ويؤمن

ضره . وهو فى كرسيه كثير الصمت . . وكله آذان لكل مايقال . . اعتلى المنبر مرات معدودات فى خلال سنوات . . يميل إلى مناصرة الحكومات عند التصويت كجمهرة المستقلين، ولكنه فى مرة أو مرتين لم ير مانعا من الانتصار للمعارضين. فدلل بهذا « التلوين » على أنه فعلا من « المستقلين » .

١٧ — محمد بهى الدين بركات باشا

الأستاذ بهى الدين بركات . . ولا أسميه بغير كلمة « أستاذ » ولا أختار له منصبا غير منصب « مدير الجامعة » يشرف عليه أشراف أستاذ مستضىء ومضىء، فيشيع بين الأساتذة والطلاب الروح الجامعى الصحيح ، ويبث فيهم قداسة الرأى الحر الذى يؤمن به بهى الدين .

شيخ معين فى مارس الماضى

كان بهى الدين عضوا فى مجلس النواب الفائت ، يوم كنت أتناول شخصيات الشيوخ فى « البلاغ » فى أيام الآحاد فلم يكن للنائب المحترم نصيب من هذه الفصول ، ولكنه الآن عضو فى الشيوخ فمن حقه أن يأخذ مكانه من كتابى ، وإن جاء المكان ضيقا وبرغمى .

والمرة الأولى التى وقعت عيناى فيها على بهى الدين كانت فى أوائل ديسمبر سنة ١٩٢٩ حين كنت أمثل جريدة « كوكب الشرق » والجرائد الوفدية فى

البعثة التى ندبها الوفد للدعاية لانتخاب عبد الله بركات شقيق بهى الدين ، بعد أن وقع علىَّ لهذه المهمة اختيار والدهما المغفور له فتح الله بركات باشا .. وهناك أمضينا أحدعشر يوما نطوف بالدائرة ، ولحق بنا فى أواخرها بهى الدين — وكان يومئذ مستشارا فى محكمة الاستئناف — فقدرت فيه تباعده كقاض عن المساهمة مع أعضاء الوفد فى الدعاية لأخيه ، ومن ذلك اليوم وأنا أجلُّ الرجل .

بهى الدين وزيراً :

وقد اختير بهى الدين مرة لوزارة المعارف ، فلم يكن أخا إعلان عن عمله ، بل كان أخا عمل صامت منتج ، وكانت له فى التعليم آراء لو طال به الزمن لأحدث بها انقلاباً .

فاذا ذكر وزراء المعارف الذين أحدثوا فى بحرها الزاخر تيارات غير هينة ، فبهى الدين يذكر من غير شك فى طليعتهم ، وهو ذكر طبيعى جداً ، فالرجل بحاثة من شبابه ، لم تحل وظيفته يوما — وإلى اليوم — دون إعداده المحاضرات العميقة المتزنة يلقيها على جماهير المثقفين ، ويرسى فيها أسساً ويرسم اتجاهات .. فمثل هذا الرجل الذى خلق للأستاذية المفكرة المثمرة ، لابد أن يكون ذا رأى إذا هو ولى وزارة التعليم ، وقد فعل .

رئيس النواب :

وقد ولى بهى الدين رياسة النواب عاماً ، فكان مثالا للقاضى ، ولم يكن مثالا للبرلمانى ، أو قل كان يمثل الرياسة المستقلة للمجلس الحر ، ولم يكن طويل الباع فى التوفيق بين رغبات الأحزاب أو أهواء النواب ، وكان أبداً جادا فى البلد المطبوع على الفكاهة ، ولم يكن « بحبوحا » عند ما تحسن « البحبحة » .

وكان يميل للنظام فى إدارة أعمال المجلس الداخلية ، فصادف أكثر من عقبة

كانت المكاتب « ملغمة » من خلف ومن قدام ، والرجل لا يعرف اصطناع الأنصار والمجلس قام — من بدايته — على موظفين يخاصمون هذا وينتصرون لذاك ، فلم يكن العبء هيناً .

ودارت السياسة دورتها ، ورشح بهى الدين نفسه للرياسة مرة ثانيه ، ولم يكن يدرى أن الأغلبية الساحقة من الموظفين يحبون أحمد ماهر حباً جماً ، ويدينون له بالكثير من صعودهم ، وقد ردوا للمحبوب منهم بعض هذا الجميل ، فدعوا له فى « افتنان » لا يستطيع بهى الدين أن يجاريهم فيه أو يأبى عليه كبرياؤه هذه المجاراة ، وللموظفين من وثيق الصلات بالنواب ومن التأثير فيهم مالا يعرفه إلا المتصل بالحياة النيابية ، ويقال إن ما استكشفه بهى الدين من « مناورات » الخصوم و « تكتيكات » الدعايات و « الأعيب » بعض الموظفين « ومواثيق » بعض النواب قد أورث هذا الرجل الأخلاقى كثيراً من المرارة .

مثقف :

وإذا قلت لك إن بهى الدين رجل مثقف ، فينبغى أن تظفر هذه الميزة بتقديرك ، لأن عظماءنا المثقفين أندر من الكبريت الأحمر كما يقولون ، ولأنى لا أعنى بالثقافة الحصول على الإجازات العالية من مصر أومن الخارج ، بل أعنى بها مسايرة النتاج العالمى وحب المطالعة التى تتخذ شعاراً لها قول جيته الخالد « نوراً يارب . . كثيرا من النور » .

بهى الدين أحد هؤلاء العظماء . . ومكتبته دائمة النمو . . وذهنه مثر .

الرجل شيخاً :

وقد جاء بهى الدين إلى مجلس الشيوخ ، فأحسن الشيوخ استقباله وأحسناه معهم ، وظهر أن بهى الدين يعرف واجبه النيابى ، ولا تغيب عنه التيارات السياسية ومقتضياتها ، يواظب على حضور الجلسات ، وهو يتتبع باهتمام كل ما يجرى من

نقاش حتى إذا عرضت أخيرا قضية الحرية فى أحد أوضاعها ، انبرى بهى الدين يرد على وزير العدل رداً حماسياً حارا ، يحرسه منطق قوى صارم ، يحدوه عنف مهذب ظاهر ، تسايره إيماءات المؤمن بما يقول والأستاذ المتمكن من مادته .

وأنا لا أزال عند رأيى الذى أبديته فى « البلاغ » يومئذ ، من أن وجود بهى الدين فى مجلس الشيوخ كسب للحياة النيابية .

ميزاته ومساوئه :

وقد عرفت الآن بعض ميزاته مما تقدم ، ولابد أنك فى حاجة إلى تعرف عيوبه ، فهو أولا لايتخير فى اللثغة عن كاتب هذه السطور ، إلا فى أن الطبيعة اختصتنى بحرف « الراء » وحدها ، واختصته بالثاء وملحقاتها ، ويبدو لى أيضا أن الشيخ « عصبى » وانعدام السيادة على الأعصاب نقص فى السياسى ، ولا أعرف حتى اليوم لبهى الدين عيوبا أخر .

بهى الدين شكلا :

وبهى الدين فى جسمه « قليِّل » كما يقول العامة .. أدنى إلى الطول ، وذو نحول ، وذو وجه صغير مستطيل ، كثر أن يلبس منظاراً وقل أن يخلعه ، ضعيف فى مجموعه ضعف العلماء والباحثين ، متزن إلا إذا «انحمق» هادىء ووقور ومحتشم فى زيه وفى ألوان بذلاته ، ويظهر أنه إذا أحب أخلص فى الحب ، وإذا اندفع لتحية صاحب محبوب منه ، لمحت فيه بساطة الطفولة الحبيبة ، وإذا خطب كثر أن يضع يده فى خاصرته ليعمل الأخرى فى أداء الايماءات التى ترافق عباراته .

ولا أشك فى أن مجلس الشيوخ ربح بعضوية بهى الدين أكثر مما ربح بهى الدين بعضوية الشيوخ .

١٨ — محمد توفيق رفعت باشا

رفعت باشـــا :

فأما توفيق رفعت باشا فالتناسب غير موجود تقريبا بين جسمه الضئيل وشاربه الطويل . . ومفقود تماما بين وجهه الصغير وشاربه الكبير . . والرجل حريص على أن يجىء مجلس الشيوخ فى زى « رسمى خالص » ولغير داع إلا داعى المزاج الخاص . . ومهما تشتد حرارة الصيف فالسترة الطويلة لابد منها، والياقة المنشاة لابد منها، والابتسامة العريضـــة المرحة تتراقص فوق الشارب ، وترتفع بالحاجب ، وتغمر الوجه بما يشبه مرح الطفولة .

شيخ معين فى مايو سنة ١٩٣٦

والرجل أديب ولغوى وشاعر ورئيس للمجمع الملكى ووزير سابق وعضو فى بعض لجان المجلس ، ولكن أحداً من النقاد لا يستطيع أن يجرؤ على القول بأنه سجل لمعاليه يوما عملا برلمانيا فى القاعة ، ولست أدرى إن كان السبب يرجع إلى أن معالى الشيخ لا صوت له يساعده على الكلام ، أو لا طاقة عنده تساعده على اعتلاء المنبر ، أو يرجع إلى أنه من « طبقة . . الأعيان » الذين يحتلون من المقاعد الخلفية جبهة . . ترى فى الصمت وقاراً يشبه «القهوة السادة» وفى الكلام « عيلنة » تشبه « القهوة أم سكر » .

ورفعت باشا حريص على كلمة (نعم) فى كل تصويت يحرص الوفديون فيه على كلمة (لا) والعكس صحيح . . ويستخفه طرب السمع . . فى بعض الأحيان .. إذ ماأعجبه أحد فرسان الكلام ، فيظل معاليه يتنقل بشار بيه من مكان إلى مكان . . حتى يستقر أخيرا فى الصف الأول ليحسن الإصغاء .

لكيلا ننسى :

ولكيلا ننسى ينبغى أن تعلم أن معالى توفيق باشا برغم كل ماقدمت لك ولى رياسة النواب مرة . . نواب صدقى باشا ! ! وولى الوزارة كثيرا ومن قديم ففى ٢٢ من مايو سنة ١٩٢٠ اختيرلوزارة المعارف فى وزارة توفيق نسيم ، وفى أول مارس سنة ١٩٢٢ المعارف أيضا فى وزارة يحيى ابراهيم ، وللمواصلات فى ٣ من نوفمبر سنة ١٩٢٢ فى وزارة نسيم ، وفى ابريل سنة ١٩٢٢ اختير عضوا فى لجنة الدستور ، وللحربية والبحرية فى وزارة اسماعيل صدقى فى سنة ١٩٣٠ .

والرجل يحب المرح دائما ويسرف فى حب بنيه وأحفاده إسرافا ملحوظا .

١٩ — حافظ رمضان باشا

وأنتقل بك الآن إلى خليفة مصطفى وفريد ، حافظ رمضان الذى ظل زعيما للحزب الوطنى من يوم قضى فريد العظيم . حتى قبل حافظ الوزارة ، و«صهين» عن الدمع الهتون الذى تساقط من العيرن ، عيون الشقيقات الأبيات ، زيلع وهرر ومصوع ، وكردفان ، فظهر فى الميدان فيلقان يتقاتلان ، فريق يؤيد حافظ رمضان وفريق يخالفه وعلى رأسه عبد الرحمن بك الرافعى

صورة :

كانت الصورة التى وعاها ذهنى قديما عن حافظ رئيس الحزب الوطنى ، صورة

متداخلة الألوان ، قزحية الأطياف ، فالمجلات تصوره لى فى صورة الشاب الأنيق الذى ينفق نصف دخله على الأناقة وما تتطلبها من عطور وزهور ، وأنباء البرق كانت تحدثنى — كقارىء — حديث الرحلات يقوم بها حافظ رمضان إلى أهل الشمال ، هواة الأسماك ، ليلتقى هنـــاك « بالأسكيمو » ، وليراود نفسه إن كان يساهم مع مغامرى الروس فى كشف القطب ، وإخواننا المحامون هنا كانوا يحدثوننى بالمعجب المطرب عن حافظ المحامى الضليع . وحافظ المسرف المتلاف . . ومكتبه الزاخر بالقضايا . . « المتعهد » الأكبر للدفاع عن دوائر الأمراء والأميرات . .

كان شيخا وأبطل تعيينه بمرسوم
ثم أعيد بمرسوم ٢٩ مارس الماضى

وشهدت الرجل قديماً يحمل على الوفديين ذات مرة فى برلمان الوفد . . وكان النحاس باشا يومئذ رئيس المجلس . ولأول مرة سمعت حافظاً خطيباً . . فعجبت لهذه القوة الجبارة تترك مصر إلى بلاد الإسكيمو . . ولهذه القدرة على اجتذاب الجماهير . . تنأى عن الجماهير فلا يعرف عنها الجيل الجديد أكثر مما يعرف عن « الإسكيمو » .. بل عجبت للنقص الطبيعى فيه كيف يخلق منه ميزة كالرجل « الألثغ » الذى يستهوى الجماهير « بلثغته » بدلا من تنفيرهم منها .. نعم عجبت « للخنفه » أصابت بها الطبيعة أنف حافظ ، فإذا المواهب الخطابية منه تصرع هذا النقص الطبيعى فيـه . . ثم تبرزه لسامعيه حسنة من حسناته لا سيئة من

سيئاته . . وانطوت السنون حتى التقيت بحافظ باشا أخيراً ، وتحت القبة ، وزيراً حيناً ، وشيخاً حيناً .

حافظ . . فى مجموعه :

ويبدو أن حافظ رمضان الشاب كان ذا بنيان صحى هائل . فالرجل على الرغم من الشيخوخة الهادئة التى بدأ يخب فى ساحتها ويوضع ، وعلى الرغم من الأمراض التى بدأت تعمل فيه معاول الهدم فى غير رحمة ، لا يزال يلوح كهلا كأنه فوق الأربعين بقليل ، فارع العود معتدل القامة مرفوع الهامة ، أدنى إلى ضباط الجيش فى المشية . وإلى أشبال الرياضة فى النشاط . ولا يزال وجهه يحتفظ بالوسامة . . ورداؤه يحتفظ بالأناقة . . وعينه تحتفظ بالبريق . . ومجموعته تحتفظ بالوجاهة . . وصوته يحتفظ بالرنين . . وجرسه يحتفظ بالحلاوة . . ومرد هذه الصحة البادية عليه على الرغم من المرض الذى يناوئه إلى مسلك الرجل فى شبابه . . لم يكن مسرفا قط فيما يسىء إلى الصحة . . وكان رياضيا . . فلما كبر أصبح رحالة واستهوته الأسفار . . الخ الخ

حافظ الوزير :

ويبدو أيضا أن حافظ الوزير ، كان يعرف أنه ضحى بالكثير فى سبيل هذا المنصب ، وكان يعرف أن قبوله الوزارة للاعتبارات التى رآها ، قد أضعفت من موقفه ، وقوت من موقف خصومه والمختلفين معه من حزبه . وأستنتج هذه الحقيقة من حرص حافظ الوزير على الصمت العسيق إلا أن يُسأل فيجيب

ولو أنه كان فى منصبه مستريح الضمير ، أوقوى الجانب على الأقل ، لرأينا فيه الوزير الرائع ، الذى يحسن إن هاجم وإن دافع ، إلا أن يكون المنصب قد

أوحى إليه أن يصمت ، من باب الجلال الوزارى ، وهو فرض أستبعده على رجل كحافظ ، إلا أن تكون الحال غير مرضية ، والنفس غير مطمئنة ، فقد كان فى أول الأمر وزير دولة ، وفى المرة الأخرى وزيراً للشئون الاجتماعية ، ومن حقه أن يغضب على المنصبين ، فوزير الدولة وزير شرف فى نظر الناس مهما يكن أثره فى سياسة الدولة .. ووزارة الشئون فى عهد حافظ كانت مهمة الوزير فيها أن يكتب مقالا فى مجلتها ويأمر باذاعة نصائحها من محطة الإذاعة ، ومثل هذه « الشغلانة » لاتشبع شيخ سجادة . . بله رئيس حزب سياسى .

حافظ . . الشيخ :

أما حافظ . . العضو فى مجلس الشيوخ ، فشخصية يتسع مجالها للنقد قدحاً ومدحاً ، وتستطيع أن ترتفع بها إن كنت نصيراً لها إلى السماوات العلا ، وتستطيع أن تهوى بصاحبها إن كنت خصما لهذا الصاحب إلى أقل مستوى .

أما النقد العف النزيه . . ففى وسعه أن ينصف الشيخ فيجد له الكثير من المحاسن ، ولا يعوزه العثور على المساوىء .

حافظ كخطيب برلمانى . . عنيف وثورى ، خلق ليعارض وليؤثر ، وليخلق من الجو الهادىء جوا صاخباً ، وليزعزع إيمان المؤمن بشكوك الشاك ، مكانه فى الصف الأول غير منازع ، فهو يحسن الإلقاء ، ويعيد إلى الأذهان « شغل التياترو » ولكن فى غير تصنع ، ويوقظ فى الصدور شعلة الوطنية من غير أن تتنبه إلى غير النار التى أوقدها فيك الخطيب ، بنظره الحديدى وقامته الممشوقة وإيحائه الهائل ويده المبسوطة التى ترتفع لتهبط على المنضدة فى يقين وقوة ، وقسمه الذى يكثر منه ليركز فيك الإيمان بما يقول ، فلا تشك وهو يقول للشيوخ « أقسم بالوطن وعزته ، أقسم بالله العظيم ثلاثاً » فى أنك أمام زعيم وطنى يقود شعباً ، لا أمام شيخ سياسى يخاطب شيوخاً .

ويعتمد حافظ فى عملية الإقناع ، وفى اجتذاب الأسماع ، إلى سعة أفقه ، وسعة اطلاعه ، ومتابعته كثيرا من دقائق السياسة الدوليه فى أرجاء المعمورة ، فاذا أراد أن يستشهد لايلجأ إلى ما أعرفه أنا وأنت من حديث عن مصر وانجلترا ، وعن معاهدة التحالف ، بل راح يذكرك بولاية بورما وما جرى فيها ، وسنغافوره وحصونها ونيوفوندلند ووضعها ، وأيسلند وتطوراتها .

***

ولكن هذا كله — على عظم شأنه — انهار مرة تحت مطرقة الرد حين تولاه الوزير الصريح حسين سرى ، والوزير الفاهم عبد الحميد بدوى . وصرحا فى حكاية الذهب الذى ادعى حافظ باشا أنه خرج من البنك الأهلى إلى بنك انجلترا بأنه باق ولم يخرج ، وإذا كل مابناه حافظ على هذا الاتهـــام يلبس رداء الحطام ، ويلتفت الشيوخ بعضهم إلى بعض كأنهم يقولون «ده الراجل حلف بالله العظيم» ويضج المجلس بين تأثره بخطبة حافظ ، والصدمة التى قاومت هذه الخطبة بتصريح الحكومة ، ويطالب الشيوخ ببيان واف ، فتعد الوزارة بتقديم الأرقام تلقف كل هذا الكلام فى جلسة تالية ، ورفعت الجلسة ليلتئذ وانطوى أثر حافظ وانتصرت الحكومه . وتقرأ له الخطبة منشورة فى الجريدة ، أومثبتة فى المضبطة فتجدها «عادية» فتعرف ساعتئذ أن تأثير حافظ هو فى شخصه واقفاً أمامك ، مهيباً بك ، مقسماً لك ، صارخاً فيك ، لافى موضوعه من حيث هو موضوع

حافظ . . كبزلمانى حزبى :

أما حافظ كبزلمانى حزبى . . فلا أعده ممتازا . . فهو لا يعد « تكتيكا » ولا يحسن إعداده ، وإن شاء أن يلجأ إليه انضم إلى المعارضة ، فلا يسع الأغلبية إلا أن يسيئوا فيه الظنون ، فيفشل « التكتيك » مع أنه لو انضم إلى المعارضة «سرا» واتخذ مكانه بعيدا ، ورفع باسم الحزب الوطنى رايته مستقلة ، لوفق أكثر

أخيرا :

وأخيرا فحافظ من دعاة الحرية من غير شك ، وقد غضب من رئيس الشيوخ السابق ، فأقسم فى القاعة جهرة ألا يدخلها مادام هذا الرئيس فيها ، وبر حافظ بقسمه ، فلم يحضر الجلسة بضعة أسابيع حتى عين زكى العرابى باشا .

مصر البرلمانية — إذن — فى حاجة إلى حافظ رمضان معارضا و « معارضاً دائماً »

٢٠ — محمد حسين هيكل باشا

نعرض الآن للشيخ المحترم الدكتور الحاج محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف السابق .

وهو عرض نستعيذ بالله والحق والإنصاف من الحروجة فيه . . فهيكل صحفى قبل أن يكون وزيراً ، وكاتب قبل أن يكون شيخاً . . و « لابن الكار » على « ابن الكار » حقوق .

ولكنه — مرة أخرى — أديب يغلب جمال الفن عنده على سلامة الأدب فيه ، فهو من هذه الناحية أولى الناس بقدر « الجمال » فى « النقد الصادق » الذى يبحث وراء « الحقيقة » وليس أجمل فى ميزان المفكر ولا أبقى ولا أخلد من « الحقيقة والجمال » .

ويسهل مهمتى أنى — وقد أمضيت فى الصحافة ستة عشر عاماً أو سبعة عشر إلا شهورا — لم يجمعنى به عمل صحفى ، ولم تنعقد بينى وبينه أواصر صداقة ، وكل ماهناك أن كثيرا من عارفيه أصدقاء لى وزملاء ، وأنى قرأت له كاتباً ، ولستمعت له خطيباً ، ورأيته بين صفوف الشيوخ شيخاً محترما ، ورصدته فى مقاعد الوزراء وزيرا نابهاً ، وعاصرته فى المجلس معارضاً ومؤيدا ومستجوباً (بكسر الواو)

ومستجوباً (بفتحها) ومن هذا كله جاز لى أن أتناوله صحفياً وسياسياً وشيخاً بريشة نقدى البرلمانى . .

كما تناول هو أحزاب مصر وزعماءها بريشة نقده السياسى . . و « كما تدين تدان » على رأى بعضهم .

كان شيخا وأبطل تعيينه بمرسوم وقد أعاده مرسوم ٢٩ مارس الماضى

هيكل الشيخ والوزير :

وميزة هيكل باشا أنه إذا عين وزيرا اتجه إلى مقاعد الوزراء « مبلولا » ثم مايكاد يدنو منها حتى يرده عنها شعور « الفنان » فيميل إلى مقاعد المعارضة مسلماً و « ينزل » فى المعارضين « هزارا » أكثر مما كان يفعل شيخاً ، ويغرق فى الضحك على طريقته التى ينطبق عليها قول العامة « يغشى على روحه » فاذا « دق » المجلس فى « الشغل » وانصرفت الأذهان عن هيكل . . « تدهلز » إلى مقاعد الوزراء على قنطرة من (الهزار برضه) فإذا استقالت الوزارة وعاد هيكل إلى مقاعد الشيوخ ، فقد عاد إلينا هيكل المتحرر من كل قيد ، يتمايل فى مشيته على طريقة من البساطة لايسع معها رائيه من غير عارفيه ، أن يعتقد أن مثل هذا الرجل يمكن أن يكون « هيكل » . . الذى تلتقى مدينة النور المدنى بمدينة النور الدينى فى ترديد اسمه من يوم عرض لروسو قديماً .. إلى يوم عرض لحياة محمد حديثا .

مقـــارنات :

فلنسجل لهذا الوزير الصحفى هذا الروح الديموقراطى ، ولنرجع الفضل فيه إلى روح الأديب الفنان الذى يعيد إلى الأذهان — لولا الفوارق فى قدر الفنون بين مصر وأوربا — قصة بدرڤسكى الذى رفعته شهرته كموسيقى عبقرى إلى رياسة الدولة فى پولونيا .

وتلمح بعض أوجه الشبه أيضاً بين هيكل وهريو — ومعـــذرة لرئيس الشيوخ السابق صاحب الحق الأول فى هذا التشبيه — فسيو إدوار هريو رئيس مجلس النواب الفرنسى عرف بالأدب قبل السياسة ، وكذلك عرف هيكل ، وكتب هريو بحرارة كتابا عن « بيتهوفن » وكذلك كتب هيكل بحرارة فصلا من كتاب له عن « بيتهوفن » . . وهيكل وهريو ليسا من الأناقة فى شىء . بل لعل البذلة الجديدة تقدم إذا لبسها أحدهما وتركها على الله ، أو مشى هيكل « يخب فيها » غير معنى بها .

هيكل الصحفى والسياسى :

وقد يطيب لك أن تعرف شيئاً عن هيكل الصحفى والسياسى ، فبالصحافة والسياسة أصبح هيكل شيخاً ووزيراً .

ولست أشك فى أن هيكل اجتاز دراسته الابتدائية بالغش أو بمعجزة ، لأن سقوطه فى مادة « الخط العربى » لايحتمل الجدل ولو عقدوا له فيها الآن أيسر امتحان . فالصحافة لم تعرف حتى اليوم أردأ من هذا الكاتب خطاً ، وكان له فى جريدة « السياسة » عمال اختصاصيون فى قراءة هذا الخط اختصاص « على إبراهيم » فى فتح البطن .

وقص علىّ مرة صديقى الأستاذ المازنى أنه كان يرأس تحرير « السياسة » وكان هيكل مديراً لها وسافر هيكل إلى لبنان ، ومنها أرسل خطاباً خاصاً إلى

المازنى ، وحاول المازنى عبثاً أن يقرأ منه عبارة بل كلمة ، فلم يسعه إلا أن يعتبره « مقالا » وأن يأمر العمال المتخصصين لهيكل بصف الخطاب حروفاً ، فصفوه وطبعوا عليه تجربة منه « بروفا » أرسلوا بها إلى المازنى فقرأ الخطاب مطبوعا كما يقرأ المقال ، وبهذا وحده عرف مافيه ، وإن كان قد أشرك فى هذا الخطاب — وعلى الرغم منه — جماعة العمال فى قسم التخصص الهيكلى .

ويعتبر هيكل أسرع كتاب المقالة فى مصر ، أو من أسرعهم على الأقل ، فقد كان يكتب الفصل السياسى الذى يعبر به عن رأى حزب ، ويقلق به وزارة ، فى زمن لايعدو نصف الساعة وكان يحلو له أن يكتب فى جو هادىء .

وهيكل السياسى معروف بالمرونة ، فان كان للمغفور له يوسف الجندى ناب برلمانى ، ولرئيس الشيوخ السابق نابان ، فلهيكل فى السياسة أنياب ، وفى وسع الرجل — وقد حدث — أن يكون عدوك اليوم وأن « يطويك » غداً فإذا أنت العزيز الغالى و « ننوس العين » المحبب .

وهيكل السياسى بعيد النظر هادىء الطبع مقدر للعواقب ، أما هيكل فى المسائل الخاصة والعادية ، فيندفع كثيرا اندفاعاً عاطفياً ، وتطغى فيـــــه الطلاقة على الحذر . .

هيكل فى المجلس :

وهيكل الذى عرفه قراؤه معارضا صحفيا لا يشق له غبار ، قد عرفه النقد معارضا برلمانيا ذا أثر لاينكر ، ودعك من هيكل كخطيب يعتلى المنبر ويؤثر فى النفوس ، ويستهوى العقول ، فليس لهيكل بلاغة الارتجال ، وليست له روعة الالقاء ، وليس لإشارته أثر « شيشرونى » ، وليس لمخارج حروفه حلاوة خاصة . . وليس له — وهذا هوالمهم — عينان قويتان فى إرسال النظرات النفاذة ذات الإيحاء ، لأن الرجل — من كثرة ماقرأ وكتب — يشكو دائما من عينيه

ويحجبهما فى كثير من الأحيان بمنظار ، ليس له إذن من مميزات الخطيب نصيب، ولكن له عوضاً عن هذا كله فى قوة العارضة ، وسلامة المنطق ، والاعتداد بأدلته والإصرار عليها ، وعدم مبالاته الضجيج الذى يثيره خصومه من حوله ، واتساع أفقه الذى يمكن له من القانون والأدب والفن والاجتماع، فينتقى من أيها ما يصلح للجو الذى يلقاه ، وشجاعته التى أتاحت له يوم كان للوفديين أغلبية مخيفة متماسكة أن يواجهها وحده ، وينازلها فى الميدان الذى اختارته ، فما تردد وما نكص وما أضاع عليه الغضب فرصة ، وما أفسدت عليه مناورات خصومه خطة .

هذه كلها ميزات فى الرجل لاتنكر ، أما هيكل كوزير فله « تكتيك » خاص ، يلقى الأجوبة على الأسئلة فى سرعة وخفوت من باب « سد الخانة » ويحاول أن يحمل المستجوبين على التنازل والتساهل بطريقة « الهزار » حيناً والاتصال الشخصى خارج القاعة حينا ثانياً ، والانتقال إلى جواره لإرضائه حيناً ثالثاً ، فإذا فشل فى هذه المناورات كلها أعلن أنه مستعد للنقاش .

أما هيكل المعارض.. فعد إلى المضابط.. واقرأ له موقفه من مشروع قانون منع التجسس ، وكيف أنقذ حرية الرأى من خطر لم يكن — أغلب الظن — مقصوداً ، حين نصت المادة الثمانون من القانون على عقاب كل من أذاع عمدا أخباراً أو بيانات أو إشاعات كاذبة أو مغرضة ، أو عمد إلى دعايات مثيرة ، وكان من شأن ذلك إلحاق الضرر بالاستعدادات الحربية أو إلقاء الرعب بين الناس أو إضعاف الجلد فى الأمة .

نبه هيكل إلى أن امتداد هذه الأحكام إلى أيام السلام مخالف للدستور ، وهدم لأقدس أركانه .. ركن حرية الرأى التى تجيز للكتاب الدعوة إلى السلام فى أيام السلام ، بل تفرضها عليهم فرضا .

أبلى يومها هيكل وحده بلاء حسنا ، فحول المجلس كله إلى صفه ، وأدخل على المادة التعديل .

وكذلك يذكر لهيكل موقفه من الدفاع عن مدارس التجارة الراقية التى أنشأها ، وصرع يومئذ الدكتور مدكور بكل ما جر وراءه من كلمات لاتخلو من قوة ، وصوت لايخلو من رنين ، وحملة لاتخلو من شباب .. يومها « مسح » هيكل مدكوراً إن جاز للنقد أن يستخدم كلمة « المسح » .

هذا هو « بعض » من هيكل ذى الأنياب ..

وأخـــيراً :

أما هيكل الآن فمعارض .. ومعارض كبير .. ولـكن على حذر .. ينتقى العبارات التى تؤثر ولا تثير ، ويعمل للعواقب ألف حساب وحساب .. ألم أقل لك إنه شيخ ذو أنياب وأنياب .

٢١ - محمد حلمى عيسى باشا

محمد حلمى عيسى باشا ...

رئيس حزب الاتحاد سابقاً .. ورئيس حزبى الاتحاد والشعب بعد أن اندمج أحدهما فى الآخر ، وتسميا باسم « الاتحاد الشعبى » مع أنهم لو عهدوا إلى أدوارد قصيرى بك مثلا باقناع صديقه السيد وحيد الأيوبى بنحت اسم واحد من اسمى الحزبين ، لكان فى وسعه أن يسميه لهم « الاتحاشع » أو حزب « الشعبياد » على طريقـــة نحته « الاحتقلال » من كلمتى « الاحتلال » و « الاستقلال » ولـكن القوم تهاونوا ولم يفعلوا .

القوم ؟ ! ! لـكن .. من القوم ؟

أعرف من البارزين فيهم صديقى الأستاذ عبد الرحمن البيلى الذى كان يؤيد السعديين فى معظم الأحايين حباً فى أحـمد ماهر فقط ، وزهدا فى « الاتحاد »

و « الشعب » معا . . وعرفت بين الشيوخ ثلاثة أو اثنين فى إحدى الدورات من « العسكر القدام » كتبت السكرتارية أمام أسمائهم اسم « الاتحاد الشعبى » .

عين شيخا بمرسوم مارس سنة ١٩٤٢

إذن لم يعد هناك حزب بالمعنى الذى تفهمه من الأحزاب ، وانطوى بساط ذلك الماضى الذى سيطر على البلاد مرتين ، وأذاق المواطنين من العجائب لونين ، لونا اتحاديا نشأتيا ولونا صدقيا إبراشيا . . فأين كان حلمى عيسى يومئذ ؟ وما صلة القربى التى تربط بينه وبين هؤلاء المرحومين الأحياء حتى يرث وحده هذا المجد « العريض » ؟!!

المسألة أن الرجل منوفى طولا وعرضا ، ولحماودما ، وهو كمنوفى شاطر فى مادة الحساب ، وحسبته مضبوطة تماما . . فلوأنه انضم إلى حزب آخر لغدا بين الكثرة واحدا منهم ، إن جاءته الوزارة مرة بعدت عنه مرات ، وإن أقبلت عليه شهرا أدبرت عنه سنوات ، أما ببقائه فى الميدان رافعا راية ذلك التراث فقد أصبح « زعيما » لحزب ما ، فى مكان ما و« بس » ، فكلما دعا داعى الائتلاف مثّل حزبه وزيراً فى وزارة الائتلاف ، وكلما ثار الخلاف بين الوفد وخصوم الوفد ، ضمه هؤلاء الخصوم إلى الحكم باسم الحزب ، وكلما دعى زعماء مصر إلى استشارتهم ، كان « زعيم » هذا الحزب بينهم . . وكل هذه شطارة من غير شك .

شخصيته :

وحلمى باشا مهما تختلف الآراء عليه . . رجل طيب وما بينه وبين الله عامر ... ومئات البيوت التى تجد الآن القوت ، مدينة فى قوتها إلى حلمى ، فهو خَيِّرٌ بدمه ، لايلى الحكم إلا استجاب لكل ذى حاجة وأشبع كل ذى مسغبة ، ثم هو الوزير الأوحد الذى يعين المحتاجين فى الوظائف ، ولا « يحتسبهم » عليه ، ولا يسخرهم « حزبياً » للدعاية له ، ولا يشغلهم فى التجسس على خصومه ، إما لأنه يفعل الخير لوجه الله ، وإما لأن حزبه لا لجان له ، ولا أهداف تدعوه إلى اصطناع الأنصار .

وحلمى باشا طويل عريض ، أقرب إلى العمدة منه إلى الوزير ، لايبالى الأناقة كثيراً ، وإن كان — ياأخى — يحب الجمال جداً ، ومكانه المختار شرفة « الكونتنتال » وقل أن يقصده محتاج ويرده خائباً .

حلمى شيخا :

أما حلمى باشا العضو فى مجلس الشيوخ فشيخ « مش بطال » . . تكلم مرة أو مرتين من غير أن يخوض غمار الخلاف العنيف ، وهو فى كلامه ليس بخطيب المنابر ، ولا بأنيق العبارة ، ولكنه طبعا يعرف كيف يعبر عما يريد ، فهو من رجال القضاء والإدارة والحكم ، وله ماض ، وفيه خبرة . . وإن كان غير ممتاز ولا « لماع » .

وحلمى عيسى إذا لم يحَب . . لايُكره ، ولست أرى فيه مايدعو إلى الحب أو إلى الكراهية .

وأخيراً :

وأخيرا فحلمى باشا يملك أكثر من نصف الألف من الفدادين بريئة من

الديون ، ويحيا حيـاة هادئة معقوله لا شح فيها ولا إسراف . . ولا أعرف له « شغلة » غير عنايتـه بالزراعة فى « البلد » . . وعنايته « بأيه الأخبار » فى « الـكونتنتال » وتتبعه بوصلة السياسة . . انتظاراً للوزارة .

أما أخلاقه فطيبة فى مجموعها ، لا يعرف « مقالب » الساسة ولا « يشنع » بخلق الله . . ولا يجهل اتجاهات الفـكر فى مصر .

٢٢ — محمد شفيق باشا

نعم . . لم يُعد المرسوم الأخير معالى محمد شفيق باشا . من فرط التزاحم على تعيينات الشيوخ ، أو من كثرة الاعتبارات التى اكتنفتها ، ذهب شفيق ضمن من ذهبوا كأكباش فداء ، فحرم المجلس من مواهبه شيخاً ، ومن نزاهته وكيلا

وأنا أقرر كناقد أن شفيق فى ميزانى هو شيخ مصر الأول أو هو (الشيخ رقم ١) فى حياتنا البرلمانية ولو أن الأقدار أتاحت للبرلمان عشرين شيخاً ونائباً من طراز هذا الرجل لخطونا بالحياة البرلمانية خطوة واسعة .

وشفيق يفاخر بأنه جاوز الرابعة والسبعين ، وأنه ينام فى العاشرة من المساء ويستيقظ فى الخامسة . ويدهش للمصريين أن يرسلوا سياراتهم إلى «الجاراجات» للـكشف عليها ، ولا يرسلون أنفسهم «للمعاهد الصحية والطبية» ليعرفوا حقائقهم ، ويقص عليك قصة طريفة ، خلاصتها أنه طوف بالإخصائيين فى مختلف فروع الماكينة الإنسانية ليعرف ما به من نقص ، فكلفه هذا الطواف ٤٤ جنيهاً وكذا من القروش وكذا من المليمات ، واطمأن تماما لأنه لم يجد إلا إخلالا تناهى فى البساطة بين الـكريات الحمراء والبيضاء التى تحارب داخل الميدان الإنسانى .

الشيخ المناكف :

وبين الشيوخ المحترمين طائفة يطيب لى أن أسميها « طائفة المناكفين »

وقد عقدتُ لواء الزعامة عليها لمعالى « المنا كف الأعظم » محمد شفيق باشا ، وهو رجل « شغال » بحق ، وجامع بين « الأستاذية » فى دقة بحثه وسعة معارفه ، و بين «التلمذة» فى احتضانه الكتب والمذكرات ، و إكبابه على استذكارها فى البيت والسيارة — تخميناً منى — وفى ردهات المجلس وقاعته — يقيناً — و إذا كان الرسام قد رأى الطربوش « مزحلقاً » إلى الخلف فوق رأس الشيخ ، فجرت الريشة بهذه « الزحلقة » التى تراها ، فهذا الوضع حالة من حالتين ، أما الأخرى ففيها يخلع الشيخ طربوشه فيكون هذا منه بمثابة دق الجرس فى الأقسام الداخلية فى المدارس لدعوة التلاميذ إلى «ساعة المذاكرة» ومحال — وقد خلع الشيخ طربوشه — أن يرفع عن المذكرات رأساً «أصلعها» التفكير وأطار منها الشعر «مزاج عصبى حاد» يتجلى فى طريقة الشيخ إذا ناقش وفى «قفزة» عند إحدى كتفيه تعاوده بين الحين والحين ، وكان يزداد تجلياً إذا اختلف مع الرئيس السابق فهاجمه ، ثم عاد فامتنع عن الكلام آخذاً على خاطره ، ولكن ممن هذا الأخذ على الخاطر ؟ أمن الرئيس ذى الناب الأخضر — وقد كان يعلم أن شفيق باشا طيب القلب ، وأن غمزة ماكرة تثيره داخل القاعة فيغضب وتتخلص الرياسة من عنف معارضته وقوة عارضته ، وكلمة طيبة خارج القاعة مع « حركة تطويق » من ذراع الرئيس على كتف الشيخ يربّت على ظهر شفيق الطيب كافية لإرضائه .

الشيخ الذى أبطل تعيينه بمرسوم ولم يعده المرسوم الأخير

بين المظهر والمخبر :

وشفيق باشا — على فكره — عملاق غير معنى بشكله أو هو « ليس فى الفورم» كما يقول هواة السباق . عنيد حتى فى الحرص على أزياء ماقبل الحرب ، فالسترة له تصلح معطفاً للويس فانوس ، وتصلح لحافاً لابراهيم سيد احمد . والرجل يمثل الأمانة فى النيابة ، فيطالع مطبوعات المجلس كلها — بما فيها المضابط — لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا درسها ، وجاء المجلس وهو أتم استعداداً للنقاش من استعداد الطالب النجيب لأداء الامتحان .

وتبدو مظاهر « التلمذة » الوفية النابهة ، على وجه شيخنا المناكف ، وهو يصغى إلى أى خطيب يلقى بيانا يرى الباشا نفسه فى حاجة إلى فهمه ، حتى لقد رأيت الشيخ يصغى أكثر من مرة هو ورجال المضبطة إلى صاحب اللويسيات لالشىء إلا لأن لويس كان يذكر يومها البنك الأهلى وغطاء الذهب.. ويسوق أرقاما لا كلاما .

ميزاته ومفارقاته :

وشفيق باشا شيخ عريق فى «المشيخة» وهو — إذا لم تخنى الذاكرة — من أعضاء «الدفعة الأولى» الذين عينو فى أول مجلس للشيوخ فى مصر وقضى بضع سنوات فيه ، وله أثر محمود فى مضابطه .

وشفيق باشا يغار على مواد الدستور وأحكام اللائحة غيرة أدنى إلى مايسميه الناس « غراما » فاذا « تنحنح » الرئيس ولم يجد شيخنا المناكف نصاً على «النحنحة» فى اللائحة ، وقف ينادى بأعلى صوته : «حاسب ياريس.. » ويؤخذ الرئيس ثم يبهت الشيوخ ، ثم تتبين أخيراً أن الأمر يشبه غيرة المحب على ماتوهمه غدرا من حبيبه ، ولا يعدو حسابا عسيرا على (نحنحة) يسيرة .

ومن ميزات شفيق باشا أنه لايتهيب الرد على أى خطيب ، ولايتردد فى إبداء الرأى ولو خالف الإجماع . .

وكنت أحسب الرجل — كعصبى — أول ثائر على نقداتى البرلمانية التى لا تخلو أحيانا من إيجاع ضاحك أو من ضحك موجع ، فخيب الشيخ حسبانى ، وانضم إلى طائفة « البسطاء » الذين يحسنون الظن بهذه النقدات ! ! ولعله لم يتفق مع رئيس المجلس السابق إلا فى هذا « الرأى الخاطىء » .

ولشفيق باشا بعض المفارقات ، منها إذا ماطلب إليه الرئيس أن يعمل معروفا ويسكت ، أرسل صيحة تدوى فى جنبات المجلس « ازاى ياسيدنا أسكت .. أمال انتم جايبينا هنا ليه ؟ » ، ومنها أنه أراد أن يطلب الكلمة يوماً فى « الرز المبيض » فضاع صوته بين ضجيج الشيوخ ، فلم يجد وسيلة يلفت بها الرياسة غير التصفيق بيديه تصفيقا حادا — كطارق بيت أراد أن ينادى سكان الطابق الخامس منه — فبهت الشيوخ ودهش الرئيس وقال فى عنف « عايز إيه ياشفيق باشا ؟ » وأجاب شفيق فى عنف أيضا « طالب الكلمه ياسدنا » فقال أحد الشيوخ (أنا افتكرته طالب واحد سكر زياده) .

وبعد فقد ولى شفيق باشا الرياسة أكثر من مره — كوكيل للمجلس وقع عليه اختيار الأحزاب جميعا — وأوجز وصف لإدارته الحازمة الصارمة النزيهة النيرة العصبية ، أن الجلسة كانت تمشى إلى غايتها كما تمشى الساعة « الكرونومتر » تماما .

ومحمد شفيق وزير قديم ، ولى وزارة الزراعة فى وزارة يوسف وهبه فى ٢١ من نوفمبر سنة ١٩١٩ ووزارتى الأشغال والحربية فى نفس الوزارة وفى وزارة محمد توفيق نسيم التى شكلت فى ٢٢ من مايو سنة ١٩٢٠ وفى وزارة عدلى يكن التى شكلت فى ١٧ من مارس سنة ١٩٢١ .

٢٣ — محمد على علوبه باشا

كنت أسمى هذا الرجل كلما أقبل « حضرة العمـــــده » ، فهو بشكله واعتداده واتزانه ومحافظته يعيد إلى ذهنى صـور حضرات العمد ذوى المكانة فى بعض أقاليم صعيدنا ، ولعل فى وسعك أن تسميه أيضـا (المعلم علوبه باشا) اذا تصورته فى ثياب بلدية وفوق رأسه عمامة، وصناعته المقاولات أو الصيرفة . .

أبطل تعيينه بمرسوم ولم يعد

أسمر اللون، أوضارب إلى السمرة، أميل إلى القصر و إلى « السمنة » .. تعرف الصعيدية فيـه من السحنة ، وتعرف الرجعية من الزى ومن الوقار ومن التزمت ، وتعرف الاعتداد من طريقة الإلقاء . . وتعرف التهذيب من سماحة اللقاء . . وتعرف « بعض » الصراحة من « قلة » المراوغة . وتعرف بعض الصلابة من ضخامة الدماغ .

علوبه الرسـمى :

والآن أتولى تقديم علوبه باشا بادىء ذى بدء تقديما « رسمياً وتاريخياً » .

حصل الشاب محمد على علوبه على الليسانس من مدرسة الحقوق الخديوية فكان أول الناجحين فاشتغل فى المحاماة بأسيوط . . وعاصمة الصعيد غنية بالمحامين البارزين ، وفى بيئتهم « يتحمص » المحامى الناشىء وتبرز مواهب

الموهوب ويزرق ناب كل ذى ناب . . وفى سماء هـــذه البيئة أضاء نجم المحامى الشاب . . ثم تلألأ حتى رأى أن فى ميدان المحاماة عن مصر المسكينة مجالا أرحب ، فانضم إلى الحزب الوطنى ، ثم افتتح لنفسه مكتباً آخر فى القاهرة ، بعد أن كانت شهرته قد سبقته إليها ، وفى سماء هذا الحزب زاد نجمه لمعاناً ، فانضم إلى لجنته الإدارية عضواً فيها ، حتى إذا جاءت انتخابات الجمعية التشريعية تقدم إليها مرشحاً من الحزب الوطنى فنجح فيهـا وبرز . وعرف من ذلك الحين أن مستقبلا سياسياً ينتظره كمجاهد ، فانتظر هو الآخر وترصد .

فلما قام الوفد المصرى انتخب محمد بك على (اسمه يومئـذ) عضواً فيه . . ولما حدثت الحركة الانفصالية تبع الخارجين على سعد فاستقال فى سنة ١٩٢١ وفى ٣ من ابريل سنة ١٩٢٢ عين عضواً فى لجنة الدستور ، وفى نفس السنة اشترك فى تأسيس حزب الأحرار الدستوريين وفى سنة ١٩٢٥ عين وزيرا للاوقاف فى الوزارة الزيورية ، وندب وزيراً للاشغال ، ثم استقال منها مع زملائه الوزراء الدستوريين ، وفى سنة ١٩٢٦ انتخب عضواً فى مجلس النواب ، وظهر اسمه فيه بوصفه رئيساً للجنة الأوقاف . ولم يعد إلى المنصب الوزارى إلا فى سنة ١٩٣٦ حين وقع عليه اختيار صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا وزيرا للمعـارف فى الوزارة الماهرية الأولى ، ثم عين عضوا فى مجلس الشيوخ ، وفى ديسمبر سنة ١٩٣٧ انتخب نقيباً للمحامين وفى ١٨ من أغسطس سنة ١٩٣٩ اختير للمرة الثالثة وزيرا . . وزير دولة للشئون البرلمانية فى مجلس الشيوخ فى الوزارة الماهرية الثانية . .

علو به الأهلى :

أما علو به (الأهلى) لا (الرسمى) فله أيضاً تاريخ . . تاريخ كفاحه السياسى كوطنى قديم وكخصم للوفد من ســـنة ١٩٢١ . وتاريخه فى المحاماة تـكفى الإشارة فيه إلى اختياره نقيباً للمحامين فى سنة من السنين . ولـكن اسمه

تردد أكثر من مرة فى السنوات العشر الأخيرة ، ففى سنة ١٩٣٠ كان محامى المسلمين فى فلسطين أمام لجنة عصبة الأمم فى قضية البراق . وفى سنة ١٩٣٢ إذا لم تخنى الذاكرة ، حضر المؤتمر الاسلامى فى القدس فانتخب وكيلا له ، وفى سنة ١٩٣٣ ألفت اللجنة التنفيذية للمؤتمر وفداً للذهاب إلى الهند برياسة السيد أمين الحسينى وعضوية محمد على علوبة باشا فسافر الاثنان إلى العراق والهند . ولما عاد حضر المؤتمر الإسلامى الثانى الذى عقد فى بلودان فى سنة ١٩٣٧ وكان وكيلا له ، وسافر إلى لندن فى سنة ١٩٣٨ من أجل قضية فلسطين ، وساهم بجهد غير يسير فى بعض الجمعيات التى قامت فى مصر تبغى الإصلاح .

وهذا هو الجانب (الأهلى) من الشيخ .

شخصيته :

وللشيخ شخصية من غير شك ، ولكنها شخصية (ماسكة شويه) أو لايتفجر ماؤها كما يقول رجال الأدب .

وهو طموح إلى الزعامة من غير شك . ولكن تعوزه (اللحلحة) لكى يمشى فى الطريق إليها فى يسر أو فى غير عناء وتعوزه الدعاية أيضاً .

صوته ملىء ، وجهورى ، ويؤهل صاحبه للخطابة وللهجوم ، ولكنه غير مؤثر جدا ولهذا لاينتفع به علوبه باشا كشيخ كثيراً .

مزايا ومساوىء :

ومن فضائل الرجل تمسكه بأهداب الكرامة .

وقيل إنه استقال من حزب الأحرار لأنه سمع أن محمد محمود باشا لايستلطفه ، ولكنه ظل وفياً لهم حتى اليوم ، فلما ولى دولة صدقى باشا الحكم وخاصم الدستوريين وأراد أن يضم إليه علوبه باشا بوصفه خارجاً عليهم أبى واعتذر .

والوطنية عند علو به لم تضعف إلى اليوم .

وعيب علو به باشا أنه متردد و بطىء فقد يتفق معك على مشروع ، ثم يخطو فيه ، ثم ينثنى عنه و ينسحب منه فى اليوم التالى ، و يعلل أنصاره هذا بأنه يعمل لكل مسألة ألف حساب .

الشيخ علو به :

وعلو به باشا الشيخ منتج فى اللجان ، ولكنه غير مكثر ولا مسرف فى الكلام ويحسن علو بة باشا الإصغاء إلى مايقال، فاذا بدا له رأى من الآراء ، طلب الكلمة وأصر عليها ، ثم مشى يحملها إلى المنبر ومن ورائه يلقيها على مهل فى صوته الجهورى، غير مبال أن يصادف رأيه هوى المجلس أولا يصادف من المجلس هوى ، فإذا قوطع ازداد إصرارا ولم يبال المقاطعين ، وارتفع منه الصوت فى لهجة العنيد الواثق ، فيضطر الشيوخ إلى الإصغاء .

ويبدو أن رئيس الشيوخ السابق كان يعرف أن شاكوشه وجرسه لا يصلحان فى تهويش علو به باشا ، ولا أذكر أن الرياسة لجأت إلى هذا (التهويش) مع سعادته يوما من الأيام .

نقـــد :

ولعلو بة باشا بعض (التقاليع) .. ولعلها (تقاليع) فى موازيننا نحن .. ولها أساس فى ميزانه هو ..

لوحظ (مرة واحدة) أنه أيد بحرارة شاباً ناشئا ، يرأس جماعة سياسية ، يعتمد فيها على الشباب .. فنزول علو به باشا إلى تأييد مثله ، وظهوره بمظهر العضو فى هذه الجماعة — وهو الذى لا تشرفه رياستها — تصرف لفت الأنظار فى حينه، وأثار نقدا .. أما أنا فلم أثر هذا النقد ، بل رأيت فى التصرف «سياسة معينة ذات مقصد»

معين » لأن هذا الشاب لقى فى ذلك الحين بعض المعونة و بعض العطف من رفعة على ماهر باشا نفسه ومن دولة صدقى باشا ، ومن كثيرين من الساسة البارزين فلا محل للوم أحدهم دون الباقين .

وأخيراً نخرج من هذا كله بأن علوبه باشا رجل عامر ، وشيخ يؤدى للحياة النيابية واجبها ، ومواطن يؤدى للوطن حقه ، وصعيدى يعرف لنفسه كرامتها .. أليس هذا كافياً ؟ بلى .. إنه لكاف .

٢٤ — محمد نجيب الغرابلى باشا

أعتقد أن الغرابلى من الساسة الشعبيين الذين لا يحتاجون إلى تعريف .. فقد عرفته أنا يوم عرفته أنت .. ابناً للثورة . وشاعراً مغرداً فوق أغصانها .. وخطيباً مضرماً نار الحماسة بين فتيانها .. ووزيراً من وزراء النهضة .. اختاره سعد يوم لم يجل بخاطر أحد أن الزعيم الجبار الذى انتقى لوزارته محمد سعيد وتوفيق نسيم والأساطين .. سيلقح هؤلاء «التخاين» بصاحب المعالى محمد أفندى نجيب الغرابلى المحامى الشاب فى بلد « السيد البدوى » !!

اختاره سعد وزيرا .. ونفر الشعب إلى بيت الأمة خفيفاً . وعاد سعد من القصر الملكى فناول نجيب أفندى .. مرسوماً ، ليتلو على الشعب أسماء وزارة الشعب .. فلما بلغ نجيب اسم نجيب .. اهتزت فى يده الورقة .. واحمر منه الوجه .. فتعالى هتاف الشعب .. ودالت بهذا الاسم دولة الباشوات الذين احتكروا الحكم .. والأتراك والمستتركين الذين أبعدوا الفلاح طويلا عن كراسى الوزارة .

ذلكم هو نجيب الغرابلى الذى عرفته يومئذ وكنت طالباً .. فاذا كان طالب اليوم لم ير غرابلى الأمس .. لأن هذا الطالب كان يومذاك «فى اللفه» .. فانى أقدم

له الغرابلى الحالى .. رجل ملىء لا هو مستكرش ولا ضامر .. ولاهو قصير ولا فارغ .. أحمر الوجه .. حـديدى البصر .. وسيم التكوين برغم السنين. أشيب شعر الرأس والشارب كأنه فى الثمانين .. نظيف رزين .. يبين عليه إن أنت تأملته أنه معتد بنفسه مطوى عليها .. فى عينيه وميض الأسى على طموح لم يتحقق .. وفى قلبه شباب مشبوب لم يطفئه المشيب .. وفى مجموع حركاته استسلام غريب لما جرى به القدر الرهيب .

كان شيخا معينا وأبطل تعيينه بمرسوم ولم يعد

وأخيرا قاتل الله الحزبيـة وما صنعت بالرجل .. وقاتل الله الجد العاثر، فاذا كنت لا أقلب من هذا الماضى الحزين صفحاته المطوية ، إيمانا منى بأن قرائي كلهم يعرفون ما انطوت عليه ، فليس فى وسعى أن أمضى إلى غايتى من الحـديث ، بغير أن أقف على هامش هذه الصفحات لحظات ، أسجل فيها أن النهاية التى انتهى إليها الغرابلى ، ليست نتيجة سليمة للبداية التى بدأها كمجاهد ثائر .. فهو يستحق خيراً مما صار إليه مهما تختلف الآراء عليه .

الغرابلى الشـيخ :

ونأخذ الآن بخناق الغرابلى الشيخ .. السابق .

والنقد الحر لايتردد فى القول بأن الغرابلى شيخ محترم حقا .. وشيخ عامل أفاد المجلس أكثر مما أفاد من المجلس . وهو يعتبر فى الطليعة من حيث حسن

الإصغاء إلى كل ما يقال . . تحت القبة . . حتى المشادات التى تثور بين الرئيس وصديقى لويس فانوس . . و « حضرات المضبطة » و « أحتج على دخول البوليس » و « لتشهد الصحافة وليسجل التاريخ » لا أحسب الغرابلى فاتته كلمة من هذا « القاموس » .

كان المغفورله يوسف الجندى ينافس الغرابلى باشا فى حسن الإصغاء ، ولكن يوسف كان يصغى إلى المهم ، أما الغرابلى فيصغى للكل . . وهو يحسن الإصغاء برغم بعد مكانه عن المنصة ، فاذا لم يتبين ما يقال ، صاح من مكانه « مش سامعين » وعلى ذكر المغفور له يوسف الجندى أذكر أنه كان — برغم الخصومة السياسية — يحترم الغرابلى باشا ، ولا يذكره إلا مقرونا بكلمة « معالى الغرابلى باشا » مع أن الغرابلى لا يحمل رتبة الامتياز التى تعطيه حق الاحتفاظ بهذا اللقب وهو فى خارج الحكم كشفيق باشا مثلا أو عبد الحميد سليمان باشا .

والغرابلى ، كشيخ ، ذو أثر واضح فى القاعة وذو جهد مذكور فى اللجان .

ففى القاعة يحرص على حضور الجلسات ولا يتغلب عليه أو ينافسه فى الحصول على ٩٩ ٪ من درجات المواظبة غير زميلنا أنطون بك الجميل .

والغرابلى لا يتردد فى اعتلاء المنبر كلما رأى فى اعتلائه أداء لواجب أو إبراء لذمة . . وهو كالعهد به لايبالى أن يكون الرأى الذى يبديه ذا هوى فى نفوس سامعيه أو خارجاً على هواهم . وهو إذا تكلم كان فصيحاً . وكان جهورى الصوت حلو الجرس . . قوى المنطق ، هادئاً متزناً إلا إذا غضب . . كما قلت لك . . فان الطبع يغلب التطبع ، فيعنف الشيخ ويسرع ويتدفق . . ثم يذكر ما أخذ به نفسه من الوقار فيصدها عن هذا التدفق .

والغرابلى باشا رجل نظيف . . وهو لهذا غير مثر . . يجىء الشيوخ — كلهم أو جلهم — فى سياراتهم ، ويجىء هو كما أجىء أنا سيراً على القدمين .

والغرابلى معروف بالتقى والاستقامة ، ولكنى لا أعتبره فى الشطر الأخير من

حياته متطرفاً كما كان فى شطرها الأول ! ! وأرجو ألا تظن بى التناقض حين أثبت له الثورة وأنفى عنه التطرف ، فهو لايزال ثورياً من حيث عاطفته المشبوبة ، وقلبه الفتى ، ولـكنه لم يعد متطرفاً من حيث تصرفه الحزبى داخل القاعة ، فالرجل « قرف » برغمه . . وهو مستقل من حيث لونه الحزبى ، وأنا أفهم من الاستقلال عدم تقيد المستقل برأى أى حزب ، فـكان المفهوم أن يقر الغرابلى الوفد حيناً ، والحكومة حيناً ، وأن يخالف الاثنين حيناً .. وأن يكون على كل حال أميل إلى صفوف المعارضين دائماً . . لو أنه كان متطرفا ، ولـكن الذى لاحظه النقد أن الخصومه السياسية بينه و بين الوفد ، تحفر فى نفسه أخاديد من التأثر ، تبدو واضحة عند كل تصويت يطرحه الوفديون ، فلا يتردد الغرابلى فى مخالفتهم ، وقد يكون مؤمناً دائماً بأنه على حق فى هذه المخالفة ، ولـكن هذا لا يمنع النقد من تسجيل هذه الظاهرة .

ولا يزال شيطان الشعر يتراءى لى راقصاً فى حدقتى عينيه ، ولـكن شيطان باشا غير شيطان أفندى على كل حال ، ولهذا لم نسمعه شادياً غير مرات فى سنوات !

٢٥ — محمود شكرى باشا

لا أحب أن أطيل القول فى الشيخ المحترم محمود شكرى باشا لأنه هو نفسه لا يحب الإطالة ، وإن أطال تصبب من وجهه الملىء « الملغد » الأبيض الأحمر كثير من العرق .

وشكرى باشا يجمع بين النقيضين : « البدانة والنشاط » وفيه حيوية لاتنفد ، ولذهنه صفاء لا ينطفىء ، ولمنطقه قوة لا تقاوم ، لا بلاغة عنده ولـكنه قادر على أن يعبر عما يريد فى بساطة ، « ينحمق » أحيانا فيحمر منه الوجه ،

ويبدو فيه عنف ، وهو على الجملة محترم الرأى من المعارضين والمؤيدين على السواء .

نيته :

وكنت أضع هذا الرجل فى الصف الأول إلى جوار شفيق ، ولكنه وقف فى وزارة سرى باشا موقفاً حمل بعضهم على الاعتقاد أن الرجل يؤثر الصالح الشخصى ، وأنا شخصياً أعرف أن سرى باشا لم يكن ينتظر من الرجل هذا الموقف وضاعف ألمه أن (شكرى باشا نسيبه) وهذه العبارة سمعتها من دولة سرى باشا يوم كان رئيساً للوزراء وإن كنت إلى اليوم لا أعرف تفاصيل هذا النسب .

شيخ معين فى ٢ يولية سنة ١٩٣٨

مقرر :

وتظهر قدرة شكرى باشا حين يكون مقرراً ، ويدافع عن مشروع مالى أو اقتصادى .. فى هذا الدماغ يظهر طول باع هذا الرجل التركى شكلا والمصرى موضوعاً .. وقد ثار فى لجنة المالية مرة خلاف بينه وبين زكريا مهران باشا ، فأصبح زكريا يؤكد لى كلما زارنى فى القهوة أن شكرى « كاتب حسابات » لا نظير لدقته فى مصر من الشلال إلى البحر ، وزكريا يقصد أن ينفى عن الرجل عمقه الاقتصادى أو المالى ، وأن يقر هذه الدعاية فى ذهنى كناقد ، أما أنا فلا أزال أعتقد أن شكرى واسع الأفق فى عالم المال والاقتصاد والزراعة والحساب .

غير محبوب :

والرجل غير محبوب. فهو فى عمله صارم، وأكثر من حازم ، ولا تعرف الرحمة بموظفيه سبيلا إلى قلبه ، وقد أثرى الرجل ثراء عريضاً ، ولا يزال يحرص على أن أن يجرى اسمه مجرى المثل فى « البخل » . أما أنا فأعتقد أن هذا الذى يسميه الناس بخلا ، ليس هو البخل الذى توحى به الكلمة لغوياً ، وإنما هو وليد دقة الرجل ، فان هو قابل عملاقا سليم الجسم وطلب إليه هذا إحساناً ، فمن حقه أن يمتنع ، لأن العملاق يصلح للشغل ولا يريد أن يشتغل .

كفاية :

وشكرى باشا ركن ركين فى لجنة المالية فى مجلس الشيوخ ، وشيخ عامل تفيد منه اللجان وتفيد منه القاعة، وهو بالإيجاز أحد القلائل الذين يعتز بهم النقد البرلمانى للحياة البرلمانية .

ولى بنك التسليف ، فقال الموظفون « جاى » والآن تتردد الكلمة من موظفى شركة شيلى ومن الدوائر التى يتولى إداراتها ، ويعجبك من هذا الرجل إذا تكلم فى الزراعة ، أن تصغى إليه ، كما تصغى إلى الفلاح الذى يفلح الأرض بيديه ، ويحدثك عن آفات الزراعات تفصيلا ، وبمختلف اصطلاحاتها .

ونحسب فى هذا القدر الكفاية لمليونير يريد أن يعيش فى برجه الذهبى .

٢٦ — محمود غالب باشا

اليوم يجئ دور غالب باشا وزير العدل السابق . . فأذكره فى آخر عهده بالقضاء يوم خيف على قصة « الرجال والسويداء » فبرز من ثنايا الظلام ذلك القاضى العادل يثبت أن فى السويداء رجالاً وأن فى مصر قضاة .

أذكر آخر عهد غالب بالقضاء فأذكر قضية الخطابات المزورة والشابين عزب وخطاب .. وأذكر ذكاء القاضى وهو يحاورهما . وشجاعته وهو لايبالى غير الوفاء للتاج والاستجابة للضمير . . فإذا النور يغمر القاعة، وكتائب الظلام تولى مدبرة ، وإذا الذى كان متهما قد برىء ، والذى كان شاهداً قد أخذ مكانه من القفص !!

من ذلك اليوم — ومهما تصطخب أمواج السياسة وتتلاطم — وأنا أطوى الضلوع على احترام عميق لهذا القاضى الشجاع .

شيخ معين فى ٨ مايو سنة ١٩٣٦

غالب الشيخ :

أما غالب الشيخ . . فرجل هادىء صامت يدخل إلى المجلس وطربوشه معوج فوق رأسه ، ووجهه أدنى إلى العبوس ، وتقاطيعه أدنى إلى التقطيب ، ويأخذ مكانه فى هدوء .

عارض مرة دولة سرى باشا بشأن مسألة رشوان محفوظ باشا ، وكانت لهجة غالب يومئذ عنيفة وسريعة . . ودليلا على أن الرجل إذا « انحمق » فقد بعض السيادة على أعصابه . . ولكن الأيام ما كادت تتوالى معدودة على الأصابع حتى تم الوفاق بين السعديين ، والوزارة ، واختير غالب باشا وزيراً ، فانتقل إلى مقاعد الوزراء .

وغالب باشا طلق الحديث ولكنه عصبى المزاج ، حاد الطباع . . لايطيق

أن يعارض فيما يعتقد أنه الحق ، وهو ميراث قديم من القاضى الذى ظل طول حياته يزن الأمور ، ويحكِّم الضمير ، ثم يصدر الحكم بغير معقب عليه ولارادَّ له ، فالانتقال بهذا الرجل من ذلك الجو إلى قاعة برلمانية تقوم على الكر والفر البرلمانيين ، يتطلب مرونة تعوز « غالب » .

وغالب فى وزارة العدل كان مستريحاً فى مكانه ، أكثر من غالب يوم كان وزيراً للمواصلات . . كانت الوزارة فنية ، وكان الرجل يبذل جهده ليلم بها ، وكان يستعين فى جلسات الاستجوابات والميزانية بكبار موظفى وزارته ، ولكنه كان يحرص على كرامته حتى لايقال إنه غير فنى ، فلا يدع لهؤلاء الموظفين متسعاً للردود ، بل تتلقاها أذناه من أفواههم الهامسة . . أو تقرأها عيناه من إحصاءاتهم المعدة . . . ليتولى هو الجواب ، وقد حدث أكثر من مرة أن خبت به مطية الطبع الساخن ، فخاض فى نقاش فنى — لايحتمل معه ضيق الوقت ، وتوالى الأخذ والرد أن يعود إلى موظفيه الفنيين — فأدلى بملحوظات كادت تورثه ورطة ، ولكنه تنبه أمام الشيوخ الخصوم و « تكتيكهم » فوعد ببحث الأمر وأنقذ الموقف .

ولم يشهد المجلس وزيرنا غالب فى استجواب ضخم يتطلب بلاغة فى الكلام وقوة فى المنطق ، ومهارة برلمانية ، وتكتيكات حزبية . . وليس للرجل فى هذا النوع من الحياة البرلمانية باع طويل ، وإنما طول باعه فى أن يسأل فيدلى بالجواب الصريح . . لايلجأ فيه إلى اللف والدوران ولا إلى الكناية والتلميح .

وغالب التلغرافجى :

وغالب باشا فى الأيام الحاضرة يتولى زعامة السعديين فى مجلس الشيوخ ، على طريقة غريبة مسرفة فى الغرابة ، حتى لقد أسميته مرة « غالب التلغرافجى » قاصداً بهذه التسمية أسلوبه « التلغرافى » القصير السريع الذى يعالج به أخطر المواضيع .

هو جرىء جداً فى الاستجوابات التى يقدمها ، ويجىء دور النقاش ، وتزخر القاعة بالنظارة ، ونشرع نحن الأقلام فى الشرفة ، ويصعد غالب إلى المنبر فاذا هو يقول إن لديه خمس ملاحظات الأولى كذا والثانية كذا . . ويصل إلى الخامسة فى دقيقتين ويبارح المنبر . . وأغلب الظن أن ملاحظاته كثر أن تحمل طابع الوجاهة ، وطابع الجرأة ، ولكن البرلمان يريد الرجل المحاور المداور ، ويريد الخطيب البليغ الذى يحسن الدفاع ويحسن الهجوم . . وغالب رجل « عصبى » لا يطيق الإطالة ولا يحب الأخذ والرد .

غالب بالجملة :

أما غالب باشا « بالجملة » فرجل « يعجبك » . لامع الذكاء . . خفيف الروح « أرتيست » الذوق . . ميوله مع الفنون . . يحب « الجد » حتى فيما نسميه « الهزار » . . محب للجمال حبه للحق والعدل . لايتعالى على المشرب العام يختلف إليه . . . على أن يكون لائقاً بمستواه كبار الأنجلو مثلا . ولا على الملهى البرىء ما دام يقدم من الفن الجميل لوناً يستهوى أصحاب الذوق . . ولعل غالب باشا « كسميع » — بفتح السين وكسر الميم المشددة — أدنى إلى المدرسة القديمة فى الطرب والتخت وما إليه ، وإن كان لا ينكر الجميل من كل مستطرف حديث . . و « كفايه بأه » .

٢٧ — مصطفى الشوربجى بك

مصطفى الشوربجى . عرف كعضو فى الحزب الوطنى . بل (كشورجى) من زمن بعيد . . ثم عين مستشاراً فقلنا « طوته الوظيفة » حتى وقع عليه اختيار على ماهر باشا ضمن بضعة من الكهول والشبان . .

كان وزيراً للعدل . . وكان يشهد جلسات الشيوخ . . ثم عين عضواً فى المجلس فاستمر بعد استقالة الوزارة الماهرية يشهد الجلسات . . واستمر وفياً لعلى ماهر باشا . . يخف دائماً إلى حيث جلس . . ويأخذ مكانه إلى جوار رفعته . وأخيراً انقطع ماهر باشا عن حضور جلسات المجلس . . فوثب الشور بجى بك إلى الصف الأول الذى يحمل راية المعارضة . . ولأتفه الأشياء بدأ يثور مختارا مكانه إلى جوار حافظ رمضان باشا فكان طبيعياً . . ثم تطرف فى معارضته الوزارية حتى وحدت « المحنة » بينه وبين الوفديين فى كراهيته للوزارة السرية ، وبلغ من تطرف الشور بجى فى هذه الكراهية أن شهد جلسات الهيئة الوفدية ولم يتردد الأستاذ يوسف الجندى ذو النائب الأزرق . . فى إعلان هذه الحقيقة فى سياق كلامه فى إحدى الجلسات الأخيرة وسجلتها المضابط .. ودارت السياسة دورتها فاذا الشور بجى اليوم أعنف معارض لحكومة الوفد .

مصطفى محمود الشور بجى بك شيخ منتخب فى ١٦ بوليه سنة ١٩٤٠ عن دائرة طنطا

ميزاته ومساوئه :

وللأستاذ الشور بجى بك ميزاته . . فما هى ؟ ومساوئه . . فما هى ؟

فأما ميزاته فهو رجل يحسن البحوث الفقهية ، وإعداد المراجع القانونية .

ولعله أن يكون كثير المطالعة واسع الأفق . . ولعل عمله مستشاراً ضاعف ميله إلى هذه النواحى . . ومن ميزاته أيضاً أنه يحسن الإصغاء ولا يتردد فى الرد متى اقتنع أن الرد واجب .. ومن ميزاته أيضاً أنه « ثورى » الدم .. كثير النشاط . شاب فى الغضب . . وأظنه شاباً فى القلب . . وأظنه أكثر شباباً من كثيرين فى الثلاثين .؟ مع أن الشيخ أكبر من كهل .. وأعتقد أن الشوربجى فى ثوراته وانفعالاته وفى مختلف تصرفاته ، أقرب إلى النزاهة الوطنية وأبعد عما يسمونه النفعية .. ومن عجب أن هذا الشيخ كالسيف ذى الحدين .. خطر حتى على نفسه .. فكل شىء قلت لك إنه ميزة فيه ، يجوز لك أن تعده فى ذات الوقت من مساويه . فشبابه وثورته وانفعاله وإخلاصه ، كل هذه الميزات هى سبب بعض ما كان يمنى به من فشل . فإن دقة جرس الرئيس السابق كانت كافية للخبطة كل ما غزل الأستاذ الشوربجى .. والرئيس ذو الأنياب - لا الناب — يعرف فى الشيخ هذا الاستعداد . . فاذا ضاق بإسهابه ذرعا .. بدأ يحرك الجرس . . ويدق بالشاكوش . . ليثور الشوربجى وتفلت من بين شفتيه كلمات لم يقصد إليها .. وليبارح المنبر محتجاً على الرئيس أو محتجاً عليه من الرئيس .

عيب الشيخ الأساسى فقدانه السيادة على أعصابه ، وهو مصاب بمرض « لويس » . . من هذه الناحية ، ولا أقصد الأستاذ لويس فانوس . . بل أقصد صنفاً من هياج الأعصاب ، وثوران النفوس ، وفقدان التوازن . . يطيب لى أنه أسميه «لويس» كما يسمى مرض معين «تيفوئيد» أو «باراتيفوئيد» أو «انفلونزا» فإذا غضب تناثرت منه عبارات لو قالها خارج القاعة لجاز أن يقع بعضها تحت طائلة العقاب ، أما تحت القبة فكل ما يمكن أن يعقب به الرئيس هو قوله « لا يثبت شىء فى المضبطة من أقوال حضرة الزميل » .

ومن عيوب الشيخ أيضـــاً — وهو عيب يشاركه فيه كثير من المغنّين والمطربين — أنه إذا صعد إلى المنبر وبدأ يتكلم وأراد أن يختتم .. عجز عن

أن يجد ما يسميه أهل الفن « بالمحط » . . ويظل ينتقل من كلام إلى كلام . . حتى يمل الشيوخ . . ومن أجل هذا و بسبب هذا لم تنشر الصحف يوما خطابا كاملا للشور بجى ، مع أنه ألقى أكثر من خطاب ، وصادف أكثر من توفيق .

وأريد أن أقول أخيراً إن مصطفى الشور بجى رجل كفء وفيه « جواهر وكنوز » ولكن الشكل فيه يطغى على الموضوع . وكنوز الشيخ مطمورة تحت أكداس العصبية وما تثير من أتربة وغبار .

على أن شيئاً آخر أكثر صحة ينبغى أن يلاحظ وأن يسجل ، فالشور بجى فى استجوابه الأخير كان مرتباً ترتيباً هائلا ، ولم تخرجه العصبية عن نطاق المنطق ، ولم يفقده الجو المكهرب سيادته على الأعصاب ، حتى لقد أعلنت فى « البلاغ » أننى أسأت الظن فيه قبلا وكنت له ظالما ، وأننى ساعيد النظر فى الفصل الذى نشرته عنه .

فاذا لاحظت أن هذا التوفيق الذى ظفر به الشور بجى كان مستظلا فيه بظل الرئيس العرابى باشا ، أمكنك أن ترجع كثيرا من فشل الشور بجى سابقاً إلى تكتيكات الرئيس السابق .

الجزء الثانى

لبقيـــة الشيوخ وجميع النواب

يصدر قريبا

كنَّا قد حددنا للكتاب ٣٢٠ صفحة ، وأقمنا بنـاءه على هذا الأساس تبويبا ، وترتيبا ، ووضعا ، وطبعاً . ورجونا أن نفرغ من الشيوخ جميعاً ، وأن نجد من رفرفه فراغا للنجوم التى لمعت فى سماء مجلس النواب ، ولـكن التقدير ساء مع الأسف ، لأننا لم نشأ أن نغمط شيوخ الأمة حقوقا ، أو نسجل على النقد البرلمانى عقوقاً ، فأرسلنا اليراعة حرة فى تناولهم ، فما كدنا نفرغ من طائفة الوزراء السابقين منهم ، حتى لم يبق أمامنا من فراغ الـكتاب غير صفحات معدودات .

إزاء هذا لم أر بداً من أن أصدر كتاباً آخر لبقية الشيوخ ولجميع النواب ، فيكون منه تكملة للجهد الذى بدأته ، وأصوّب فيه كل خطأ يكون قد وقع فى هذا الـكتاب الأول ، وأقنع فى الصفحات المعدودات الباقية من هذا الجزء الذى تطالعه ، ببضعة شيوخ ممن سبق لى أن تناولتهم فى فصولى فى «البلاغ» مؤكدا للباقين — وإنهم لـكثيرون — وللنواب المحترمين ، أن ضيق الـكتاب الأول بهم ، يجعل الميزان فى صالحهم ، إذ يتسع الـكتاب الثانى لهم فلا نبخل بالإسهاب عليهم .

انتظروا ازوده — فى القريب العاجل — إن شاء الله صدور كتاب جديد يحمل اسم كتابنا هذا ويكون جزءا ثانيا له .

« ٥ »

الشيوخ

من رجال الصحافة

١ — أحمد حافظ عوض بك

٢ — أنطون الجميّل بك

٣ — خليـــــل ثابت بك

٤ — الأستاذ محمود أبو الفتح

٢ — أنطون الجميل بك

هؤلاء الزملاء الأربعة يعتبرون من شيوخ الصحافة ، فلندع ثلاثة منهم إلى كتابنا الثانى ، وليقنع هذا الكتاب بالأستاذ انطون الجميّل بك الذى سبق لى أن تحدثت عنه فى فصولى من « البلاغ » .

ولا أكتمك أني ترددت طويلا قبل أن أكتب عنه يومئذ ، ونصحت إلى رسامنا أن يبعد عنه فكرة رسمه لأنى لا أرضى لنفسى ، إذا أنا أثنيت عليه ، أن أتهم بمجاملته كزميل — ولو كان رئيساً لجمهورية لبنان لا رئيساً لتحرير الأهرام — ولا أرضى لنفسى إذا أنا « قفشت » له أن تذهب ظنون الزملاء فى هذا « القفش » مذاهب شتى ، ولكن رسامنا الخبيث تغفلنى وكان الجميل بك يشرح استجوابه

شيخ معين أخرجته القرعة
وأعيد بمرسوم ثم ابطل تعيينه بمرسوم فبراير
ثم أعيد بمرسوم مارس الماضى

عن الرقابة والصحافة فى وزارة سرى باشا ، ويسبح فى جو شعرى جذاب يشبّه فيه ما خلعه عليه رئيس الوزراء من ثناء ومديح ، بالزهور والورود . . التى أغرقته ... إلى آخر ذلك الخطاب الذى شعر فيه أنطون ونثر .. ومال ذات اليمين وذات الشمال يلقى الشعر على طريقة لو ألقاه بها من فوق خشبة الأوپرا . . . لانبعثت من تحت الخشبة حتما أنغام موسيقى صامتة ترافق الخطيب فى أثناء الإلقاء البديع . وكان الجميّل يذكر هذه الزهور ساعة التقطته ريشة « رخا » الرسام غارقا فيها مغموراً بها ، ومضت الأسابيع والرسام يستحلفنى بكل عزيز وغال . . أن أكتب عن أنطون خوفا على زهور الفنان من الذبول .

واستجبت لرغبة الرسام فكتبت سطوراً معدودة ، قلت فيها إنى إنما أكتب . وأخوض فى القول ، لأقول لرسامى وقرائى إننى لا أريد ان أقول شيئاً عن بطل لجنة المالية والجمارك . . والخطيب المرتب « الموضب » فوق أعواد المنابر . . والذى يتكلم فلا تعرف فى مسلكه حداً « جغرافياً » بين الشاعر والناثر ؟ ؟

فهل يكفى الآن أن أقف عند هذا الحد إزاء رجل لم تقف همته عنه حد ؟

أظن : لا

أنطون شكلا :

وأنطون شكلا قادر على أن يلتهم عشرين من الأعوام — من غير كلام — فيبدو وهو يمشى إلى كرسى السكرتارية فى خفة ونشاط وتمايل ، كأنما يمشى إلى الأربعين على مهل ، عادى التكوين ، يغريك به « الموضوع » إذا اتصلت به ، أكثر مما يغريك الشكل إذا نظرت إليه

يسرف أحيانا فى الأناقة حتى « يتغندر » ثم يهمل أحيانا . لينثر ويشعر

أنطون موضوعا :

أما أنطون موضوعاً فشىء متعب جداً . . أرجو أن أعود إليه فى الجزء الثانى

(حين أعود إلى زملائه الفرسان الثلاثة الآخرين) بشيء من التفصيل ، وأقنع اليوم بأن أقدم لك رءوس هذا الموضوع الإنسانى مجملة فيما يلى :

(ا) شاعر قديم وأنت تعرفه ناثراً فى كل صبح .

(ب) اقتصادى لا يشق له غبار ولجنة المالية تحدثك عنه .

(ج) اجتماعى تعنيه بحوث الأسرة ولا يتردد وهو يتناولها فى عقد قرض من بنك « اقتصادياته » ليسمى الزوجة « وزير مالية البيت »

(د) غير متزوج حتى اليوم ، ويعيش مع شقيقته الكبرى ، ويتخذ من ولدها « ريمون » ولداً له ، ومع شقيقته الصغرى ، ويوليهم من الحب ما يدخره الوالد للولد ، ومن عجب أن أنطون اللبنانى الأصل والعصرى العيشة . . رجعى فى بيته ، فلا تعرف شقيقتاه حتى اليوم « الأبيض والأحمر » أو « قص الشعر » أو « الديكولتيهات » فى الزى ، بل تعرفان « التدين » وتسرفان فيه ، وصغراهما تشرف على صندوق جمعية الموارنة ، وتطوف بالفقيرات فى دورهن مانحة عاطفة ، ولا تعرفان المسارح ولا دور السينما ، ويعنى بزهور حديقته ، ويجىء المجلس أحياناً وفى يده « عينة » منها . . ويحب الخيل وعنده من الأصائل فرس أفرد لها فى الحديقة (اصطبلا) متواضعاً .

(هـ) محب للجمال كشاعر ، حفيظ على الكرامة كرجل ، يضرب به المثل فى الوفاء كصديق .

(و) يجمع بين الجد إن كتب للصحف ، والفكاهة إن كتب للمجلات ، ويتذوق جمال الفنون ونكهة النكتة ، وينذر لخدمات قاصديه كثيراً من وقته ، وإذا وعد لا يخلف ، وإن قال لا يكذب . . وإن أحب فحدث . .

وهو « مكّوك » لا يهدأ ، يجامل الجميع ، ويعمل للجميع ، لطائفة الموارنة التى ينتمى إليها بوصفه رئيساً لجمعيتها ، ولمختلف الطوائف كأنما هو واحد منها ، ويدعى إلى عشرات الحفلات وقلّ أن يتخلف عنها ، ويشهد جلسات الشيوخ

ولجانه فى مواظبة حسبك منها أنه الرجل الذى عنيته فى بحثى فضربت به مثلا من حضوره لجنة المالية بنسبة لاتكاد تصدق ، يشرف على جريدة الأهرام فى يقظة هى العجب .

زرته فى مكتبه مرة واحدة فى حياتى ، شاكراً له تعزيته لى ، فوجدته جالساً إلى مكتبه و إلى يمينه الأستاذ كامل الشناوى يتولى إدارة قسم « السخسخة » فى السهرة ، ووقف فى الغرفة تقلا باشا والأستاذان فريد أبوشادى وعلى محمود طه ، وأمضيت معهم وقتاً ، رأيت أنطون فى خلاله يجادلهم فى الشعر و يساهم فى النكتة و يمشى بقلمه على أخبار أمامه ، و يستدعى «موضب صفحة الاعلانات» ليلفته إلى إعلان بعينه ، ثم يستمع إلى كل قصة تحكى فى غير برم . . ثم تصدر (الأهرام) يا أخى فى موعدها هائلة كما تعلم .

ظـــلموه :

أعرف أنه ظلم مرة فى حياته ، وظلم — مع الأسف — من أبناء الصحافة ، عين عضواً صحفيا فى لجنة الجدول فرأى أن لا محل لقيام نقابة تنظم الصحافة إلا أن تجىء طاهرة من ذلك (الواغش) العالق بأطرافها ، فكان يضن بتزكية كل صاحب طلب لايعرف أنطون شخصيا أنه صحفى معروف ، فلما كثرت الطلبات المرفوضـــة — وكانت نسبة الخطأ فيها تجاوز عشرة فى المائة — دبر المرفوضون حملة غير صادقة شايعها المغرضون ، فتألم الرجل واستقال من مجلس النقابة ، بعد أن انتخب فيه عضواً ، وترك الأخضر واليابس متألما غير نادم .

حلال المشكلات :

و يظهر أن فى الرجل شيئا من الدهاء ، أو نعومة يحار الشعر فى تعليل وجودها فى الشاعر ، و يعيينى أن أبحث عن موقف سياسى تعقدت فيه الأمور ولم يكن

أنطون فى طليعة الساعين إلى التوفيق ، والقادرين على إقناع « المتخانقين » بأن الهوة التى تفصل بينهم بالأميال لاتجاوز المليمترات .

أنطون شيخا :

ويعتبر أنطون من حيث النتاج البرلمانى فى مجلس الشيوخ فى طليعة العشرة الأوائل إن وجدوا ، وكان الرئيس السابق يختصه فى الخطبة الختامية لكل دورة بحفنة من المدائح يحمر لها وجه أنطون ، وكان ذلك الرئيس يحس بالفراغ إن مر عليه فى مكتبه ضحى لم يزره فيه « تنوس عين الرئيس » أنطون ، وكنت لا ترى الرئيس فى القاعة أو فوق المنصة أو الردهات إلا مع أنطون . . فلما عين العرابى باشا رئيسا قال خصوم أنطون إنه سيلازمه كما كان يلازم سلفه ، فخاب تقديرهم ولم تظهر حتى اليوم بوادر صداقة خاصة بين الرجلين .

وأنطون يحسن دائما عرض آرائه ، وتقابل هذه الآراء دائماً بالاصغاء والتوقير ، فاذا استجوب وزيراً ، عرف كيف يحشد قوى الشعر والنثر معاً ، فيسقى المستجوب الدواء المرير من (برشامة) مغلقة أو معسولة فيبلغ أهدافه فى يسر وسهولة .

وهو يعد خطيباً « لبنانياً » من الطراز الممتاز ، أما فى مصر فيفقده هذا الامتياز بقية من لهجة هذا القطر الشقيق ، لاتقع فى الآذان المصرية موقع الحسن الخالص ، وإن كانت براعة الموضوع تسد هذا النقص أحياناً .

وإذا اختلف المؤيدون والمعارضون ، وتقدم كل فريق باقتراح أو بمشروع قرار ، أحدهما فى الأرض والآخر فى السماء ، خرج أنطون إليهما باقتراح وسط يقره المجلس ويحسم الخلاف .

وقد كتب إلىّ الأستاذ محمد القبانى بوصفه سكرتيراً للجنه المالية مقالا يصف فيه أنطون من يوم التقى به فى لجنة الموظفين العليا فى سنة ١٩٢٨ إلى أن عاد فعمل معه مرة أخرى فى لجنة المالية فى مجلس الشيوخ فى سنة ١٩٣٦ فذكر

أعاجيب عن نشاط الرجل وخلقه ، وأمانته على واجبه النيابى والتفريق بينه وبين واجبه الصحفى ، ويؤسفنى ألا يتسع هذا الجزء من الكتاب لهذا المقال فلأبقه إلى جزء تال إن شاء الله .

وأنا لا أعرف للرجل عيوبا إلا أنه « يختفى » أحيانا إذا تكهرب الجو بين الأحزاب ، ويلوذ بالصمت تاركا كلمة الحق للذين « يدبونها » ولو فى غير حينها .

« و »

الشيوخ

ممن يمتون بوشائج القربى أو النسب للبيت المالك

١ — محمد شريف صبرى باشا

٢ — محمد طاهر باشا

٣ — محمود خيرى باشا

٣ — محمود خيرى باشا

نكتفى فى هذا الجزء الأول من الكتاب بالثالث من هؤلاء ، مرجئين الآخرين إلى الجزء الثانى ، حتى نستوفى بعض البيانات عنهم ، لاسيما أن رفعة شريف صبرى باشا لم نكتب عنه قبلا ، وقد قيل لنا إن فيما كتبناه فى « البلاغ » عن طاهر باشا نقصاً ينبغى أن يسد وتحريفاً ينبغى أن يصلح . .

ليكن من نصيبنا — إذن — محمود خيرى باشا

محمود خيرى باشا عضو الشيوخ الحالى . . تعرفه الأمة نائباً من نوابها فى كثير

من مجالسها النيابية السابقة ، تقدم إلى الانتخابات مستقلا فى الأغلب الأعم فكان النصر معقود اللواء به غالباً .

رأيت الرجل من شرفة الصحافة فما شككت — من حيث الشكل — فى أنه « جنرال عالمى » هارب ، وفد على مصر خفية فتمصر ، وتقدم إلى الانتخاب خلسة ففاز !!!

هذه الصورة التى رسمتها للرجل بريشة الفكاهة ظلت ماثلة أمام ذهنى ، حتى سألت عنه الزملاء والأصدقاء ، فإذا الشيخ المحترم من ناحية الموضوع ، قريب للصورة التى نسج وشيها خيالى . . وإذا الشيخ المحترم « انسيكلوبيديا » لا ينقذنا من وصفها بأمانة إلا أخونا الشاعر القديم الذى لا يُستكثر على الله « أن يجمع الخلق فى واحد » .

نعم ثبت أن محمود خيرى الذى لا يمشى باسمه فى الشوارع رجل الشارع . . موهوب من الطفولة ، مغامر فى الشباب ، شاب فى الكهولة ، ذرع العالم شرقا وغربا . . وترك فى تاريخ السياسة والحروب أثراً . . وقدم لمصر كل ما يملك المواطن البار أن يقدمه ، ثم جاء أخيراً يلقى عصا التسيار فى المجلس التشريعى الأعلى ، فلا يسع النقد البرلمانى إلا أن يجر مع الرجل الطيب شيئاً من « الشَّكَلْ » وقد « شا كل » هو العالم قبلا .

ولكيلا ننسى :

ولكيلا ننسى ينبغى أن تعلم — وأنت العليم حتما — أن الرجل متزوج من صاحبة السمو الأميرة قدرية حسين كريمة عزيز مصر ، وحبيب الفلاح ، المغفور له السلطان حسين ، وكريمة صاحبة العظمة « السلطانة ملك » ، وهو بهذا الوصف له علينا من التوقير ، ما لبعض أعضاء البيت المالك ، وللاميرة على دولة البيان والبديع من التقدير ، ما لزعيمات الفكر فى العالم المتحضر .

ونعود الآن إلى « جر الشكل » مع الشيخ المحترم .

الشيخ شكلا :

وما دمنا نقدم لك كل شيخ من حيث الشكل والموضوع معاً . . فاعلم يا رعاك الله ، أن خيرى باشا الذى جاوز الستين ، يستطيع أن يطعن فى شهادة ميلاده ، وأن يدعى الخامسة والأربعين عمراً ، لو أنه انتقل إلى بلد غير مصر ليس فيها على أسنان الجنود شهود . . من عينة محمد حسين باشا محافظ الاسكندرية المحال حدبثاً إلى المعاش ، والذى كان تلميذاً لخيرى باشا فى مدرسة البوليس ، ونديم باشا مدير البوليس العام ، وعلى عبد الهادى بك مدير المنوفية[1] اللذين كانا كذلك من تلاميذه أو على الأكثر كانوا زملاء له فى المدرسة . وكان باشجاويشاً عليهم ، فلا مناص لخيرى باشا أمام هؤلاء الشهود العدول من أن يعترف بأنه جاوز الستين

وخيرى باشا ليس بالطويل وليس بالقصير . . وليس بالبدين وليس بالنحيل . . جندى المشية ، وجندى النظرة ، وجندى اللهجة ، وجندى التكوين — أبيض لون الوجه ضارب إلى الحمرة . . « مسبسب » الشعر . . فاتن النظرة . . محتفظ بالوسامة بحيث يستطيع — إن شاء — أن يزاحم الشبان على قلوب الحسان ، ويطمع فى الظفر . . لولا تقوى فيه تعصمه عن مثل هذا الزلل . . على أنك تلمح — وهو يتحدث إليك — صراحة ، لا أشك فى أنه يستمدها من عنصر تركى . . وبساطة هى دائماً طابع الجندى . . وطيبة تجعله أقرب إلى الطفولة منه إلى الشيخوخة .

والرجل أنيق فى زيه ، مهذب فى إيماءاته ، ملىء فى نبرات صوته ، ميال إلى المرح والبهجة . . وميال أيضاً إلى « النكتة » . .

والشيخ موضوعاً :

أما الشيخ موضوعاً فمن الظلم لكتابى ، أن أقدمه لك بأمانة ، لأنه يحوجنى إلى مجلد ضخم ، فأنا أستعين بما يسميه رجال البيان إيجازاً ، وبما يسميه رجال

---

(١) احيل على بك عبد الهادى مع الاسف إلى المعاش بناء على طلبه قبل صدور هذه الطبعة الثانية بأيام وكان يومئذ مدير البحيرة .

الصحافة (ضغطاً) لأقدم لك هذا الشيخ المحترم بعد ان عنيت باستقصاء تاريخه من مصادر لا أشك فى أنه سيدهش لمدى علمها به و بماضيه .

نشأته :

أما من حيث المولد فيسرنى كمنياوى أن أعتبره مواطناً . ففى المنيا ولد ، لأن والده كان مفتشاً لتفاتيش الدائرة السنية فى الوجه القبلى ، وفى المنيا كان مقره

وأكد لى صديق له أن خيرى الطفل بدأ يستظهر القرآن الشريف من سن الرابعة ، ويتلقى دروس العربية على الطريقة الأزهرية إلى الثامنة ، ثم ألحق بالمدرسة التوفيقية فى التاسعة .

و إلى هذا الحد كان ينبغى أن يترك كسائر التلاميذ لمواد الدراسة ، ولو تُرك لكان تلميذاً عادياً ككل التلاميذ ، ولكن أباه لا يريده عادياً ، بل يريده فى فى الصلابة جنديا ، وفى الأخلاق دينياً ، وفى البيئات اجتماعياً .. فما عسى أن يصنع ؟

اختار له ضابطاً قديماً من خريجى مدرسة الألسن فى أيام سعيد ، وكان الرجل عامر العقل والعقيدة ، فاتخذ من تلميذه خيرى (غيَّة) له وظل يلازمه و يفتنُّ فى تنشئته على مبادىء الأخلاق ، وتراجم العظماء ، وتقاليد الجندية ، حتى قضى المعلم نحبه تاركا شاباً فى السابعة عشرة . . واسع الأفق ، طموحا إلى العلا ، رياضياً من الطراز الممتاز ، يجمع إلى الشيش .. فن الصيد وركوب الخيل وكرة القدم . . (بس خيالى شويه ! ! !) .

من طالب إلى ضابط :

ومن ذلك العهد بدأت مغامرات خيرى طالبا وشابا ورجلا . . ففى الخامسة عشرة من عمره أخرجه والده من التوفيقية وألحقه بالمدرسة الفرنساوية بناء على مشورة حسين رشدى باشا ، ثم أرسل فى صحبة مصطفى كامل (باشا) إلى باريس ليتم الحقوق .

وذات يوم التقى فى الفندق الذى يقيم فيه بضابطين عظيمين مصريين ، واستمع إلى أحاديثهما ، فاستقر رأيه على أن يغدو مثلهما — ولو «بالعافية» — فحزم حقائبه وعاد إلى مصر على طريقة السندباد البحرى ، ليفاجىء أباه بأن دخول المدرسة الحربية أصبح أمراً لا مفر منه ، ولتفعل القوة بنا ما تشاء ! ! ! ولكن رغبته اصطدمت بضرورة حصوله على شهادة الدراسة الثانوية المصرية ، فكتب إلى مستر «شارمن» ناظر الخديوية ، طالباً قبوله فى السنة النهائية ، فعجب الرجل لهذا الطلب الجرىء ، وسأل الرياضى الكبير على سرى بك إن كان يعرف هذا (الأفندى) فقال له إن فى ضمه إلى الخديوية ربحاً رياضياً لا يقدر ، فاستدعاه «شارمن» الذى كان يعبد الرياضيين ، وما أن تحدث إليه حتى أعجب به ، وأمر بقبوله فى المدرسة بغير امتحان ، فبرز فى الألعاب فاعتز به ناظره ، حتى لقد عقد يوما مع الضابط الإنجليزى رهانا على أن فى وسع تلميذه الصغير أن يصرع فى الملاكمة لاعبا إنجليزيا كان يومئذ شهيراً ، وكانت لخيرى الغلبة فعلا وفى أول جولة ، فحاول شارمن أن يثنيه عن التقدم لامتحان البكالوريا فى تلك السنة ، ليحتفظ به سنة أخرى ، فراوغه خيرى وقال له إنه سيتقدم للامتحان من باب جس النبض . . ولكن (المضروب) نجح . . وأسف شارمن وفرح . . أسف على الحرمان من لاعبه ، وفرح بنجاح مَن أحبه ، وراح يسأله عن المستقبل الذى يختاره ، فعرف أنه يريد الالتحاق بالمدرسة الحربية بانجلترا ، فأشار عليه بقضاء عام فى المدرسة الحربية المصرية تمهيداً لإفاده فى بعثة ، والتحق بها فعلا ، ولكن مستر (متشل) مستشار الداخلية يومئذ والحاكم بأمره أقنعه (بالتحويل) إلى مدرسة البوليس ، ورسم له المستقبل الذى ينتظره .

والتحق بمدرسة البوليس ، فرقى فى أول يوم إلى باشجاويش قسم الضباط ، وبعد تسعة شهور إلى ملازم أول ، وبعد سنتين إلى يوز باشى ، ثم إلى صاغ ، ثم عين قومندانا للمدرسة ، فعرف كيف يرقى بها . ومنحه الخديوى النيشان المجيدى

إعجابا به وعلى يديه تخرج جمهرة المديرين من الضباط والمحافظين والحكمدارين الحاليين .

فى القصر العامر :

وقد حدثنى صديقى الأميرالاى عبد الحميد بك كمال طويلا عن الرجل كضابط وحدثنى صديقى محمد بك خطاب حديثاً طويلا أيضاً عن الرجل (كسرايتلى) و (كسياسى) فلأحاول أن أجمع من الحديثين حقائق تكمل تاريخه . .

فى سنة ١٩١٠ صدر النطق الكريم بتعيين محمود خيرى ياورا خديويا بناء على مشورة المغفور له محمد سعيد باشا ، فكان أول ضابط بوليس ينقل إلى الياوران . وبعد قليل أضيفت إليه قيادة الركائب الخديوية ثم قومندانية السرايات ، فظل يضطلع بهذه المهام حتى بدأ عهد الرحلات .

خيرى الرحالة :

كانت أول رحلة كلف بها إلى سوريا فى ركاب الأمير محمد على ، ثم توالت رحلاته إلى أمريكا وكندا وألاسكا ، ثم عاد فرافق الخديوى فى مختلف رحلاته ، فكسب ثقته كاملة ، حتى لقد غدا بعدئذ ، مهمندارا لكل زائر كبير ، ومبعوثا فى كل مهمة جليلة ، وحتى لقد كان ضمن الأمراء والعظماء الذين مثلوا مصر فى أجل المناسبات ، كزواج الملك چورچ الخامس وتشييع جنازة الملك إدوارد واستقبال ملك البلچيك إلى آخر هذه المناسبات .

رائد الأمير :

ثم وقع عليه اختيار الخديو ليكون رائداً لسمو ولى عهده الأمير عبد المنعم وشقيقه عبد القادر فسافر معهما إلى سويسرا ، وظل رائداحتى اعتدى على الخديو

فى الاستانة فذهب إليها فى صحبة الأميرين وأعلنت الحرب الكبرى بعدئذ .

إبعاد واتصال وعودة :

ومن هنا يبدأ تاريخ طريف للرجل، وأدوار يضيق النطاق عن سردها، فقد كلفه الخديوى — وكانا قد سافرا إلى النمسا — بمهمة فى مصر، فاستطاع أن يقنع السلطات بالسماح له بالعودة ، ولكنه لم يلبث بعد الاعتداء على السلطان أن أبعد إلى مالطة ، واعتبر هو وعثمان مرتضى باشا أسيرى حرب ، ثم أفرج عنهما بناء على أمر الجنرال مكسويل بعد ستة عشر شهراً قضياها فى الاعتقال ، فعاد خيرى إلى مصر قبل وفاة السلطان حسين ، فأسندت إليه إدارة دائرة الأمير محمد على ، ثم مات السلطان حسين، فعين خيرى ياوراً للسلطان فؤاد ، ثم ندب تشريفاتيا لصاحبة العظمة السلطانة ملك ، وأعيد إلى الخدمة العسكريه برتبة بكباشى ، وأضيفت إليه حفنة من دوائر الأمراء والأميرات وفى مقدمتها دائرة السلطان حسين .

خيرى ومصطفى كمال :

ووقفت على طرف من تاريخ للرجل فى الحرب الكمالية أرجو أن ألقاه يوما فأعرف منه هو تفاصيله ، على أن الثابت أن خيرى سافر فى بداية الحركة الكمالية إلى الأناضول وانضم إلى مصطفى كمال ، وظل معه حتى أوفده ليمثل تركيا فى أوربا بعد أن أهدى إليه مسدسا ، كانت الأمة التركية قد أهدته إلى غازيها ، فسافر خيرى إلى روما ، وظل يعمل من هناك على تيسير تصدير الأسلحة والذخائر إلى الثائرين، حتى تم لهم النصر وعقد مؤتمر لوزان ، فرؤى أن يسافر بعض رجالات مصر إلى أنقره لمقابلة مصطفى كمال، فانضم خيرى إلى الذين سافروا : وهم حافظ رمضان باشا والدكتور إسماعيل صدقى بك، وفريد وجدى بك، وأحمد خيرى بك. وتم الاتفاق على أن تتنازل تركيا لمصر عن السيادة ، وتلقى خيرى هدية الغازى الثانية وهى

المسدس الذى كان يحمله القائد العام للجيش اليونانى المنهزم ، واختيار الغازى هداياه لخيرى من خالص المسدسات دليل على تقديره لروح الجندية فى الرجل .

خيرى المجاهد :

وعاد خيرى إلى مصر ليساهم مع المصريين فى الجهاد الوطنى وأذكر أنه رأس فى إحدى الدورات لجنة الدفاع الوطنى فى مجلس النواب ، وأعرف أنه يرأس ثلاث شركات مصرية ، وأنه عضو فى كثير من الشركات . وقد ظفر بالباشوية من الملك فؤاد من زمن بعيد قد لا يقل عن الـ١٨ سنة ، فهو عريق فيها .

ومحض عودة خيرى من تركيا الحديثة بعد فوزها ، من غير أن يفوز هو بشىء ، يدل على أن الرجل مجاهد « أماتير » . . . ومحارب « غاوى » وسياسى « كبير » .

البوليس الخاص :

وقد سمعت بأذنى من محمد حسين باشا قصة البوليس الخاص الذى أنشأه خيرى باشا فى مدينة الاسكندرية ، وكيف ظفر بإعجاب الحلفاء والأجانب ، وكيف كان خيرى ينفق مئات الجنيهات شهريا من جيبه الخاص على هذا البوليس الخاص ، معفياً الدولة من معظم النفقات لا لشىء إلا لإشباع عطاش الجندية عند الرجل .

نوادر وطرائف :

وقص على أصدقاء له قصصا أُخَرَ عن رحلات له فى ألمانيا بعد الحرب الكبرى ، وعن مقابلات تمت بينه وبين قوادها العظام الذين منوا بالهزيمة ، ولكن الوقت غير ملائم لسرد هذه القصص .

وأعتقد أن الرجل إذا لم يجد حربا فى الميدان . . (تخانق) مع الشاى فى الفنجان . . فهو عسكرى بكل قطرة فى دمه . . رأى أن الفرص فاتته فى الميادين ، فاتخذ من البوليس الخاص عزاء ، لعله يغذى به شبيبة الجيل ، ويبث الروح العسكرية بين الجماهير .

خيرى شيخا :

أما خيرى باشا عضوا فى الشيوخ فهو من الصامتين حتى الآن . عين فى ٢٩ مارس ومضى عليه الآن ثلاثة شهور شهد فيها بضع جلسات تباعا ، ثم عكر عليه المرض صفوه ، فلزم فراشه آسفا على أن يزوره المرض هذه الزيارة المفاجئة ، بعد أن أعفاه من هذه الزيارات ستين عاما .

وخيرى باشا عيوبه ككل شيخ بل ككل إنسان وإليك البيان .

١ — صريح إلى حد غير صالح للسياسة ، وإن كنت أعتقد أن فيه جانبا خفيا من دهاء الساسة الأتراك قد تظهره الأحداث يوما .

٢ — لا يحاول أن يخوض غمار الحركات العامة وغمار البيئات العاملة ويبدو أنه يلاحظ فى هذا اعتبارات خاصة بشخصه .

٣ — طموح إلى الإصلاح ، طموحا لا يخلو من « دروشة » فهو مثالى « ايديالست » فى تفكيره ويحسن الظن بطاقة النهضة ومآلها ، ويعتقد ككل جندى أن الإصلاح السريع سهل وميسور لو وجد الرجل الذى يقود ، وقد يكون محقا فى بعض نظرياته ولكن !!!

٤ — كان فى ماضيه النيابى منتجاً فى اللجان قليل الكلام فى القاعة . . وتسأل لماذا ؟ وأجيب : (لا أدرى) .

وبعد . . فمحمود خيرى باشا شيخ محترم حقا . . . فاحفروا فى مناجم العزلة وأخرجوه منها . . تنتفعوا . . بأصفى معدن وأغلى جوهر . . أو لكم الأجر والثواب على الأقل .. عند الله والوطن .

« ز »

الشيوخ

من كبار الموظفين السابقين

١ — الدكتور إبراهيم مدكور
٢ — الأستاذ أحمد أبو الفضل الجيزاوى
٣ — أحمد مختار حجازى باشا
٤ — حسن مظلوم باشا
٥ — صادق وهبه باشا
٦ — محمد السيد ابراهيم غنيمه
٧ — محمد بدير باشا
٨ — محمد خطاب بك
٩ — محمد زكى الإبراشى باشا
١٠ — محمد عطيه الناظر بك
١١ — محمد لبيب إبراهيم فرج أبو الجدايل

٨ — الأستاذ محمد خطاب بك

نختار من هؤلاء الأستاذ محمد خطّاب بك ، إذ سبق أن كتبنا عنه وندع الكلام عن الباقين إلى الجزء الثانى ، وخطّاب شخصية غنية بالجد ، غناها بالمرح وتستلزم كتاباً إن أردت له إنصافا .

رجل ذو ماض . . .

ولخطاب ماض حافل (بالحواديت) حتى ليمكنك القول بأن خطاب فى ذاته (حدوته) من النوع الطريف . . إذا سردت على مسمع . . أصغى إليها السامع كما يصغى إلى (حواديت الشاطر حسن والشاطر محمد) . . أو هو حكمة أرسلتها الأقدار من غير مبالاة !! وفى بعض ساعات صفوها النادر !!

شيخ معين فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٤١

خطاب فى ذاته (حدوته) أدنى إلى الخيال . . وحسبك دليلا على صدق الوصف أنك إذا سألت عنه صديقاً لم يَسُق إليك وصفاً ، بل يسرد عليك (نادرة) من (نوادره) فى (الوفاء) أو (المغامرات) أو (الإنتاج) أو (الظرف) ثم يتركك تستنتج ما تشاء .

أرستقراطى وديموقراطى :

ويشبه خطاب فى نشأته أمير شعراء مصر الراحل ، فكما احتضن عباس الثاني شاعرنا شوقى ، احتضن السلطان حسين الطفل خطاب يوم مات والده بعد أن قضى حياته فى إدارة أملاك السلطان .

وفى « عابدين » إذن نشأ خطاب وترعرع وتأدب بأدب الملوك ، وكان ينبغى أن ينشأ أرستقراطى النزعة « سرايتلى » الأساليب، ولكن خطاب لم يفعل . .

لأنه كان مهيئاً للمجتمع ، فاندفع إليه يخوض غماره مسلحاً بالنقود التى لا يعرف لها « أول من آخر » .

وقد سمعت لأول مرة باسم خطاب يوم كان مديراً ممتازاً للادارة التشريعية فى مجلس النواب ، ثم ظل يرقى حتى عين سكرتيراً عاما ، فكان من حق وقد مشى الركبان بمذكرات خطاب وجهوده ونشاطه بل و « إعجازه » أن أجزم بأنه نابغة فى القانون ، وفقيه فى التشريع ، وحاصل على درجات من الخارج ، فلما عرفته أخيراً عضواً فى الشيوخ عرفت عجباً . . عرفت أنه دبلوم فى الزراعة العليا وبرغمه . . حصل على البكالوريا وأراد أن يطلب الحقوق وأرادت مشيئة السلطان أبى الفلاح أن يتلقى خطاب العلم فى مدرسة الزراعة ليشرف بعد تخرجه على المزارع السلطانية ، فصدع خطاب بالأمر الكريم ثم « وضّب » دسيسة يحمل بها السلطان على نقله من الزراعة بعد أن يتكرر رسوبه فيها إلى الحقوق المهيأ لها ، وشاءت الأقدار غير ماشاء خطاب ، فأتم علوم الزراعة برغم (تكاسله) المتعمد ، وخرج إلى الحياة يضرب فيها جريئاً غير هياب .

ونتخطى الآن حوادثه الكثار إلى يوم اشتهر خطاب سكرتيراً عاما لمجلس النواب .

فى مجلس النواب :

كان مجلس النواب فى (زمن خطاب) أشبه بمبنى أقامته الدولة وكتبت فوق بابه : « هنا المرح والحب والوفاء والشغل » . وكانت تترامى إلينا أقاصيص تناهت فى الغرابة .

وكان لخطاب سكرتير خاص[1] قص علىّ أخيرا بعض هذه (الحواديت) فقال متنهدا (والله تعبنا بعدك ياخطاب) وسألته (ليه بأه) فقال :

— خذ عندك حكاية صغيرة من حكايات كثيرة .

(١) الاستاذ عبد السلام حسنى ولا يزال موظفا فى مجلس النواب

— طيب هات .

— كان مقرراً لى شهرياً ثلاثة جنيهات (بدل سجاير وقهوة) لزوار مكتب السكرتير العام فكان خطاب بك يدفعها من جيبه الخاص لتكون لى أنا الثلاثة الرسمية المرصودة لهذا الغرض ، فكأنما كنت موظفاً عند الدولة وعنده .

هذه قصة السكرتير الخاص ومنها تعرف أخلاقه ، ومدى حب الموظفين لصاحب هذه الأخلاق ، فى أثناء وجوده فى مجلس النواب ، وتفانيهم فى أداء واجباتهم بنفوس (مفتوحة) وصدور (مشروحة) .

روح :

و (لخطاب) روح غريب . . لايدانيه فيه إلا جماعة « العباقرة » أو « الأرتيست » .

كنت يوما فى مكتب الأستاذ حسن النحاس الذى خلف (خطابا) فى منصبه ، لأطلع على قرار كانت لجنة المالية قد اتخذته فى شأن من الشئون . . وكان (خطاب) يزور خلفه ، وفى أثناء خروجى كان هو يهم بركوب السيارة ، وكان معه الأستاذ حسنين مخلوف ، فسلم على وقدمنى إلى (خطاب) فتبادلنا تحية عابرة . . ونسيته وحسبته قد نسينى . . وعين « خطاب » فى مجلس الشيوخ وأقبل على (البوفيه) حيث كنت أجلس ، فتجاهلته حسباناً منه أنه نسى اللحظة العابرة التى لقينى فيها ، ولكنه أقبل على يسألنى (ياجدع أنت مابتسلمش عليه ليه . إحنا مش أصحاب) ورأيتنى بعد الدقائق صديقاً عريقاً للصديق الغريب و (كده بالعافية) ولا تدرى كيف

شكلا :

وصلنا بخطاب إلى قاعة الشيوخ فلننظر إليه شيخاً . . موضوعاً وشكلا .

وخطاب شكلا . . يملأ الكف أو يكاد . . أميل إلى القصر ، وأميل إلى النحافة ، يمشى فى نشاط ، ويتكلم فى سرعة .. ويختار الجمل القصيرة .. وتتخلل عباراته ضحكات قصيرة أيضاً وسريعة جداً . . خفيف الظل ، خفيف الدم ، . خفيف الروح . له أنف (ممتاز) . وقد غالط الخمسين فتبدى شاباً يمشى إلى الأربعين ، أنيق جداً ، يعنى بتفصيل ملابسه على الطريقة الانجليزية غالباً ، وله صفات (الاسپور) أما الصفات الغالبة عليه موضوعاً ، فهى صفات (الفنان) أسمر اللون أو ضارب إلى السمرة الخفيفة ، (مقطقط) التقاطيع مستطيل الوجه . هذا من حيث الشكل .

موضوعاً :

أما من حيث الموضوع فعيبه أنه يتكلم بسرعة ، والسرعة تورث الخطأ أحياناً ، وعيبه أيضاً ، كما قلت لك ، قصر الجمل ، فهو (ابن النكتة الحاضرة) و (الفكرة العابرة) ، وعلى هذا الضوء لم أتوقع له الصبر على المطالعة ، أو العمق فى التفكير ، ولكن ياعجبا لمقدمة لاتؤدى إلى نتيجة . فقد كشفت فى «خطاب» مثقفا من الطراز الأول ، ومطالعا من النادرين فى تتبع أحدث النتاج الأوربى ، ولعله أحد الأفذاذ إلماما بالتقاليد الدستورية والبرلمانية عند الإنجليز ، وإلماما بخيرة الكتب التى صدرت فى اللغة الإنجليزية .

نخرج من هذا بأن « خطاب » مثقف وملىء ويجيد الإنجليزية ، ويتتبع أحدث النتاج فيها ويتكلم الفرنسية (خفافى)

شيخا :

والآن لنواجه «خطاب» شيخا بين الشيوخ ، فأقول لك إنه كان فى ميزانى لايصح خطيبا برلمانيا ، ولكنه أخيراً استكشف طريقة جديدة جعلت منه برلمانيا

بديعاً . . . طريقة (قليل من النحو يخلِّى الحكاية عال) فاشترك فى مناقشة خطاب العرش الأخير ، وكان بديعاً وأثار ضجيجاً و بلغ أهدافه ، وفى أيام سرى باشا كان له موقف من تحديد المساحة عززه باحصاءات نادرة .

وكان (يقذف) بتصريحات خطيرة عن (تخبط) اللجنة فى تقديراتها يقوم لها المجلس ويقعد ، وهو يسوقها فى بساطة قائلا (بس طولوا بالكم عليه.. وأنا أثبتها لكم . المحضر أهو فى إيدى .. أهو ياعالم) .

وقد عرضت مرة لوصف موقف له ضاحك فى تلك الجلسة ، وفى اليوم التالى التقيت به فى أثناء خروجى، وكان معى الاستاذ الحناوى الذى كان قد حل فى تمثيل (جريدة الاهرام) محل الأستاذ عبد الرحمن نصر ، فقال خطاب للحناوى :

— المهم مش إن صاحبك ده ضحك القراء بتوعه على الموقف بتاعى . . . المهم إنه خلانى أنا أضحك على روحى .

وهذه الناحية التى اعتز بها خطاب تثبت أنه (أرتيست) حقا ، فهو يبحث عن مواطن الجمال الفنى ، ولو ذهب ضحية لهذا البحث .

فى خارج القاعة :

أما خطّاب — إجمالا — فى خارج القاعة ، فليس له من دنياه غير معاشه ومكافأته البرلمانية ، ولكنه يعيش فى بيئته ومع نفسه كما يعيش أصحاب الملايين (وأحسن شويه) يعرف أن رحلة للسودان قد تفيد بلاده ، فيشد إليه الرحال مع الألفى عطيه (الغنى ابن الغنى) ومع عبد الملك حمزه (وهو صهر خطاب ووطنى متطرف وله هو الآخر ماض حافل) .

وأخيرا فخطاب كاتب ذو أسلوب ، وله فى الصحف والمجلات فصول ممتعة، وعنده مشروعاتُ مؤلفاتٍ يندفع إلى أحدها بحماسة ، و بعد أن يقطع فى وضعه شوطاً ، يصرفه عنه صارف فلا يعود إليه . فهو مؤلف البدايات والطلائع ،

وفى وسع هواة التأليف أن يقترضوا منه ما ألف ليكملوه فيصبحوا من كبار المؤلفين على حساب المؤلف الذى لاصبر عنده . . فسجلوا معى على خطاب هذا العيب الذى لاتغتفره له دولة الفكر .

فى حياته الخاصة :

أما خطاب فى حياته الخاصة فمحسود من غير شك ، ورب بيت مقطوع النظير ، وأمين كزوج . . أمانة لم تخلّ بها يوما رحلاته وحيدا إلى أوروبا ، وأنا أنقل لكم هذه الأمانة عن إيمان بها منى ، وعن قسم عليها منه ، له ولد «طارق» وبنت ، بلغا من الذكاء الخارق حدا حملنى على التفكير فى الزواج — بعد أن بلغت السابعة والثلاثين — أملا منى فى أن أرى لى مثل هذه النجابة يوماً .

وخطاب من هواة «الولائم» الفاخرة النادرة للأصدقاء من مختلف الطوائف فى بيته ، وندر أن يمضى أسبوع بغير وليمة ، وقد قيد اسمى فى (كشف المثبّتين) من (المعزومين) حينا ، فلذت بالفرار من هـــذه « الوظيفة » وأصبح هو يطاردنى . . ولا أحسبه مدركى !!!

« ح »

الشيوخ

من الضباط العظام

١ — أحمد الصاوى باشا

٢ — أحمد شريف باشا

٣ — أحمد عطيه باشا

٤ — حسن حسنى الزيدى باشا

٥ — على أحمد باشا

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

٥ — على أحمد باشا

هؤلاء الضباط العظام خمسة كما ترى ، ثلاثة منهم أعضاء حاليون وثالثهم — أحمد عطيه باشا — وخامسهم على أحمد باشا أبطل تعيينهما بمرسوم .

ونحن لم نتناول منهم بالنقد فى فصول « البلاغ » غير على أحمد باشا ، لهذا نكتفى به ونرجىء الباقين إلى الجزء الثانى .

على أحمد باشا :

ولقد كان من حق النقد أن يجعل على أحمد باشا ضمن هؤلاء الذين نكتب فوق صورة كل منهم « من هو ؟ » وتحتها « السؤال موجه للشيوخ » ولكن الشيخ معروف لنا وللشيوخ جميعاً ، فليس من العدل تجاهله ، وإن كنت لم أسمع له صوتاً من يوم أن عين حتى أبطل تعيينه .

شيخ معين أبطل تعيينه بمرسوم ولم يعد

بيد أنه يمتاز بالرزانة ، وهو بطىء الخطى برغم أنه جندى قديم محال إلى المعاش ، أى أنه لواء فى الجيش بل «له تلاميذ» من « اللواءات » ، ولون وجهه لايدل على أن الشيخ مستمتع بصحته كاملة ، وإن كان تكوين جسمه لاينكر عليه الجندية .

و « يمتاز » أيضا على جميع الشيوخ الذين يتبارون فى ستر أعمارهم بصبغ شعورهم بأنه زعيم هؤلاء (الصابغين) فشعره فاحم السواد ، يضارب به ابن العشرين إذا خلا من الهموم ، حتى لقد قال أحد الشيوخ على سبيل النكتة يوما ، إن فى نية الحاكم العسكرى أن يصادر مابمنزل اللواء من صبغة ، لأنها يقينا من (وارد الريخ) .

ولسنا — علم الله — بعارفين عن الباشا شيئاً أكثر من أنه أحد أفراد « طقم العساكر » الذين يعتبرون أعضاء قدماء فى حزب الاتحاد .

« ط »

الشيوخ

من الأعيان والأطباء والصيادلة

وهم :

١ — إبراهيم فراج (الشيخ)
٢ — أحمد إبراهيم عطاالله بك
٣ — أحمد حميد أبو ستيت بك
٤ — أحمد عبده بك
٥ — أحمد قرنى بك
٦ — أحمد همام حسين بك
٧ — إسماعيل محمد عبدالله فواز (الشيخ)
٨ — أصلان قطاوى بك
٩ — السيد محمد الأتربى بك
١٠ — السيد محمود الشندويلى بك
١١ — ألكسان أبسخرون باشا
١٢ — بهجت السيد أبو على بك
١٣ — جاد قنديل (دكتور)
١٤ — حافظ المنشاوى باشا
١٥ — حسن أبو الفتوح بك
١٦ — حسن حسن عزام بك
١٧ — حسن رشوان حمادى بك
١٨ — حسن سالم الغراب افندى

١٩ — حسن محمد الوكيل أفندى
٢٠ — حسن محمد شعير أفندى
٢١ — حسنين مصطفى حمزة بك
٢٢ — حسنين صالح خليفة (الشيخ)
٢٣ — حفنى محمود بك
٢٤ — رشيد أحمد عبد الله (دكتور)
٢٥ — زكى ميخائيل بشاره (دكتور)
٢٦ — سليمان أباظه بك
٢٧ — سليمان مصطفى خليل أفندى
٢٨ — سيد بهنس بك
٢٩ — سيد قرشى بك
٣٠ — شارل بشرى حنا أفندى
٣١ — شفيق سيدهم إلياس بك
٣٢ — صالح مصطفى أبو رحاب بك
٣٣ — صلاح الدين الشواربى بك
٣٤ — عباس أبو حسين باشا
٣٥ — عبد الحميد أمين عزب (دكتور)
٣٦ — عبد الحميد سليمان أباظه بك
٣٧ — عبد الحميد فهمى (دكتور)
٣٨ — عبد الخالق سليم (دكتور)
٣٩ — عبد الرحمن برهان نور (الأستاذ)
٤٠ — عبد الرحمن فتوح أفندى
٤١ — عبد العزيز محمد الجمال بك
٤٢ — عبد السلام عبد الغفار بك
٤٣ — عبد الفتاح اللوزى بك
٤٤ — عبد اللطيف اسماعيل زعزوع أفندى
٤٥ — عبد الله أرسلان بك
٤٦ — عبد الله لملوم باشا
٤٧ — عزيز ميرهم (الأستاذ)
٤٨ — عفيفى حسين البربرى أفندى
٤٩ — على رمضان الطوبجى (الشيخ)
٥٠ — على عيسى نوار أفندى
٥١ — على محمد مروان (الشيخ)
٥٢ — عوض برعى بك
٥٣ — فهمى حنا ويصا بك
٥٤ — فوزى ناشد أفندى
٥٥ — كامل إسحق أبادير أفندى
٥٦ — لويس أخنوخ فانوس (الأستاذ)
٥٧ — محمد إبراهيم بريرى (الشيخ)
٥٨ — محمد أبو النصر الفار أفندى
٥٩ — محمد أحمد الشريف بك
٦٠ — محمد أحمد فرغلى باشا
٦١ — محمد الحفنى الطرزى باشا
٦٢ — محمد المغازى عبد ربه باشا

٦٣ — محمد أمين حسين مرعى بك
٦٤ — محمد توفيق اسماعيل بك
٦٥ — محمد توفيق راضى بك
٦٦ — محمد رشوان الزمر بك
٦٧ — محمد سليمان الوكيل باشا
٦٨ — محمد صالح بك (دكتور)
٦٩ — محمد عبداللطيف أفندى (صيدلى)
٧٠ — محمد عبدا لمجيد العبد (الأستاذ)
٧١ — محمد علوى الجزار بك
٧٢ — محمد فهمى صادق شتا أفندى
٧٣ — محمد كمال علما باشا
٧٤ — محمد محمد الوكيل (الأستاذ)
٧٥ — محمد مرزوق (الأستاذ)
٧٦ — محمود احمد محسب بك
٧٧ — محمود عبد النبى بك
٧٨ — مرسى وزير بك
٧٩ — مصطفى رشيد بك
٨٠ — منصور حسين السلواوى (الشيخ)
٨١ — منصور لطيف بك
٨٢ — يوسف يوسف الشرنوبى (الشيخ)

٣٤ — عباس باشا أبو حسين

وأنت ترى من هذه القائمة أن عدد الأعيان من الشيوخ قد جاوز نصف عدد الشيوخ جميعاً ، حتى بعد أن تخرج منهم أولئك الذين كتب أمام أسمائهم فى البيان الرسمى كلمة « دكتور » فضممناهم جميعاً إلى الأعيان حتى لا يكون من بينهم طبيب بيطرى أو دكتور فى غير الطب .

ومن هذا يتبين أن مجلس شيوخنا هو مجلس الأعيان حقاً كما يسمى فى بعض الدول . . .

وقد وقع اختيارى على ثلاثة منهم ممن سبق لى أن كتبت فى « البلاغ » عنهم تاركا جميع الباقين إلى الجزء الثانى إن شاء الله .

وأول هؤلاء الثلاثة المختارين هو الشيخ المحترم السابق عباس باشا أبو حسين الذى أخرجه مرسوم فبراير ولم يعده مرسوم مارس .

آل أبوحسين :

آل أبو حسين يعيشون فى « كفر ربيع » من أعمال مركز تلا « منوفية » وعباس باشا عميدهم الحالى يعيش فى عزبته التابعة لكفر ربيع .

أبطل مرسوم فبراير تعيينه ولم يعده مرسوم مارس

وتعيينه عضواً فى الشيوخ يمثل أعيان المنوفية ليس بغريب ، فآل أبو حسين يمثلون هذا الإقليم من قديم ، وفى صفحة ٩٧ من الجزء الثانى من كتاب «عصر اسماعيل» لصديقنا الشيخ المحترم والمؤرخ والمحامى عبد الرحمن الرافعى بك تجد أسماء الأعضاء الذين أسفرت عنهم الانتخابات الأولى ، وتألف منهم المجلس النيابى المصرى الأول فى سنة ١٨٦٦ وقد فاز بتمثيل المنوفية يومئذ حضرات الحاج على الجزار عمدة شبين الكوم ، ومحمد أفندى شعير عمدة كفر عشما ، وموسى أفندى الجندى عمدة منوف ، وأحمد أبو حسين عمدة كفر ربيع وحماد أبو عامر عمدة جنزور وعلى أبو عماره عمدة مليج ومحمد الإنبابى عمدة جزى .

من قرابة مائة عام إذن كان لآل أبى حسين شأن ، وفى مختلف المجالس النيابية التى قامت فى هذه البلاد وجد من آل أبو حسين نواب ، فلا عجب أن يعين عميدهم الحالى عضواً فى الشيوخ ، بل إن من دواعى الأسف ألا يجدد تعيين الرجل .

الشيخ عباس باشا :

هو أحد الشيوخ الطيبين . ويعد فى طليعة الأعيان المثرين . وهو

ممن أنعم الله عليهم بوفرة فى الشحم واللحم . و بسطة فى الطول والعرض . وممن أنعم عليهم صاحب الجلالة الملك برتبة الباشوية فى العام الفائت ، و بتعيينه عضواً فى الشيوخ تقديراً لأريحيته فى التبرع ببضعة آلاف استجابة لنداء المليك الشاب إلى الرحمة بالحفاة .

جاء عباس باشا أبو حسين إلى المجلس ، فأقسم اليمين وجلس بين شيوخ الأحرار الدستوريين ، فحسدنا فيه الصحة والعافية والبدانة غير المترهلة ، والنشاط فى المشية ، والأدب الجم فى الجلسة ، والسمرة الريفية فى اللون ، والصفاء والسعة فى العين . . ولكنا راهنا عليه من ناحية أخرى . وتنبأنا بأن الرجل لايمكن أن تكون له صلة بالبديع والبيان ، أو بالنحو والصرف ، ولا يمكن أن يخطر بباله يوماً أن يشق طريقه إلى الخشبة التى تشيب العقول .. خشبة المنبر .

حكمنا عليه سلفاً . . وكانت حيثيات حكمنا قائمة على حسبة تعارك فيها السادة الأجلاء « حجم الجسم وكروية الرأس ، وأدب الجلسة وعلم الفراسة وسيكولوچية الملامح » ولكن عباس باشا خيب هذا التقدير كله .

مفاجأة :

وذات يوم سمعنا الرئيس السابق يناديه ، ثم يدعوه ، ورأينا الشيخ يستجيب للدعوة ويلبى النداء . . ويشق طريقه فى نشاط إلى حيث المنصة فحزرنا أن يكون الرئيس فى حاجة إليه . . « يوشوشه » فى أمر . . فيصدع الشيخ « بالوشوشة » ويعود إلى قاعدته سالما .

ووقعت الواقعة ! وفتحنا الأفواه . وتبادلنا نظرات التساؤل صامتين ، لأن الشيخ قصد إلى المنبر ، و بدأ يخوض فى الموضوع الخطير ، موضوع القطن بيننا و بين الحليفة ، و بصوت متزن لايخلو من رنين . وفى ثبات الخطيب الوقور الرزين ، وفى أسلوب فصيح ، ومخارج سليمة ، بدأ الشيخ يتكلم عن الحليفة

فى مرونة السياسى ، وعن القطن بأسلوب الاقتصادى ، وعن مصر بلهجة الوطنى ، ثم يوجز ثم يبارح المنبر وقد خلف وراءه فكرة طيبة .

ولكن غموضاً أحاط بالشيخ فلم يُنِرْ أمام النقد سبيلا . فقد كان الشيخ قليل الحركات والإيماءات ، وكان يلقى العبارات على نمط واحد ، بحيث يجوز أن يكون مرتجلا قويا ، ويجوز أن يكون «حافظاً» ماهراً ، يلقى فى ثبات ما استظهره ، من غير أن تعرف إن كان الشيخ مرتجلا أو غير مرتجل . . . وقد رد على كلمة وجهت إليه رداً من عنده فلم تلازمه السلامة اللغوية تماما ، فملنا — بعض الشىء — إلى الاعتقاد بأن الشيخ غير متمكن فى اللغة ، وأن السلامة الأولى قد تكون نتيجة الإعداد « والحفظ » .

وقد حييته فى وصفى تلك الجلسة التى تكلم فيها بكلمة حمد أردت بها أن أشجعه ليأخذ على المنبر فيعاود اعتلاءه . ولنلتقى نحن بالنا إليه ، فنحكم له أو عليه ، ولكن الشيخ « لم يعدها » مع الأسف . .

والشيخ جم الأدب كما قلت لك ، وكان قليل الاختلاط بزملائه .. لا يتحدث إلى أحد ولا يحدثه أحد . . إلا إذا التقى بمواطنه عبد القوى باشا أحمد فصافحه ، أو بمواطنه الآخر علوى بك الجزار فحادثه ، فاذا زار عباس باشا المقصف ألقى علينا التحية فى أدب . . ومما لاحظناه عليه أن به « حركة عصبية » تلازم وجهه بين وقت وآخر .. ولكنها حركة خفيفة لا يمكن أن يلاحظها غير المدققين من « الفضوليين » أمثالنا ! ! !

وقد حدثنى أخيراً الوجيه الأستاذ سعيد أبو حسين — و بعد أن أبطل مرسوم فبراير تعيين الشيخ فيمن أبطل تعيينهم — عن قريبه عباس باشا فأفاض الأستاذ سعيد علينا كثيراً من الصفات النبيلة التى يتصف بها عباس باشا ، وأكد سعيد أن عميدهم يمتاز بذكاء واطلاع وطيبة وتجارب ، ويملأ مركزه العمادة عن جدارة ، وأنه أكمل تعليمه الثانوى فى شبابه ، وله من تجاربه ما عوضه عن التعليم العالى .

وقد كان من رأى بعض أفراد الأسرة أن يرشح عباس باشا نفسه لعضوية مجلس النواب الحالى ، ولـكنه آثر أن يتقدم لهذا الترشيح الشاب النابه الأستاذ محمد بك عبد الله أبو حسين ، فنازل مرشح الوفد وفاز عليه ، وهو اليوم عضو معروف ونابه فى مجلس النواب ، وسيكون له نصيبه من الجزء الثانى إن شاء الله ، ونحسب أن فى هذا القدر الـكفاية .

٤٢ — عبد السلام بك عبد الغفار

ولقد كان بودى أن أتحدث عن عبد السلام الشيخ الحالى لا عن عبد السلام الشيخ السابق ، ولـكن .. بهذا الحرمان جرت الأقدار ، فخلت قاعة الشيوخ من الرجل الصريح والصوت الجهورى والفلاح والوطنى .

أبطل تعيينه مرسوم فبراير
ولم يجدده مرسوم مارس الماضى

تنظر إليه وتستمع إليه ، ثم تتفرس فيه لتحسن الحـكم عليه ، فلا يسعك إلا أن ترى فيـه شيخاً من شيوخ الريف ، أوفده « الفـلاح المصرى الصميم » إلى دار النيابة لينطق بلسانه ، وليعبر عن إرادته ، وليجىء تعبيره صريحاً صراحة هذا الريف ، عنيفاً عنف الأقليم العظيم الذى أنبت الشيخ ، قوى البنية ، جهورى الصوت ، مندفعاً إلى غايته ، غير مبال ما يباليه المشتغلون بالسياسة من اعتبارات ، وأعنى بالأقليم العظيم « مديرية المنوفية » فاذا عرفت بعد هذا أن الشيخ متعلم فى انجلترا . . عجبت وشكـكت ! !

ويبدو أن ضخامة الصوت تراث «غفارى» لأن شقيقه أحمد باشا عبد الغفار رجل أميل إلى النحافة ، لاتشك حين تراه فى أن له صوتاً ضعيفاً أوخافتاً ، فإذا تكلم سمعت منه مايسمعك الميكرفون حين يضخِّم الصوت الأجش .

على أن صوت عبد السلام يتصل — أو يكاد — بأجهزة إصدار من خالص الأعصاب ، هى التى تتحكم فيه إثارة وتهدئة ، فيمضى أحيانا فى صوت ملىء متزن..و «بغمزه بس» من الرئيس السابق .. أو من لويس ، أومن شيوخ الشمال ، كانت مراكز الإصدار تنشط فى عبد السلام ، فيهدد الشيخ ويزمجر وتمسك به العصبية ، وقد يخالجه شعور بالرغبة فى أن يلقى بالمقاطعين إلى الخارج ، أو يسكتهم عنوة فيضرب المنضدة بيده « ويزعق » فى الشيوخ « زعقات » مخيفة .. ويتكىء بأسنانه — أعنى بطاقم الأسنان — على عروق وجهه حتى تبرز ، ولا يفيق إلا بكلمة تضحكه فتعيد « السلام » إلى « عبده » أو تحمله على مبارحة المنبر والقاعة بغير « دور » ولا « حاصدور » ليشرب شيئاً ما من المقصف ، أو ليدخن لفافة فى مدخل القاعة .. وبغيرها لايهدأ .

انجليزيته ؟ !

تعلم الشيخ فى بلاد الإنجليز .. فهل إذا عرفت هذا وبحثت ودرست .. تعثر على مايعزز تلك المرحلة التى قضاها الشيخ هناك ؟ عندى أن الشيخ لايخلو من علائم تدل على هذه الناحية وإليك بعض هذه العلائم :

١ — وجهه مشرب بالحمرة ، وهو لون يقر به من انجلترا ، ولم يستعره طبعاً من ثقافتهم ! ! !

٢ — إيمانه بالديموقراطية ، ودفاعه عن انجلترا فى الحرب القائمة ، برغم وطنيته وشجاعته فى هذا الدفاع الذى ظهر مرتين ، مرة فى مطالبته بدخول مصر الحرب إلى جانب الحليفة ، ومرة فى رده على الحملة التى وجهت إلى موقف بريطانيا من

مسألة القطن وإعلانه أن موسوليني لو فتح مصر لما أبقى على ظهرها زرعا ولا ضرعا

٣ — ترديده دائما كلما قوطع كلمة «بردون» وإن كان يؤقلمها فينطقها بالباء العربية المخففة .

٤ — سعة صدره فى تقبل نقداتنا البرلمانية و « قفشاتنا » له برغم «عصبيته» وهى ظاهرة غريبة لا أجد لها تعليلا إلا تقليده الإنجليز فى احترامهم الصحافة وإجلالهم النقد .

٥ — ديموقراطيته حين تراه مطوفا بطرقات العاصمة « بياده » آخذاً مكانه من « لبان تريانو » الذى أعفى قانون الضرائب جمهرة رواده من ضريبة الدفاع الوطنى أو كاد رحمة بمرتباتهم المتواضعة .

وهذه هى العلائم الخمس التى تمتّ بسبب قريب أو بعيد إلى دراسة الشيخ، أما ماعداها فناطقة بأنه شيخ ريفى ومن صميم الريف .

طريقته وخفة روحه :

والشيخ كان يعتبر فى جبهة اليمين قوة يقاوم بها ضجيج شيوخ الشمال إذا ضجوا .. فاذا نحن اعتبرنا القاعة مدينة . . واعتبرنا المؤيدين « حيا » من أحيائها .. فقد جاز لنا أن نعتبر الشيخ « فتوة » لهذا الحى كما يقول « أولاد البلد » .

وطريقة عبد السلام بك كان المغفور له الأستاذ يوسف الجندى يحسب لها حساباً كبيراً ، وفى إحدى الجلسات اشتدت مقاطعة عبد السلام ليوسف، فابتسم ذو الناب الأزرق للرجل الطيب وقال له : « ما عهلش ياسعادة عبد السلام بك.. أنا سأرد دلوأت حالا على سعادتك » وهدأ عبد السلام ولم يرد على يوسف ودق الرئيس شاكوشه فقال عبد السلام للرئيس « أهو أنت اللى طيّرت كل اللى فى مخى ياراجل انت » وضحك الشيوخ وجلس عبد السلام .

وكذلك كان يداريه الرئيس السابق فى كثير من الأحايين ، ويمزح معه كلما

التقى به ، ويبدو أنه «يستظرفه» فعلا أو «يستخف دمه» كما يقولون ، وإن كان عبدالسلام أثار مرة ضجيجاً ضاق به صدر الرئيس فقصر المسافة بين الشيخ وبين زميله لويس . . وثارت يومئذ أعصاب الأجراس و « الشواكيش »

ومن عيوب عبد السلام إصراره على الشيء ولو كان خطأ . فقد كان خصما للدكتور إبراهيم مدكور فى الطعن المزمن الذى ظل معلقاً ثلاث سنوات ، وظل عبد السلام على هذه الخصومة يندد فى كل جلسة بالشيوخ الذين «سابو الجدع ده لغاية ما كمل الأربعين سنه وزاد » و « ده عيب جدا فى حق شيوخ الأمة» و « ده مش كلام أبداً » . . ثم دارت الأيام وجاء دور الطعن المقدم فى الأستاذ عبد المنعم للموم وهو شبيه بطعن مدكور . فانفرد عبد السلام بالدفاع عن للموم بعد أن كان منفرداً بالهجوم على مدكور . . فهل كان للحزبية دخلها . . أم (طلعت فى مخ الشيخ و بس) أم ماذا ؟ لا أملك الجواب على هذا .

وعبد السلام بك يعتبر فى طليعة المتكلمين من حيث عدد المرات التى اعتلى فيها المنبر ، وعدد المرات التى قاطع فيها خصومه السياسيين أو غيرهم ، ولكنه غير بليغ فى العبارة ، وغير سليم فى اللغة ، وغير مرتب فى التفكير ، متى ثار وفقد السيادة على الأعصاب . . . أما إذا ترك هادئا فان كلامه ينهض دليلا على أن له تفكيراً يصيب كثيراً . . وعنده شجاعة لا يتهيب معها رئيساً أو وزيراً ، وهو مؤمن بحق الفلاح والعامل والفقير ، يذكرهم بالخير فى كل لحظة ويطالب لهم بالخير فى كل حين .

٥٦ — الأستاذ لويس فانوس

ويتساءل بعض الشيوخ عن مبعث هذه الحيوية التى تدب فى أوصال لويس فتجعل منه « شيخاً كهر بائياً » يثب هنا وهناك فى نشاط لا تلحظه على

ابن العشرين و « يزعق » على صورة كافيـة لإثارة أعصاب الهادىء وغضب الحليم ، بل على صورة لا تخلو من خطر على صحة صاحب العقل السليم والجسم السليم .

شيخ معين عن دائرة الواسطى
« مديرية أسيوط » فى ٧ مايو سنة ١٩٣٦

وأنا أعتقـد أن هذا النشاط (اللويسى) مرض . . . لا عافية ، فاذا علمت أن صديقنا لويس . . مصاب فعلا بأكثر من مرض ، ولا يعـد سليما من الوجهة الصحية ، أدركت أن هذه الثورة نوع من « المرض العصبى » وأنه فى حاجة إلى جرس الرئيس الكابح .. حاجة بعض الأمراض إلى « جهاز فهجر الواقى »

والخلاف الذى يثور فى بعض الأحايين بين لويس والصحفيين ، دليل على أن الشيخ لا سيادة له على أعصابه ، وأن الزمام يفلت منه من حيث لم يرد له صاحبه إفلاتاً .. لأن لويس لا يتكلم إلا من أجل الصحافة ، وقد جرت عادة الشيوخ — إذا بدأ يتكلم — على هجر القاعة فاذا ما « صفصفوا » على خمسة أو عشرة ظل لويس يرفع وجهه إلينا قائلا « سأتكلم ولتشهد الصحافة وليسجل التاريخ » فلما أردنا أن نداعبـه يوماً وهممنا بالانصراف ، التفت إلى موظفى المضبطة وقال : « يا حضرات المضبطة . . »

اللويسات :

وقد ألف لويس أن يتكلم ،وأن يكون له من كل كلمة « لويسية » تنشر له فى نقدنا فى « البلاغ » حتى أسماه الشيوخ بـ (اللويسات) وكان فى بداية أمره

يزور « البلاغ » ويشكونى إلى المغفور له عبد القادر حمزه باشا كما ذكرت فكان يتلقاه بابتسامة هادئة ويقول له (روح اتفاهم معه هوه . . ده شغله) وقد تذوق لويس (الطعم) حتى (أخذ عليه) . . بل حتى أصبح يثور إذا خلا (البلاغ) من (اللويسيات) لأنه يعتقد أنه لم يحسن (الهيجان) .

اللغة والثورة :

وللويس أكثر من ميزة . . عكسا وطرداً . . فالميزة الأولى انقطاع الصلة بينه وبين « النحو » مع أن كلامه كله « بالنحوى » وهو ينطق كلمة « مهمة » بكسر الميم مثلا فاذا أصلحت له ثار فى المصلحين ، ولعن أبا خاش واضع النحو وأعلن أن مرض السل الذى يطالبنا بالعلاج أشد خطورة من « الهجص بتاع النحويين ده » .

وميزته الكبرى اعتقاده أن حرية الكلام كفلها الدستور لكل شيخ بغير قيد أو شرط ، ولو ظل أمام المنبر عشر ساعات « يدردش » و « يلخبط » وكان الرئيس السابق إذا حاول إسكات « لويس » اندلعت نيران الثورة التى لاتبالى شيئا ولا تعرف حداً ، وشبت حرب قصيرة قد تستدعى إليها طبقة من بوليس البرلمان العامل لإخراج الشيخ الثائر . . . فتعيد إلى الذهن تلك الحروب القصار بين الجمهوريتين « النونو . . » بيرو وا كوادور اللتين تحاربتا مرة لأن ذكران الحمام الاكوادورى اعتدت على إناث الحمام فى بيرو كما يقول أهل المجون الدولى !

وقد حدث مرة أن هاج لويس وماج ، وظل يقذف الرياسة بكلمات لا تخلو من خشونة . . وأكثرها رقة : « مين انت اللى تمنعنى » و « حقوق الشعب يعتدى عليها الرئيس » و « إن كنت جدع نزلنى » وعبثا حاول الرئيس السابق إقناع الشيخ بالحسنى ، فاستدعى ضابطى البرلمان فوقف أحدهما إلى يمين الشيخ والآخر إلى يساره

فأعلن لويس أنه يقابل القوة ، بالقوة ، وكان موقف مؤلم أشرت إليه قبلا فى بحثى البرلمانى فى هذا الكتاب .

ميزة وسيئة :

وللشيخ ميزة سرعان ما تنقلب سيئة . ميزته أنه كثير الاطلاع دائمه ، يُعد مراجعه ويظل يطوف طوال يومه بالدواوين جامعا مختلف الإحصاءات ، حتى إذا جاء الجلسة ، وكان لديه من البيانات والمراجع مالو ألم بها شيخ « مرتب هادىء » لأقام بها الدنيا وأقعدها ، ولكن لويس مشعث الذهن ، غير سليم الأعصاب ، لايحسن العرض ، فهو إذا تكلم تفتحت أمامه الأبواب ، فلا يعرف أيها يأخذ وأيها يترك ، فاذا طالبه الرئيس بالإيجاز ، عاودت الشيخ الثورة و « وتلخبط » فى ذهنه ما أعد ، فانطلق « يعربد » و « يصيح » ويطرق المائدة بيديه على طريقة تشنجية لا طعم لها . . ومن هنا لا فائدة فى إحصاءاته ولا انتفاع بغزارة معلوماته

وللويس موضوعات بعينها . . ياويلها إن ورد ذكرها . فى ميزانية أو تقرير أو اقتراح ، أو جرت « عرضاً » على لسان خطيب ، فان لويس يثب ساعتئذ صائحاً ليردد خطباً لا آخر لها . وكلاماً معاداً ردده ألف مرة . . ومن هذه الموضوعات « حدوتة غطاء الذهب » و « المستشفيات المركزية » التى تتركز أخيراً فى مستشفى البدارى و « الفلاح » « والجوع والمرض » « والقطن » وهذا لايمنع الشيخ من تناول « كل موضوع » حتى لقد طاب له فى هذه الدورة أن يطلب الكلمة فى (الأزهر والمعاهد الدينية) فلما ضج الشيوخ بالضحك ، أصر على موقفه وتكلم معلناً وجوب الإكثار من الوعاظ المسلمين . (وانبسط) لويس عندما صافحه الشيخ الفحام بصفته وكيلا للأزهر و (هنأه) .

رجل ذو ماض :

ولويس رجل ذو ماض أيضاً . . . تعلم فى انجلترا وكان زميلا للمغفور له

محمد محمود باشا وله معه (حواديت) كثيرة ، وشهد جلسات عصبة الأمم ، ودافع عن عزيز المصرى باشا فى استانبول ، معتمدا على صداقته — أى لويس — لأنور باشا فى ذلك الحين ، وله فى هذا المجال أحاديث لاتنفد ولا تبلى ، وإن كان لايصلح محدثا .

وفى سبيل هذا الوطن .. وبسبب الهوس العلمى أضاع لويس كل ما كان يملك

لويس أخيرا :

على أن لويس فى هذه الدورة قد هدأ تماما .. وأصبح يتشبه بالساسة ، ويتلقى عنهم فى الدروس دهاء لم يكن له .. وقد جاءه رئيس جديد للشيوخ ، فلم يعكر بينهما الصفو بعد ، ولم يثر لويس حتى اليوم ، وهو فى الخلاف الأخير الذى ثار بين النحاس باشا ومكرم باشا صديق الفريقين ، رأيته يعانق وزير التموين الحالى يوم ألقى بيانه ، ويخرج من القاعة باحثا عن مكرم باشا حتى إذا التقى به فى الردهة (أخذه بالحضن) .[1]

« ى »

الشيوخ

من المحامين الأهليين والشرعيين

١ — أحمد الديوانى بك

٢ — أحمد رمزى بك

٣ — أحمد نجيب براده بك

٤ — إسماعيل حمزه (الأستاذ)

---

(١) وقد عتب لويس علينا بعد صدور الطبعة الأولى إهمالنا الإشارة إلى إصلاحاته . ونقول أننا سنعود إليه وإليها فى الجزء الثانى إن شاء الله .

٥ — حسن عبد القادر (الشيخ)
٦ — حسين الجندى (الأستاذ)
٧ — خيرت راضى بك (الشيخ)
٨ — رزق أخنوخ (الأستاذ)
٩ — زكريا مهران باشا
١٠ — عازر جبران (الأستاذ)
١١ — عباس الجمل (الشيخ)
١٢ — عبد الرحمن الرافعى بك
١٣ — عبد الرزاق القاضى (الشيخ)
١٤ — على كمال حبيشه بك (وكيل المجلس)
١٥ — غبريال سعد بك
١٦ — محرم فهيم بك
١٧ — محمد نجيب محمد جمعه (الأستاذ)
١٨ — ميشيل رزق (الأستاذ)
١٩ — وهيب دوس بك

٥ — الشيخ حسن عبد القادر

نختار الآن من الشيوخ المحامين ثلاثة ممن سبق أن كتبنا عنهم ، وندع الباقين إلى الجزء الثانى .

وأول شيخ من الثلاثة هو شيخنا وملاذنا المحامى الشرعى شكلا والأهلى موضوعاً . حسن عبد القادر .

اقترن اسمه فى الأذهان أكثر من عشر سنين بالخصومة لزميله الأستاذ

لويس فانوس على طريقة القط والفأر ومرت السنون . . . ثم تقدم الشيخ حسن وتخلف لويس ، فرأى عم الشيخ أنه غدا (أكبر) من هذه الخصومة فخلفها جاثمة فى سجل التاريخ النيابى وفى هلاله .

شيخ منتخب عن دائرة المحلة الكبرى
فى ٧ مايو سنة ١٩٣٦

وقد صادف الرسام شيخناً حسن وهو (يقصع) العمة ، فرسمه على هذا الوضع ، وإن كان الحق أن الشيخ فى وضع العمامة أميل إلى « زحلقتها » كالطربوش على رأس شفيق باشا ..

وهو فى زيه (مهرجل) كشفيق باشا أيضاً ، فالحزام لا يمنطق القفطان بإحكام ، والجبة تترك للهواء يعبث بها كما يشاء ، والأكمام فضفاضة تستجيب فى يسر لرغبة الشيخ فى رفعها و تشميرها كلما هم بالكلام ، ولست أعدو الحق إذا قلت إن شفيق باشا والشيخ حسن ، لو أنهما وقفا يتحادثان فى سوق أقطان لما شككت ، من ناحية الشكل ، فى أنهما (سمساران) عريقان ، دوختهما الصنعة فأصبحا من (أبناء السوق) .

طريقة الشيخ :

وينفرد عم الشيخ حسن عبد القادر « بطريقته القادرية » التى تدل على الخبرة ، وله (عينا صقر) تساعدانه على الإيحاء بالمعنى المراد ، وله (ابتسامة

ساخرة) تنوب أحيانا عن الكلام فى تأنيب المقاطعين ، أو العتب على المعارضين، أو تخلصه هو من ورطة وقع فيها أو خطأ تردى فيه .

وهو لايخاطب الشيوخ إلا بكلمتى (يا حضرات الإخوان) ويستخدم الفصحى فى بعض الأحيان ، ولكنه يهجرها متى رأى فى (الكلام البلدى) تفوقا فى أداء المعنى الذى يريده ، وإذا لجأ إلى الطريقة (البلدى) فله تعبيرات حقوقها محفوظة له وحده ، وبعضها يضحك الثكلى ، وهو محام قديم من طاقم « ذوى الكفاية والخبرة » .

أما ثقافته فوليدة (السوق) خضرمته الحوادث فألم بالكثير ، وأصبح يحسن فيما ألم به طريقة العرض، بعد أن يجوز مراحل التفكير ، ولكنه أحيانا (يحشر) نفسه فى فنيات لاقدرة له على هضمها ، ويطلب لها إيضاحا ، فإذا قيل له إن الاقتصاد الحديث يقضى بهذا ، صاح فيهم « يقطع الاقتصاد الحديث على القديم . فهمونا الحكاية إيه بالعقل . هوه العقل فيه قديم وجديد يا إخوانى » فاذا لم يفهم ضرب جبينه بيديه وحوقل قائلا (غفرانك يارب) ثم عقب ساخرا (فهمنا خلاص . والحمد لله) أما إذا فهم حقاً قال (أيوه كده .. الوأت اقتنعنا) .

خطيب الميزانية :

ويعتبر الشيخ حسن عبد القادر من «خطباء الميزانية» وهو طويل الباع — أحياناً — فى مقاومة « الكلفتة » التى كانت تسوس بها الرياسة بعض الميزانيات، لأن الشيخ إذا أراد الكلام أصر عليه ، ولفت الأنظار إليه ، وأعاد إلى «الجواليت» كثيراً من الحياة بخفة روحه .. كانت ميزانية وزارة التجارة تنظر ذات سنة ، ومالت الرياسة إلى « كلفتتها » وطلب الشيخ الكلمة وأصر عليها فأعطيها .. وكان التثاؤب يسرى بين أفواه الشيوخ مسرى النار فى الهشيم ، فأراد الشيخ أن يوقظ زملاءه فصاح فيهم بأسلوبه الفريد :

— والأكاده ياحضرات الإخوان إن بين الوزارات كمان وزارات ميته ... تعرفو أيه ؟

أصوات — التجارة .

الشيخ حسن — الله يفتح عليكم .

وعلت الضحكات فكانت اليقظة التى يريدها الشيخ من الشيوخ .

تخريمات :

على أن للشيخ — والحق لا ينكر — « تخريمات » تذكر ، فقد وقف مرة يتحدث عن أوراق النقد الجديدة ، فقيل له إن الورقة من فئة الخمسة وعشرين قرشاً يضمنها البنك الأهلى ، وأما ذات العشرة أو ذات الخمسة فتضمنها الحكومة ، فضرب الشيخ كفاً بكف ، واستعاذ بالله من هؤلاء الذين لا يريدون أن يفهموه ثم قال :

— يا أسيادنا يا وزراء . أنا ما بتكلمشى فى الضمان . . أنا عايز أسأل ليه ما عملتوش ورقة بريال ؟

وأجابه رئيس الوزراء « سرى باشا » :

— لأنى لما أعوز منك ريال آخذ منك ورقة بخمسة وعشرين وأعطيك ورقة بخمسة .

ومع أن الشيوخ ضجوا بالضحك من سؤال الشيخ ، فقد جلس هو يهز رأسه ، ويستعيذ بالله من الذين لايفهمونه ، ويظهر أن الشيخ الأوحد الذى فهمه هو الذى قال له مازحا « تكونش أنت متعاطى النهرده ورقه من فئة الخمسه دى ياسى الشيخ ؟ . . »

رجعية الشيخ :

والشيخ برغم مواهبه واقتداره — رجعى التفكير ، فهو لا يحلو له إلا

مهاجمة التمثيل متأثراً بعقيدة جيله فيه ، حتى أنه لا يسمى المسرح غير «البتاع اللى اسمه التيترو اللى عاملين له عشرة آلاف » وهو يهاجم الفرقة « القومية » فى كل عام على هدى هذه « المدرسة القديمة » فلا يوفق ، لأنه لا يذكر من عيوبها مثلا قلة « الرواية المصرية » فى نتاجها ، بل يهاجمها من حيث أنها « تيترو » وأن الفلاح أولى بالفلوس منها ، كأن الفن الجميل وحده هو الذى يستنفد ستة وأربعين مليوناً[1] ، فيأخذ على الفلاح طريق الإصلاح ، وإذا ضاقت بالشيخ طرائق الهجوم ، صاح فى الشيوخ « ما هو الجدع اللى اسمه على كسار بيمثل ويسلينا ، والريحانى والتانى اللى اسمه يوسف وهبى ولا بيكلفونا لا إسود ولا أبيض » .

هس . . سمع :

وفى إحدى السنوات الفائتة رأى الشيخ أن يرتدى « روب الفن » ليقال إنه مجدد ، فوقف يطلب تخصيص الإعانة للفن الذى يستحق ، ولما سئل ما هو ؟ أجاب « التخت وإخوانا الآلاتية ، الظراف الحلوين بتوع زمان . . آدى الفن صحيح » وضج المجلس بالضحك ، فصاح أحد الشيوخ فى أصحاب الضجيج « هس . . سمع » فكانت فى الموضوع و « سخسخ » الشيوخ .

والشيخ حسن — على فكره — هو « الصدر الحنون » للشيخ حسن بك عزام ومستشاره الأول ، وجليسه فى « البوفيه » ومختلف مقاهى العاصمة . . يطلب الشيخ لنفسه خشافا . . ولعم الشيخ حسن شيشة والذى حارت البرية فيه . . صداقة قامت بغير « تمازج فكرى » بين شيخنا ذى النشاط . . وحسن بك عزام . . « التقيل » .

---

(١) هذا ما جاء فى الطبعة الأولى ونحب أن نلاحظ أن رقم ميزانية الدولة فى هذا العام قد جاوز الخمسين مليونا .

الريس . . والزمن :

وعم الشيخ حسن ممن كان الرئيس السابق يحسب لهم (بعض الحساب) طلب الشيخ الكلمة فى ميزانية العام الماضى فى (الفرقة القومية) ولكنه (خرم) منها إلى الموالد وما بها من فسق وفجور . . وزحام ضار بالصحة . . فنبهه الرئيس إلى ذلك فرفع الشيخ بصره إلى السماء وقال يخاطب ربه (يعنى حايبقى الزمن علينا . . والريس كمان) وأجاب الرئيس بين ضحك الشيوخ (مادام الزمن حكم عليك بكده تعمل إيه ؟) فالتفت الشيخ إلى الرئيس وقال : (طيب وحكاية الأغانى المبتذلة والنكت القبيحة اللى فى المجلات إيه رأيك فيها ؟) وأجاب الرئيس (يعنى عايز تشديد الرقابة على الصحافة واحنا لسه ماخلصناش من استجواب أنطون بك) فقال الشيخ حسن فى حركة تمت بصلة القربى إلى مانسميه لطما (ياإخواتى ما للرقابة والقصص بتاعة فلانه حبت فلان والمفعوصه قابلت الملطوش فى التياترو الفلانى ! ! ؟) وأجاب الرئيس « برضه خليك فى الفرقه » ورد الشيخ حسن « خلينى أستريح فى مطرحى أحسن » وصاح الشيوخ « برضه أحسن » فقال لهم مرة أخرى « برضه الله يفتح عليكم » وفى هذا الجو من المرح غادر الشيخ المنبر .

٩ — زكريا مهران باشا

جاء زكريا باشا إلى المجلس ، فوجد أحمد بك رمزى جالساً فى المكان المخصص لزكريا .. ولما كان رمزى بك صديقاً قديماً لزكريا باشا ، بل ومحامياً قديماً لمهران باشا والد زكريا باشا ، فقد أخذ هذا مكانه إلى جواره راضياً ، ثم انعقدت أواصر الصداقة بينهما وبين جلال فهيم باشا واللواء أحمد عطيه باشا ، وبدأ الأربعة الكرام « يُقَرْقِرون » على الكثيرين ، ويفتنّون فى « المقالب » لبعض الشيوخ . .

ويعلقون على كل حركة تبدو . . ويعقبون على كل كلمة تقال . . ويضاربون كاتبُ هذه السطور فى « القفش » لخلق الله . . ثم الّفوا فيما بينهم ما أسموه « رباعى رمزى بيه » قياساً على « رباعى العقاد » .

ويطيب لزكريا باشا أن يكثر من القول بأنه يحب النقد ، وبأن الرجل العمومى لايجوز له أن يكون عمومياً إلا إذا اتسع صدره للنقد ، وأن « الواحد منا لما بيرشح نفسه ويطوف بدايرته يبقى طـــالع وعارف أنه حا يضرب وينضرب . . ويمكن ما يرجعش لبيته وعياله ، فاللى مستعد للرصاص فى السكه ليه يضيق صدره بالقفشه فى الجريده » أو كما قال زكريا باشا .

أيطل مرسوم فبراير تعينه ولم يعده مرسوم مارس الماضى

زكريا مهران باشا :

قصير القامة ممتلىء الجسم واسع العينين « أكرت » الشعر . . أنيق الزى فى أغلب الأحيان . . غير أنيقه فى بعض الأحيان . . حتى ليتبدى فى صورة الفنان ، مرة بإهماله الأناقة ، وأخرى بإسرافه فى « السرحان » .

أديب واسع الاطلاع ، يعنى بمكتبته عنايته بتحفه وسجاجيده ، ويقرأ المؤلفات القديمة بنفس الشهية التى يقرأ بها المؤلفات الحديثة ، ويطالع باللغتين الإنجليزية والفرنسية كما يطالع بالعربية ، وهو مثر طائل الثراء ، ولكنه يؤكد لك أن « الستر من عند ربنا » وأنها « ماشيه بالقدره » وأن « الناس فاكرين تحت القبه شيخ » .

شخصيته :

وعمر زكريا باشا لايجاوز الخامسة والأربعين ،له ماله وآماله ، وله ثروته وجاهه وزكريا باشا فوق العضوية التى كانت له فى الشيوخ ، عضو فى عشرات الشركات التابعة لبنك مصر ، ومعتبر فى طليعة رجال الاقتصاد ، وهو فى ذات الوقت محام كان مشتغلا ثم (استغنى . . .) ولكنه لايزال مقيداً ليتبرع لأصدقائه بالدفاع إذا أعوزهم . . . وهو أيضاً سليم العبارة ، رائق الصوت . . فصيح طلق . . يحسن الخطابة من فوق منبر البرلمان .

رجل توافرت له هذه المواهب فى شخصه وهذه الآلاء من ربه . . كان ينبغى أن يكون شيئاً هائلا فى الحركات الحزبية وأن يكون مسموع الكلمة فى الأندية السياسية . . مرهوب الجانب فى الأوساط البرلمانية . . . مخوف اللسان إذا دعا تحت القبة داعى الكلام .

فهل زكريا باشا كان ذلك الرجل ؟ أو هل خرج زكريا باشا بهذه النتيجة؟ الجواب كلا . .وقد تعرف الأسباب .

النقائص :

زكريا باشا يحب الحياة العامة من زمن ، والدليل أنه رشح نفسه أكثر من مرة ولم يوفق ، وكان التوفيق يفلت منه لأقل خطأ أو بالقضاء والقدر ، ويبدو أن سعادته من فرط إسرافه فى التطلع إلى الحياة النيابية ، ارتسمت لها فى ذهنه صور سماوية مبالغ فيها — فلما عين شيخاً جاء إلى المجلس متهيباً إياه متخيلا له صوراً لا تخلو من شطط الخيال . فلما اصطدم بالحقيقة خاب منه الخيال ، ثم حاول أن يقاوم الخيبة ، ويهاجم بسلاح الحقيقة والمعرفة ، فرأى أن للأحزاب أوضاعاً لاتبالى الحقيقة دائماً ، وللخطب أجواء لاتبالى « المعرفة » أحيانا . . .

ولـكن الشيخ عنيد حينا ومندفع حينا . . وبين العناد والاندفاع من ناحية . . والخيبة والمرارة من ناحية أخرى . . . اضطرب الشيخ ولم يستطع أن يفرض شخصيته كما فعل أصحاب الناب من قديم .

هذا سبب أول

والسبب الثاني أن زكريا باشا « كاشش » فى نفسه — ولا أدرى لماذا — متردد برغم اندفاعه إذا انطلق . .. وعناده إذا أثير ... وكرامته إذا أهين ، وهو يفـكر كثيراً قبل أن يقدم . . . فتتخطاه الفرصة أكثر .

المنطق والمعارضة :

ويقابل هذه النقائص ميزة كبرى فيه و «جرثومة» لايستهان بها . فأما الميزة فسلامة المنطق فى الرجل على شرط أن يكون « رائق المزاج » وأما الجرثومة التى لايستهان بها فجرثومة المعارضة . . . لا تبدى رأيا فى جلسة . . . ما ، إلا مال إلى معارضتك ، وهذه « الجرثومة » كان ينبغى أن ترفع الرجل فى أعين الشيوخ وتجعله من عشاق المنبر ، ولـكن يقابل هذه الميزة ، داء التردد الذى يقضى على جرثومة النقد التى تصحو فيه إذا تحدث إليك وتختفى تحت القبة .

الشيخ زكريا :

ولزكريا باشا — بوصفه شيخا سابقا — جهود تحت قبة البرلمان وجهود فى اللجان ، فأما فى اللجان فوفى لفن الاقتصاد ، عاطفى فى تقدير الشيوخ ، اصطدم فى مسألة القطن وتصريفه ومساحته بشكرى باشا . . . ومن ذلك اليوم والشيخان فى كل شىء كالقط والفأر كما قلت لك قبلا ، ولاحديث لزكريا باشا غـير براعة عبد الحميد سليمان باشا كاقتصادى لامثيل له ، وشفيق باشا « الرجل الدغرى

الراسى » . أما شكرى « فمالوش مثيل فى مسائل الدوابر والنبوك بس . . يعنى كاتب حسابات نضيف ».

ولزكريا اعتقاد فى عبد الحميد بدوى باشا يجعله مؤمنا بكل ما يقول . . . كأنه التنزيل أو كالتنزيل ، وغير مؤمن بوهيب دوس وبخطبه ولو آمن بها الجميع ، وهذا الجموح العاطفى من زكريا قد يصيب الهدف وقد يضله عن كثير .

أما زكريا كبرلمانى « فمش بطال » ، ولكن « لسه بدرى » . . . يقاطع أحياناً من مكانه ... ولا تهمه «زغرات» الرئيس كثيراً ويصر على موقفه ... فاذا كشر الرئيس عن الناب ... وفق زكريا بين « التكشيرة » و « الكرامة » بأن يحتفظ لنفسه بحق الكلام . . ويوافق الرئيس ليتخلص منه . . وتروح المسألة . . ولا كلام ولا حديث .

فاذا صعد المنبر فهو يحسن الكلام . ويتأنق فيه متهيباً له . . فاذا سلك . . ورسخت قدمه لجأ إلى بعض العامية فكان خفيفاً . . فاذا قاطعه بعض الوفديين بغمغمات راح يسأل كل مغمغم منهم : (نعم . . فيه حاجه ؟) وينتهز الرئيس الفرصة للفته إلى أحكام اللائحة من وجوب مخاطبة الرئيس أو المجلس لا الشيخ فلان ولا علان ، فينقطع سيل تفكير زكريا .. مع أنه لو استمر غير مبال غمغماتهم لانقطعت هذه الغمغمات .

وفى زكريا مزيج من الطيبة والدهاء . . ومن الخوف فى صورة التردد ، والشجاعة فى قالب اندفاع . . ساير أنصار الحكومة يوم أخلوا القاعة ، فاحتج زعيم المعارضة بأن هذا الإخلاء متعمد منهم ، ليجعلوا العدد غير قانونى ، وندد بزكريا باشا الذى كان يطلب سرعة البت فى الموضوع ثم (زاغ) .. وكان زكريا بباب القاعة فاندفع كالسهم يمرق إلى المنبر صائحاً بأعلى صوته بأنه يحتج على يوسف ولا يقبل هذه الإهانة . وبأنه (مش نمره) لأى إنسان . . وأنه شيخ ذو ضمير .. فنهض يوسف وسحب – فى مكر – كلمته بالنسبة لزكريا ، وتصافح

الشيخان .. فكان زكريا برلمانياً فى حركته التى جاءت (ستروبيا) وإن كان لفرط طيبته ظن أن يوسف أصبح صديقاً .. ثم علمته الأحداث أنها (شغل برلمان) وليست صداقة إخوان ! !

ويعجبنى من زكريا أنه دائم السؤال عن كل ما لايعرفه .. ومن هنا أتوقع له التقدم . . وكان يلفتنى منه أيضاً مراعاته لمهاب العواصف ، ولما يمس وما لا يمس ، ولما يجوز وما لا يجوز . . ومن هنا أتوقع له أن (يسلك) إذا هو ظل داخل دائرة السياسة .

وأخيراً فالشيخ بعيد عن المجتمعات التى ترتفع باسمه فى سوق الشهرة . . . ولعله يخشى أن تكلفه (متاعب!!!) وهذا البعد عقبه تحول دون كفاية زكريا .. ودون ما ينتظر مثله من صدارة لو أنه (انفرد شويه) . . وقاوم (الكشكشان) حبة وأطلق لمواهبه بعض العنان .

وأخيراً أيضاً يؤسفنى أن يحرم مجلس الشيوخ من مواهب زكريا ولا يجدد تعيينه .

١٣ — عبد الرحمن الرافعى بك

إذا أردت أن أختار من بين شيوخ مصر نماذج نظيفة تزدان بها صفحات النقد البرلمانى وتزهو — نسبياً وعلى قدر الحال — ووقع اختيارى فى طليعة هذه النماذج على عبد الرحمن الرافعى . فان هذا الاختيار يكون فى ميزان أصحاب البديع والبيان « براعة استهلال » .

فان شئت أن تترك جانباً تقاليد الضاد ، وتعاليم البلاغة والفصاحة ، لتبحث عن كلمة من لغة الانجليز يصح انطباقها على سلوك الرافعى فى حياته العامة ، فكرر الكلمة التى وصفت بها شيخاً قبله . . كلمة «Correct» .

ولقد حزرت أن يكون الرجل متزن التفكير ، مرتب الجدل ، من قبل أن

أعرفه عضواً فى المجلس الموقر ، بعد أن أهدى إلى المغفور له صاحب «البلاغ» كتاباً من الكتب التى عرض فيها — أى الرافعى — لتاريخ مصر الحديثة وأبطال هذا التاريخ .. فعهد إلىّ صاحب « البلاغ » بنقد الكتاب ، فقمت بالمهمة ، ولم أعف المؤرخ الكبير من بعض النقد ، فرد بمقال شكر لى فيه تنبيهه على هذه الحقائق .. وجاء شكر الرجل من الصنف الحار الذى لا يجده الناقد إلا فى العلماء الأمناء على العلم والتاريخ ، فلما التقيت كناقد بالرافعى كشيخ ، وأطللت على القاعة الكبرى أتتبع جهوده فى سبيل بلاده ، رأيتنى مصيباً فى استنتاجى .

شيخ منتخب عن دائرة كفر بدواى القديم « مديرية الدقهلية » فى ٢٦ مارس سنة ١٩٤٢

مـــيزاته :

وعبد الرحمن بك الرافعى نظيف الزى فى غير إسراف «مقطقط» التقاطيع .. وسيمها برغم المشيب .. أقرب إلى الحلفاء من حيث لون الوجه .. حيىّ تضاعف كلمة الثناء عليه حمرة الوجه منه ، وفىّ لمبادىء مصطفى وفريد ، لا يترك ملاءمة لإعلان رأى الحزب الوطنى فيها إلا انتهزها ، غير مبال أن يكون روح المجلس فى غير صالحه ، حتى لقد حدث أكثر من مرة أن أصر على موقف يذكر الشيوخ بعبارة « لا مفاوضه إلا بعد الجلاء » فضج الشيوخ بالضحك ، اعتقاداً منهم بأن هذا الشعار لم يعد له بعد المعاهدة — وفى الموقف الدولى الحاضر — محل ..

لـكن الرافعى واجه ضحكهم فى ثبات ، وأصر على موقفه ولم تشبه غير حمرة الوجه التى يعبر بظهورها عن الحياء تارة وعن الخجل تارة أخرى .

ومن ميزاته ، ميله إلى العطف على الضعيف ، فهو يناصر قضية العمال حيناً ، وأصحاب الصحف الأسبوعيـــــــة المطالبين بعدم إلغاء الاعلانات القضائية حيناً آخر .

ويجد فيه بعض الأزهريين — من هواة الوفود الطوافين بولاة الأمور «لتقديم المطالب» — نصيراً أى نصير ، وقد كان يحامى عن حملة العالمية فى قانون المحاماة الشرعية وهو المحامى الأهلى ضد الشيخ عباس الجمل المحامى الشرعى . . ومن هذا الموقف تستطيع أن تصف الرافعى بأنه عطوف على الضعيف ، ويستطيع خصومه — إن كان له خصوم — أن يتهموه بأنه يحسن اختيار الموضوعات الشعبية ليقال إنه محامى الشعب ونصير العامل والفلاح ، وأقول الفلاح لأذكر أنه لا يترك مناسبة يرد فيها ذكر التعاون من غير خطبة يلقيها إلا إذا ترك لويس مسألة غطاء الذهب بغير خطبة « يهفها » .

أشـياء أخر :

يقابل هذه الميزات فى عبد الرحمن بك ما أسميه (أشـياء أخر) بدلا من قولى (عيوب) أو (نقائص) أو (مساوىء) فالرجل ظل فوق مستوى الشبهات، حتى اشتدت الخصومة بينه و بين حافظ رمضان باشا ، فبان أن عبد الرحمن تأثر تأثراً كاد يجعل الخصومة شخصية ، فأصبح يختار لنفسه مواقف يبدو فيها كل من الشيخين إزاء الآخر كما يبدو لنا السيد « القط » فى موقفه التاريخى أزاء السيد « الفار » فان اختار الرافعى موقفاً له كهذا، فالنزاهة تكون ساعتئذ مفتقرة إلى «مستندات»!!

وللشيخ صوت رنان يحلو وقعه على الآذان فى مستهل الكلام ، ولكنه لا يحلو إذا أطال ، لأن لهجة الشيخ لا تتغير ، والأسماع تمل الإقامة على اللهجة الثابتة، أوقل إن الشيخ يعوزه الالتحاق بالمغفور له معهد التمثيل ليتلقى فيه شيئاً من فن الإلقاء.

ويبدو أن استقامة الشيخ ذات حدين ، فهى تاج على مفرقه من حيث هو (رجل نظيف) وهى عيب فيه من حيث تحول دون (اللحلحة) التى يتطلبها (التكتيك البرلمانى) من الرجل الحزبى . .

وأخيراً فالرافعى شيخ مخلص لواجبه ، حريص على حضور الجلسات ، له نشاطه فى اللجان وفى القاعة .. خانه الحظ فى الاقتراع على نصف الشيوخ فكان من الخارجين . . وأبقته الحكومة مع زملائه المنتخبين إلى أجل غير مسمى ، ثم خاض غمار الانتخاب الأخير ففاز .

« ل »

الشيوخ

من مشايخ العرب (١)

١ — عبد الستار الباسل بك

٢ — عبد الله الملوم باشا

٣ — كيلانى الأدهس

وهؤلاء الثلاثة الكرام نبقيهم إلى الجزء الثانى من الكتاب

---

(١) بعد صدور الطبعة الأولى طلب إلينا عبد الستار الباسل بك أن نسميهم « مشايخ البدو » لا « مشايخ العرب » لأنه يعتقد أن المصريين الخالصين هم من « العرب » أيضا .

المغفور له يوسف الجندى

فى الساعة الثالثة والدقيقة العشرين من بعد ظهر الجمعة ١٢ ديسمبر سنة ١٩٤١ حملنى القطار من محطة المنيا — فيمن حمل من الخلائق — فى طريقه إلى العاصمة . . . بعد أن حملت بدورى و بين ضلوعى فيضاً من الأسى . . خلفته فجيعتى الأخيرة فى شقيقتى الكبرى . . فكان همى كلما بلغ بنا القطار محطة من المحطات . . أن أجمع ماعند الباعة فيها من الصحف والمجلات . . لتنقلنى القراءة إلى «وادى النسيان» بضع ساعات . .

فلما بلغ بنا القطار «محطة الواسطى» . . كانت صحف العاصمة المسائية قد وصلت إليها . . فاشتريت من البائع « البلاغ » . وفى وقفتى بنافذة القطار ، تصفحت العناوين ... وجمدت ... جمد الذهن عن التفكير ... وجمدت القدم عن المسير ... وظللت أحدق فى شرود إلى علامة الحداد ، وإلى كلمتى « يوسف الجندى » كأنما يوسف شىء غير إنسانى ، لايجوز عليه مايجوز على الأناسى .

فهل كان يوسف صديقاً من الأصدقاء الأعزاء ، الذين سايرتهم من الصبا وسايرونى ، وأحببتهم وأحبونى ، فلم أعد أحتمل نبأ وفاته ، أم تراه كان ذايدٍ علىّ تذكر ولا تنسى ؟!

لا هذا ولا ذاك . . . وكل ماهنالك أنه كان نائب زعيم « المعارضة » فى مجلس الشيوخ أيام كان الوفد فى المعارضة ، وكنت — ولا أزال — الناقد البرلمانى

« للبلاغ » فى هذا المجلس . . . بل قل . . . كان هو الزعيم « الفعلى » للجبهة الوفدية فى المجلس . . . وكنت — ولا أزال — أمثل جريدة ليست من جرائد الوفد ، فما مبعث هذا الجزع الذى هاجمنى مع النعى ؟

كان مبعث جزعى أنى . كنا قد برلمانى — فقدت «البرلمانى رقم ١» ففقدت معه مادة نقدى . وخسرت فيه أشرف خصم اعتلى المنبر فهزه من غير أن يكون بليغا ، و « ناور » فى القاعة بمهارة نادرة ، فناورته من الشرفة ببراعة تستمد منه المهارة المماثلة ، وحرص على الأسلوب العف فى أعنف المواقف فظفر بإعجابى ، وكان بعيد النظر فعرف متى « يعتدل » فحفظ على الحياة النيابية توازنها ببعد نظره وباعتداله ، ودرس نفسيات من يعاملهم فى الكر والفر . . من رياسة فى المجلس إلى وزارة فى الحكم . . إلى شيوخ مؤيدين ومعارضين . . فاكتسب احترام الجميع وإعجاب الجميع . . وكان رياضياً . . إذا انتصر جلس هادئاً ، وإذا انهزم جلس ثابتاً . . وقد عقدت له أعصابه لواء السيادة عليها . هذا هو « البرلمانى رقم ١ » مات فخسره النقد البرلمانى ، وخلا منه الجو فحق للناقد أن يحزن على اختفاء الرجل الذى كان هائلا فى لينه وعنفه . . رائعاً فى مده وجزره . .

وأخـــيراً :

فأنا أؤكد لك أن مصر لم تشهد من بداية الحياة النيابية ، برلمانياً من طراز يوسف ، فاذا كان حسين سرى قد أعاد تعيين يوسف الجندى عضواً فى الشيوخ ، بعد أن أخرجه الاقتراع النصفى ، وإذا كان حسين سرى قد رتب لأبناء يوسف الجندى معاشاً من مال الدولة . . . فانما أدى سرى واجبه الوطنى كاملا ، راستن للعظمة فى مصر سنة كانت تعوزها .

أجزل الله العزاء لمصر وبرلمانها والنقد البرلمانى فيها . . فى شيخها الأول غير منازع . ورحم الله يوسف . .

الباب الرابع

فى مجلس النواب

هيئة المكتب فى الدورة الحالية « مع حفظ الألقاب »

الرئيس	عبد السلام فهمى جمعه باشا
الوكلاء	الأستاذ عمر عمر
	الأستاذ محمد مغازى البرقوقى
المراقبون	الأستاذ أحمد أبو الفتوح
	شاكر غزالى بك
	الأستاذ عبد المجيد الرمالى
السكرتيرون البرلمانيون	الأستاذ محمد فكرى أباظه
	محمد كامل الأسيوطى
	الأستاذ ميخائيل غالى
	الأستاذ يوسف الشريعى

الموظفون المتممون لإدارة الجلسة

السكرتير العام	الأستاذ محمد كامل سليم بك
رئيس المضبطة	الأستاذ أمين ميلاد
السكرتير الموظف	الأستاذ حموده

أعضاء النواب

كان فى نيتى أن أفرد فى هذا المكان من الكتاب بضع «ملازم» أتحدث فيها عن شخصيات صاحب المقام الرفيع رئيس الوزراء و بقية أصحاب المعالى الوزراء، باعتبارهم أعضاء فى مجلس النواب، وأن أختار النجوم التى لمعت حتى اليوم فى سماء هذا المجلس الجديد، من أمثال مكرم عبيد باشا وعبد السلام الشاذلى باشا والأساتذة فكرى أباظه وجلال حسين وعمر عمر وكامل يوسف صالح وعبد الفتاح الشلقانى ومحمد قراعه ومحمد بك قرنى وعبد العزيز الصوفانى ومحمد محمود جلال وعبد المجيد بك عبد الحق و يوسف الشريعى وأحمد أبو الفتوح وعبد المجيد الرمالى وسيد باشا البدراوى وسعد اللبان وزهير صبرى وفريد زعلوك وحسن يس وجلال الحمامصى [1] وعلى عثمان والشيخ عبد العظيم عيد والشيخ عبده البرتقالى وعلى نجيب ومحمود الوكيل ومحمد كامل الأسيوطى وعلى الحلوانى ومعوض الباز وغيرهم وغيرهم.

كان فى نيتى أن أتناول هؤلاء وأمثالهم، ممن غابت عنى الآن أسماؤهم، بوصفهم نجوما لمعت تباينت ألوان لمعانها إعجازاً و إعياء، وقوة وضعفاً، وجداً ومزاحاً، و بلاغة «ولتاً» حتى أحدد بتحليلهم الاتجاهات الجديدة لهذا المجلس.. ولكنى — كما سبق القول فى صفحة سابقة — عدلت عن هذه النية، لا لأن الشيوخ استغرقوا صفحات الكتاب فحسب، بل لأن من الإنصاف أيضاً أن يخصص للنواب كتاب ثان، وأن يفسح لهم من الوقت، لعل كثيرين من الصامتين يبرزون إلى ساحة الكلام، ولعل شدة النضال فى مقبل الأيام، تجلو لنا من المواهب فى بعض النواب، مايمكن لنا من تناولهم بأمانة وخبرة.

إزاء هذا رأيت أن أكتفى بتناول رئيسهم وأدعهم جميعا إلى الجزء الثانى من كتابنا.

---

(١) أسقطت العضوية عن الأستاذ الحمامصى بعد صدور الطبعة الأولى

رئيس مجلس النواب

نعم ، رأيت أن أقنع بتناول الرئيس ، ليجىء الكتاب قصيدة محبوكة الطرفين كما يقول الشعراء ، فقد بدأنا فصولنا بصاحب السعادة الرئيس الحالى لمجلس الشيوخ ، ونختتمها بصاحب السعادة الرئيس الحالى لمجلس النواب .

وثمة دافع آخر أكثر أهمية ، حملنا على أن نجعل رياسة النواب مسكا لختامه ، كما يطيب لبعضهم أن يعبر ، ذلك أن للرياسة أثرها الكبير فى حياتنا البرلمانية (راجع ما كتبناه فى بحثنا البرلمانى فى صدر الكتاب) فحرية الرأى منوطة بسعة الصدر عند الرئيس ، وحسن سير هذه الحياة منوط بحسن تصرف الرئيس ، فمن الخير أن يعجل النقد باثبات مابان له من الألوان فى كرسى الرياسة ، تسجيلا للحسن ولفتاً للنظر .

عبد السلام فهمى جمعه باشا

فى نوفمبر من سنة ١٨٨٥ شهدت بلدة « زرقان » من أعمال مركز تلا « منوفية » مولد عبد السلام ، فعمره الآن سبعة وخمسون[1] من الأعوام .

فهل رأيت الرجل ؟

هل رأيته وهو يقبل من باب القاعة متجهاً إلى منصة الرياسة ، فى مشية الچنرال — يتبعه مدير مكتبه أو بلغة الميدان أركان حربه أو بلغة العباسيين شاعر الخليفة الأستاذ على محمود طه — فاذا بلغ بداية النشز الذى قامت منصة الرياسة فوقه ، تخلف مدير المكتب ومشى الرئيس « عبد السلام باشا فوش » إلى المنصة ، فأخذ مكانه من الكرسى الكبير ، وخلع عنه طربوشه وقذف به فى عنف إلى اليمين

(١) ذكرنا فى الطبعة الأولى أن سنه سبعة وستون ، فكان الخطأ حسابيا أضاف إلى سن الرئيس — ظلما — عشر سنين

أو إلى اليسار ، وطرق المنضدة فى عنف أيضا و بالقلم الذى علم الانسان ... علمه البيان ، وافتتح الجلسة على طريقة « إلى الأمام سيرا » ؟ .

هل رأيته ؟

إن كنت رأيته ، وعرفت مثلى سنه ، فقل معى بحرارة و إخلاص « عين

رئيس مجلس النواب بجرسه الكبير
وقلمه الذى حفيت قاعدته من كثرة الطرق به فوق المنضدة

الحسود فيها عود » و إن كان فى وسعك أن « ترش » حول المنصة شيئاً من الملح الذى عهد كاتب هذه السطور « برشه » إلى « الداده » فى مسرحيته « الفاكهة المحرمة » التى مثلتها له « الفرقة القومية » .. فافعل .. وصل على النبى .

الرئيس شكلا :

نعم . . . افعل وتوكل على الله القوى العزيز ، فالرئيس شكلا يبدو كأنما هو فوق الأربعين بسبع سنين ، ومن حقه — إذن أن يغالط فى عشر سنين ، والرئيس شكلا . . . جندى أدنى إلى إخواننا البواسل الذين يقودهم الآن « ماك آرثر » . . أدنى إليهم فى الطول والعرض . . والطلابة والعنف . . والقامة والجسم . . والطلاقة والتحرير . .

هو شىء هائل أبدعته يد الله فكان إنسانا ، وفيه مواهب هائلة منحتها إياه يد الله فكان رئيسا . .

ملىء الجسم فى غير بدانة ولا ترهل ، قوى العضل بحيث إذا لقيته من غير أن تعرفه ، حكمت عليه بأنه رئيس « برضه » لـكن « لاتحاد المصارعة » أو « لاتحاد الملاكمين » صافى الذهن ، صفاءه فى العين ، فيه وسامة رجولة الريف ، فاذا علمت أن البلدة التى ولد فيها تعتبر أنضر بقاع الريف المصرى ، الذى يمد بنيه بالخيال وبالجمال ، أدركت سر اختياره أخانا الشاعر المغرد على محمود طه مديراً لمـكتبه ، وسر استظرافه وصداقته لأحمد بك أبو الفتوح المراقب الضحوك .

موجز لتاريخه :

ويحسن قبل أن أعرض للرجل رئيساً لمجلس النواب ، أن أقدم لك موجزاً متواضعاً لماضيه المضىء ، قبل أن نواجه ضوء الرياسة الوهاج .

طلب عبد السلام العلم فى المدارس كجميع أبناء الأعيان ، حتى إذا التحق بمدرسة الحقوق الخديوية ، كان الزعيم الشاب مصطفى كامل قد ملأ فجاج مصر وأوروبا بالدعوة إلى تحرير مصر ، فانضم عبد السلام إلى حركة الطلاب ، الذين يناصرون الزعيم الشاب ، وظل يجاهد تحت اللواء ، حتى تخرج فى الحقوق فى سنة ١٩٠٦ ولم يجل بخاطره أن يتمرغ كغيره بتراب الميرى ، أو يقدم للقيد الذهبى يداً لا يحلو لها إلا أن تصفق فى فضاء الله حرة معتدة .

وازدهر نجم عبد السلام الشاب كمحام فى طنطا ، ومن ذلك اليوم وهو يعتز بطنطا والطنطاويين ، حتى لقد أراد مرة أن يرانى ، ليسمعنى رأيه كرئيس لمجلس النواب ، فى طريقتى كناقد برلمانى ، فكان أول ما استقبلنى به قوله « أد إيه كنت سعيد لما عرفت أنك طنطاوى » وأجبته فى بساطة « وأد إيه يؤسفنى أن الأقدار ما حققتلكشى رغبتك وخلتنى طنطاوى . . لأنى منياوى » وضحك كعادته بملء فيه ضحكة الريف الصريحة المخلصة .

نسى الرئيس إذن إقليم المنوفية — أو هكذا خيل إلىّ — وأصبح طنطاوياً باللحم والدم . . وفى طنطا لمع نجمه وازدهر . . حتى إذا قام الوفد المصرى ، كان عبد السلام و إخوانه فى طنطا أول لجنة وفد عامة تألفت ، وأول صوت إقليمى علا وارتفع ، يؤيد الثورة وزعيمها ، وأرجو ألا تخوننى الذاكرة إذا أنا ذكرت أن حرم عبد السلام باشا التى عرفت بالثقافة والأدب يومئذ ، كانت حاملة لواء الجهاد النسائى فى طنطا .

وذاق عبد السلام حلاوة الاضطهاد والاعتقال ، فكان المواطن الوحيد فى مديرية الغربية ، الذى قبض الإنجليز عليه عشية القبض على سعد ونفيه إلى سيشل ، وأودع عبدالسلام السجن ولم يفرج عنه إلا بعد تحقيق طويل ومضن .

ويذكر تاريخ الثورة لعبدالسلام تلك التهمة التى وجهت إليه ، وقبض من أجلها عليه ، هو والغرابلى وعلوى الجزار والدكتور حسن كامل والسيد حسين القصبى . . تهمة تدبير مؤامرة ضد الإنجليز ، وعهد إلى الاستاذ عبد الهادى بك الجندى « وزير الأوقاف الحالى » بالتحقيق معهم ، فكانت صفحة فخار لعبد الهادى . . كان المحقق العادل الذى لم يستجب لرغبة القوة ، ولم ينزل إلا على صوت الضمير وصوت الوطن ، فكشف عن كذب المؤامرة ونجا هؤلاء المجاهدون مما أريد بهم .

وتاريخ عبد السلام النيابى طويل يرجع إلى ثلاثين عاما ، فمن سنة ١٩١١

إلى سنة ١٩٢٤ كان ينتخب عضوا عن طنطا فى مجلسها البلدى، حتى إذا بدأت الحياة النيابية انتخب عضوا فى مجلس النواب ، ومن ذلك التاريخ وهو نائب إلا فى الفترات التى أبعد الوفد فيها عن المجالس النيابية ، وفى سنة ١٩١٣ منح رتبة البكوية من الخديو عباس الثانى ، فلما ولى المغفور له فؤاد الأول سلطنة مصر ، جدد منح الرتبة له فى سنة ١٩١٧ وأنت طبعا تعرف أنه عضو فى الوفد المصرى ، وكان الوكيل الأول لمجلس النواب فى سنة ١٩٣٠ وأنه ولى فى سنة ١٩٣٦ وزارة التجارة والصناعة ، وولى وزارتى المواصلات والصحة بالنيابة فى أثناء المفاوضات التى انتهت بعقد المعاهدة ، وولى المعارف مع التجارة والصناعة فى الوزارة النحاسية الثانية ، وأسندت إليه وزارة الزراعة حين شكلت وزارة النحاس باشا الحالية قبل إدخال أى تعديل عليها ، ثم انتخب رئيساً لمجلس النواب بما يقرب من الإجماع .

فى حياته الخاصة :

ونعرض الان لحياته الخاصة بوصفه عظيما من عظماء هذا البلد .

يعيش عبد السلام باشا عيشة راضية مطمئنة ، لايشوبها من التزويق الاوربى غير القدر الحتمى ، وتقوم فى لبابها على دعامة الريف المصرى ، حتى ليسرف أحياناً فى الصراحة إسرافاً لايعترف به الرجل السياسى ، ولا يقوى على تصوره أبناء « الميكيافيلية » فى السياسة .

والرجل ليس بالغنى جداً وليس بالفقير ، تدور فدادينه حول رقم الأربعمائة ، ولكنها تمتاز ببراءتها من الديون ؛ والرجل بهذه البراءة فخور ، ولعل فى وسعنا أن نردها إلى حرص فيه على المال أو إلى بعد فى النظر ، أو إلى إيمانه بأن المال يصون الكرامة ، والدّيْن هم بالليل ومذلة بالنهار ، والرجل يضع الحياة فى كِفة والكرامة فى أخرى ، والمذلة لاتعرف إليه طريقاً ، ولذلك تسمعه دائماً يُكثر من إنشاد البيت المعروف :

وأظمأ إن أبدى لى المـاء منّة ولو كان لى نهر المجرة موردا

وقد سألت عنه جماعة من الطنطاويين فاختلفوا عليه من ناحيتى الحرص والكرم ، وخرجت أنا من هذا الاختلاف بأن الرجل « معقول » على الأقل ، وإن كان مدير مكتبه — وشهادته تجرّح بحكم القانون — يحلف برأس الرئيس (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم عند على طه) أن «عبد السلام باشا ياسوادى راجل لارچ إلى أقصى حد يمكنك تصوره . . ده كفايه ياشيخ أن عزيز ابنه كان يبعت له شهريا فى فرنسا مائة جنيه »

عزيز ابنه :

وأنا أقف قليلا لألتقط أنفاسى عند كلمتى « عزيز ابنه » . . . فعبد السلام الرئيس العنيف ، يذوب أبوة عند ذكر ولده عزيز . وقد أصابنى شىء من الهوس من كثرة ماسمعت عن « ابنى عزيز عمل » و « ابنى عزيز سوّى » فبحثت وراء حقيقة « ابنى عزيز » هذا فرأيت الوالد محقاً بفخاره بالولد النابه .

إنه وحيده ، خرج به من دنياه هو وبنت واحدة متزوجة من الدكتور على عبد الواحد ويضرب بها المثل فى الزوجية الوفية .

والدكتور عزيز ياسيدى شاعر وأديب قبل كل شىء ، و «عن أبيه» — كما سيجىء — بل له فى الشعر آراء ، وقد سمعت قصيدة من نسجه قال فيها :

الشعر وحى وإيمان وعاطفة فان تجرد فهو النظم والنغم

حصل على ليسانس الحقوق والآداب من الجامعة المصرية ، وسافر إلى باريس ، وهناك أبى إلا أن يجمع إجازاتها فى حقيبته ، فحصل على دبلومى الدراسات العليا فى الاقتصاد السياسى والقانون الدولى العام ، ودكتوراه الحقوق من جامعة باريس ، ولم يقنع بهذه (الزحمة) التى تورث (اللخمة) بل هو يعد الآن رسالتين : إحداهما عن أبى نواس ، وثانيتهما فى الشعر الغزلى عند العرب فى القرن الأول والثانى للهجرة .

فاذا عرفت أن الرسالة التى جاز بها إجازة ليسانس الآداب من الجامعة المصرية كان موضوعها « المفاضلة بين الأدبين الأموى والعباسى » أدركت مدى اعتزاز الشاب بالأدب العربى .

وأنا إذ أعيد مع القدامى بهذه الملاءمة قولهم إن الولد سر أبيه ، لا أتجاوز الواقع ، والواقع أن عبد السلام أديب وخطيب وكاتب ، وفى داره بصناديد « حيث العزبة التى يملكها والڤيللا التى أقامها » مكتبة كبيرة ، وفى داره بطنطا متحف بديع ، وفى المتحف تحف نادرة غير قليلة ، وفى المكتبة ثروة من كتب القانون والأدبين القديم والحديث ، وفيها يحتفظ بكل ماينتجه ولده من شعر ونثر ، والرجل قائم قاعد فى أوقات فراغه بين هذه الكتب ، يتتبع نتاج الفكر العربى والأوروبى ، ويطيب له الاطلاع فى الأدب والسياسة والاجتماع ، أما داره فى طنطا فللسياسة ، أسماها الطنطاويون من قديم « بيت الأمة » وفيها نمت قوة الوفد فى مديرية الغربية .

أما عبد السلام الخلق ، ففى مجموعه يعتبر بين العظماء فى الطليعة ، لا يسكر ولا يلعب ولا يسف ، ولكنه « كفنان » يقدر الجمال ويقع عليه حيث يجده !! ويتمايل طربا كلما غنى عبد الوهاب أو غنت « أم كلثوم » ومن أيام شهد حفلة أقيمت فى بيت رئيس الوزراء احتفالا بعيد ميلاد رفعته و (هاص) بعض النواب من فرط الطرب ، فقالت أم كلثوم المعروفة بجودة النكتة لعبد السلام باشا رئيس النواب « طبق عليهم اللايحه يا باشا » وضحك المدعوون .

عبد السلام النائب والوزير :

ولعبد السلام النائب ماض يذكر ، فقد كان الرجل يعتز بالمعنى النيابى حتى فى بداية الحياة النيابية ، وكان يعارض سعداً زعيم الزعماء فيزداد سعد له تقديراً ، بل ذكر عبد السلام باشا نفسه للنواب من أسابيع موقفاً له ، أشار إليه إشارة

عابرة ، وقال إن وزارة عدلى باشا استقالت فى نفس الليلة[1] .

وأذكر للرجل موقفا آخر . . ففى برلمان سنة ١٩٢٧ وقف النائب المحترم عبدالسلام فهمى جمعه ، يعارض الحكومة فى مشروع شارع الهرم الذى انعقدمن أجله — و بسبب الخلاف عليه — أول وآخر مؤتمر برلمانى فى مصر من أجل خلاف بين المجلسين فى باب من أبواب الميزانية ، وعبثاً حاول سعد إقناع عبد السلام ، وخطب عبد السلام وناقش ، وأخذ الرأى فكان عدد المؤيدين ٦٩ وعدد الرافضين ٦٨ وامتنع الدكتور محجوب ثابت عن التصويت ، فاعتبر المشروع مقبولا ، وكاد عبد السلام يخذل ، ولكنه عاد فى الجلسة التالية فطلب فتح باب النقاش ، ودلل على أن صوت الممتنع عن التصويت يعتبر فى جانب الرفض ، وأخذ المجلس بنظريته فى الجلسة التالية ، فتساوت أصوات المؤيدين والمعارضين ، و بذلك رفض المشروع فى مجلس النواب ، لكن مجلس الشيوخ وافق عليه ، فاجتمع من أجل ذلك المؤتمر الذى أشرنا اليه .

هذه لمحة من عبد السلام النائب :

أما عبد السلام الوزير ، فحسبك منه نهوضه بوزارة التجارة التى وليها ، وكانت أشبه فى فقرها بوزارة التموين الحالية فى مولدها ، بل وليها بعد سفر السير كورپيت الخبير العالمى الذى كان قد استقدم لتنظيمها ، وقام بالإجازة قبل تأليف الوزارة التى اشترك فيها عبد السلام باشا بثلاثة أيام ، فتصدى الوزير نفسه لمهمة التنظيم ونهض بالعبء ، ووضع تشريعات للكتلة العاملة لو امتد به الوقت

(١) ذلك أن بعض النواب اقترح عند عرض الميزانية وبمناسبة إعانة الحكومة لشركة بنك مصر شكر الحكومة ، فنهض عبد السلام معارضا الاقتراح قائلا إنه لا يفهم معنى للشكر والميزانية لم تنظر بعد ، وربما بدا للمجلس أن ينقد الحكومة فى بعض أبوابها فكيف يكون مركزهم إذا شكروا الحكومة قبل نظر . . الميزانية وكيف يمكن التوفيق بين النقد والشكر؟ وأطنب فى هذا المعنى وأيده المجلس فرفض الاقتراح وكان أن استقالت وزارة عدلى باشا فى الحال ، من أجل هذا السبب لا للسبب الذى عزونا إليه هذه الاستقالة خطأ فى الطبعة الأولى

لأقرها البرلمان . وأحسبك ذاكرا سنّة الاجتماعات الزراعية « فى الريف » التى استنها من شهور حين ولى وزارة الزراعة ، وأشرك فيها وزارة الأشغال لتتعاون الوزارتان على خدمة الفلاح ، وقد أعجب بها وزير الزراعة الحالى الأستاذ فؤاد سراج الدين باشا فنسج على منوال سلفه فيها .

وأذكر أن مأخذا واحداً أخذ على عبد السلام الوزير ، فى أثناء توليه وزارة التجارة ، فقد قيل إنه ملأ الوزارة بالطنطاويين ، فاعتبر من أنصار المحسوبية ، وقد عنيت ببحث هذه الناحية ، فعرفت أن عبد السلام نصير على العموم لتشغيل المتبطلين ، وأنه شغل الكثيرين حقا ، ولكن من الطنطاويين وغير الطنطاويين ، فاذا كانت أغلبيتهم من الطنطاويين كما قال خصومه ، فلست أدرى وجه الغرابة فى وزير يؤثر أهل بلده على غيرهم ، وإنما الغرابة أن يقول قائل إنه طفر بموظف إلى درجة لايستحقها ، أو عين غير حاصل على شهادات ، ورفض تعيين حاصل عليها ، وأنا قلت ولا أزال أقول لنفسى ، إن أقصى الأمانى عندى ، أن يكون لكل وزير من وزرائنا عيب واحد كهذا — إذا افترضنا صحته — وقد سبقنى إلى هذه العقيدة أخونا الشاعر الذى قال قديما (كفى المرء نبلا أن تعد معايبه) .

عبد السلام الرئيس :

وأخيراً فقد جاء دور عبد السلام باشا فهمى جمعه رئيس مجلس النواب .

وهذه الناحية هى أولى النواحى بنقدى البرلمانى ، ومن واجبى أن أصدر حكمى للرجل أو عليه صريحا فى غير التواء ، ولكنى — برغم شعورى بواجبى — لا أزال أميل إلى أن أقف منه موقفى من زكى العرابى باشا ، فافسح للرئيس فى الوقت ، ليفسح لى فى الدراسة ، ليجىء حكمى صائباً أو أدنى إلى الصواب .

نعم أميل إلى هذا التريث ، وإن كان الرجل قد قطع شوطا وأرسى قواعد وأسمى نفسه مجدداً ، ولكنه صادف فى نفس الوقت ظرفا غير طيب اقتضاه

الإسراف حيناً فى مصادرة حرية الرأى حرصاً على مصلحة الوطن العليا، ثم راح فى نفس الوقت يلقى الحبل على الغارب للمتكلمين، متى كان كلامهم لامساس فيه بهذه المصلحة.

وعبد السلام باشا وفدى لحماً ودماً، ووفدى أولا وأخيراً، فهو إذا تجرد من الحزبية فى كرسيه بوصفه رئيساً، لا يسعه أن يضحى نهائيا بصالح حزبه بوصفه سياسياً، وحزبه قد عانى فى الأيام الأخيرة بعض الخلافات الداخلية، وعبد السلام لا يزال يرجو أن يرد عليه الوحدة ويعيد إليه التماسك، وهو على هذا الهدى يصادر بعض الآراء التى يظن أن فى إطلاقها قضاء على هذه الوحدة أو على هذا التماسك.

مسألة دقيقة لم يحن الوقت بعد للحكم فيها له أو عليه .. لأنى من أنصار حرية الرأى على طول الخط وبغير قيد أو شرط .. ولكنى فى الوقت نفسه ألتمس بعض العذر لهذه الفترة التى واجه فيها الرجل صالح الوطن، وصالح الحزب، واعتبارات الحرب، وحدة المعارضة (١)

على أن لرياسة عبد السلام جوانب أخر يمكن الخوض فيها، فالرجل يريد أن يبرىء الحياة البرلمانية من العيوب التى تعير بها من خصومها، كعيب البطء وعيب « اللت والعجن » فى الخطب، وعيب تعطيل ميزانية الدولة ليرتوى من بحر الخطب والإنشاء الصادون إلى الخطب والإنشاء، فيلجأ غالباً إلى الطى و « الكلفتة » فيما يحسن عنده أن يطوى و « يكلفت ».

وهذه الطريقة فى الواقع سلاح ذو حدين، وهو يفتن أحياناً فيها حتى يجاوز الحد المعقول أحياناً فى ميزان المعارضة، ولعله لا يجاوزه فى ميزان نفسه، ولكن انفراده بالحكم على تعيين هذا « الحد » احتكار لسلطان لا أحسب اللائحة تجيزه للرئيس.

---

(١) حدثت بعد الطبعة الأولى حوادث تجيز لنا أن نحكم للرئيس أو عليه وسنعرض لها فى الجزء الثانى إن شاء الله.

هذه الطريقه سلاح ذو حدين من غير شك ، وما أبدعها إذا لم يستعمل حدها السيء ، وإذا افترضنا أن عبد السلام باشا لن يلجأ إلى هذا السوء ، ولن يتعرض لحرية الرأى ، فمن يضمن لنا بعد أن يرسى هذا التقليد .. ألا يجيء غداً رئيس غيره يسيء استخدامه ! ؟

وعبد السلام باشا ماهر فى إدارة الجلسة ، ماكر فى كثير من الأحيان ، فهو إن مال إلى « تمرير » مشروع طرح عكسه على النواب . . وطلب إلى أنصار هذا العكس الوقوف ، والوقوف ... مهمة غير هينة فى مجالسنا النيابية .. فلا تقف غالباً إلا أقلية ... فيفوز الرأى الذى يميل إليه الرئيس أو يقتنع بصوابه ... وهى طريقة تحفظ حق « ماركتها المسجلة » لرئيس الشيوخ السابق الذى سبق بها رئيس النواب.

وعبد السلام باشا عنيف كل العنف فى إدارة الجلسة ، يتخذ أسلحته من خالص « النظر والشخط » ويحب أن يكون له فى مكانه من الهيبة والتوقير ، ما كان لسعد زغلول ، وقد يضايق هذا العنف أحياناً بعض النواب ، ولكن !! عبد السلام باشا ماكر كما قلت وبعيد النظر فهو (يلايمها) مع النائب ذى الشخصية وذى الدماغ « الناشف » ذى العارضة القوية وذى الرأى المسموع .

وهو يكثر أحياناً من (الشخط) فى الوزراء ، لعلمه أنهم يحتملون « شخطه » الحبيب ، ولكنه شخط مفيد ، لأن النائب العادى يقول لنفسه « إذا كان الريس بيشخط كده فى الوزير فيعمل معاك أنت أيه » وبهذا الأسلوب تتركز الهيبة فى النفوس .

ومما يدلك على أن العنف الذى يلجأ إليه عبد السلام باشا عنف ماكر ماهر ، أنه يهدد النائب الذى يقاطع بتطبيق اللائحة عليه وإخراجه ، والرئيس مع ذلك وبرغم كثرة التهديدات التى لجأ إليها ، لم يخرج حتى الآن أحداً (١) .

---

(١) حدث بعد الطبعة الأولى أن طبقت أحكام اللائحة على النائب المحترم الاستاذ محمد شعراوى وغضب النائب فلم يشهد جلسات المجلس حتى فضت الدورة .

ويفيد عبد السلام باشا كثيراً تمكنه من البحوث التى تعرض ، فهو يحسن التوجيه دائماً ، ويدلى بالرأى فى حينه ، وكثر أن يكون رأيه فاصلا .

وأنا أحب أن أرجىء حكمى ، له أو عليه ، إلى الجزء الثانى من الكتاب ، لعل الأحداث تكون قد جلت لى ما كان غامضا من شأنه ، فكثيرون يتهمونه بميله إلى الاستئثار بالسلطان ، وهو يؤكد دائماً أنه « خادم المجلس » قبل أن يكون رئيسه ، وأنه «حامى المعارضة» من طغيان الأغلبية ، وأنه نصير حرية الرأى من يوم قامت الحياة النيابية ، وقد أقام الدليل مرة فى جلسة الاثنين ٢٩ من يونيه الحالى (وأنا أكتب لك هذا الفصل صبيحة اليوم الثلاثاء الذى يتم فيه طبع الكتاب) على أنه رئيس ذو شخصية ، ففى هذه الجلسة ثار خلاف أعلن فيه النحاس باشا أن مكرم عبيد باشا لم يعد سكرتيراً للوفد ، واحتج مكرم باشا على هذا الإعلان ، وقال إن النحاس باشا لا يملكه ، ولاحظ عبد السلام باشا أن ذكر هذه الشئون الحزبية ، مكانه خارج البرلمان ، فلفت نظر النحاس باشا إلى هذه الحقيقة ، وطلب إليه ألا يذكر الوفد هنا ، لأنه هنا رئيس حكومة وليس برئيس للوفد ، فكان هذا الموقف من عبد السلام باشا موقفاً « زغلوليا » من غير شك

وبعد فعبد السلام فهمى جمعه — مهما تختلف الآراء على هذه الناحية منه — ملأ مركز الرياسة بجدارة ، وأتاح للنقد البرلمانى أن يلمح فى مقبل الأيام وعلى مسرحها المحبوء ، دوراً أشد عظمة ، لابد أنه يلعبه هذا الرجل العظيم يوما ، ولابد أن يؤثر هذا الدور فى مصير بلاده المسكينة تأثيراً طيباً وهائلا !!

هذه هى نبوءتى « الغامضة » أرجو أن تفسرها الأحداث يوما .

تمت هذه الطبعة الثانية من الجزء الأول

ويليها الجزء الثانى

الخاص ببقية الشيوخ والنواب

تصويب

وقعت أغلاط مطبعية رأينا أن نصوبها فيما يلى :

الخطأ	الصفحة	السطر	الصواب
أضيت	٣٥	١١	أرضيت
السياسة	٣٩	١٥	السيادة
فتائج	٥٩	١٤	نتائج
وأرحىء	٨١	فى الهامش	وأرجىء
أحراب	٨٣	١٢	أحزاب
احتاره	١٠٩	١٩	اختاره
ياشا	١٣٩	٤	باشا
ما اعزمته	١٦٥	٩	ما اعتزمته
بمرسرم	٢٣٧	كلام الصورة	بمرسوم

يطلب من مكتبة العرب
لصاحبها الشيخ يوسف البستانى
٤٧ العجالة مصر

AUC - LIBRARY

DATE DUE

OCT 1973

JF
515
S3x
v.1

FcAC99-B4046

b.12316763
I.13638828